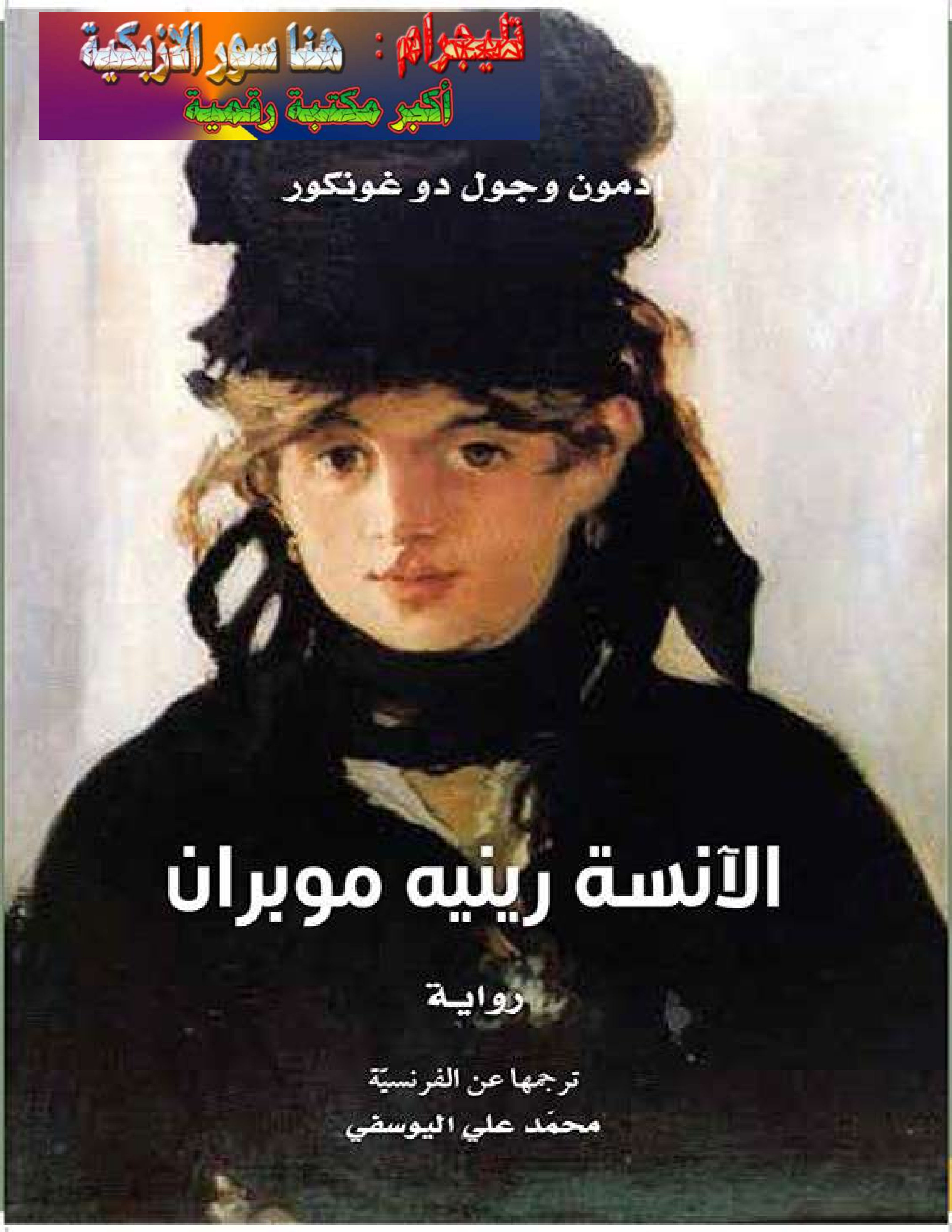

تليجرام : هنا سور الأزبكية
أكبر مكتبة رقمية
ادمون وجول دو غونكور
الآنسة رينيه موبران
رواية
ترجمها عن الفرنسيّة
محمّد علي اليوسفي


أهم جروبات علي تليجرام
باحثون
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية

كلاسيكيّات الأدب الفرنسيّ



إدمون وجول دو غونكور

الآنسة رينيه موبران

رواية


أهم جروبات علي تليجرام
باحثون
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية

ترجمها عن الفرنسيّة

محمّد علي اليوسفي

مراجعة

كاظم جهاد



بيانات الفهرسة أثناء النشر

PQ2261. R4125 2017

Goncourt, Edmond de, 1822–1896

الآنسة رينيه موبران: رواية / تأليف إدمون وجول دو غونكور؛ ترجمة محمد علي اليوسفي؛ مراجعة كاظم جهاد. – ط. 1. – أبوظبي: هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2017.

305 ص. ؛ 14 * 21 سم.

ترجمة كتاب: Renée Mauperin

1– القصة الفرنسية– القرن 19. أ– Goncourt, Jules de, 1830– 1870.

ب– يوسفي، محمد علي. ج– جهاد، كاظم. د– العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة عن الفرنسية للنص الأصلي:
Edmond et Jules de Goncourt
Renée Mauperin (1864)

الغلاف: لوحة لإدوار مانيه Édouard Manet (1872)



www.kalima.ae

ص. ب: 94000 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، Info@kalima. ae هاتف: 579 5995 2 971+


AbuDhabi
Tourism & Culture السياحة والثقافة



أهم جروبات علي تليجرام
باحثون
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية

الآنسة رينيه موبران



مقدّمة المُراجِع

من مفارقات التاريخ الأدبيّ أنّ الجمهور العريض لفنّ الرواية يعرف الأخَوين إدمون وجول هوو دو غونكور Edmond et Jules Huot de Goncourt عبر الأكاديمية الأدبية وجائزة أفضل رواية فرنسية اللّتين تحملان اسميهما أكثر ممّا يعرفهما عبر أعمالهما السردية والنقدية والتاريخية. لكن إذا كان أغلب الجمهور العريض يجهل هذه الأعمال فالأمر ليس ذاته بالنسبة إلى الهواة الحقيقيّين لفنّ الرواية والمتخصّصين في الأدب بعامّة. ذلك أنّ الأخوين فرضا اسميهما على تاريخ الرواية الفرنسية، والعالمية، وذلك لا سيّما وأنّ مغامرتهما الروائية المشتركة شكّلت أحد معالم فترة مفصليّة في تاريخ الرواية هذا، عنينا الفترة التي شهدت تطوّر الكتابة الواقعيّة ونشأة المدرسة الطبيعية naturalisme التي تمثّل تجذيراً للواقعية وتوسيعاً لها وتقعيداً لأصولها في الأوان نفسه. كانت مساهمتهما في إرساء التيّار الطبيعيّ على أسس قويّة من الضخامة بحيث اعتبرهما إميل زولا Émile Zola، الرائد المعترف به لهذه المدرسة، أفضل ممثّلين لها في الأدب الفرنسي. من أجل إثراء الطبيعيّة استخدم إدمون وجول دو غونكور كلّ الإجراءات التي عُرف بها زولا وفلوبير Flaubert من رصدٍ دقيقٍ للواقع وتحشيدٍ لآلاف الوثائق ومتابعة للتطوّرات الفكريّة ومناهج البحث العلميّ. كما ينبغي عدم إغفال ما لعبته نصوص الأخَوين النظريّة، لا سيّما مقدّماتهما الطويلة لأعمالهما الروائيّة، من دور معتبر في ترسيخ التيّار الطبيعيّ ومقاربته للسّرد. ولكن مثلما تجاوز فلوبير الواقعية والطبيعية بعنايته الشهيرة بالأسلوب، تجاوزهما الأخوان غونكور بما يضفيانه على رصدهما للواقع من شاعرية ولمسات من الغرابة تخرج بالرواية من النمطيّة وتلقي بالواقع فجأةً في منقلب آخر.

كان الأخوان رائدين في أكثر من تجربة ومراسٍ أدبيّ. فهما من أكبر ممثّلي الكتابة المشتركة، يقوم بها شخصان ضمن توزيعٍ للعمل فريدٍ من نوعه وفي ضرب من التوأمة الفكرية مع أنّهما كانت تفصل بينهما من حيث الولادة ثماني سنوات. كما كانا من أوّل من عُنيَ ببرجوازية العهد الامبراطوريّ الفرنسيّ الثاني (1852– 1870) وبتفكيك أنماط عيشها وتربيتها للأبناء وما اتّسمت به من خواء فكريّ وجريٍ وراء المظاهر ولهاثٍ وراء المناصب والمشاريع والمقاولات والمصالح والترقيات. لا بل هما يُعتبران من هذه الناحية مؤسَّسي دراسة الطبائع في فنّ الرواية. كما أبديا عناية خاصّة بعالَم المثقّفين والفنّانين، تتبّعا أهواءه ورصَدا تحوّلاته. بهذا المعنى تشكّل أعمالهما السردية إضافة لا إلى الفنّ الروائيّ وحده وإنما كذلك إلى معرفة التاريخ الاجتماعيّ والثقافيّ لحقبتهما التي كانت فوّارة ومترعة بكبير الأحداث. إلى ذلك، يُعَدّ الأخَوان أوّل من أشاع في الأدب الفرنسي نزعة الافتتان بعوالم اليابانيّين، منَحاها، إدمون خصوصاً بعد وفاة شقيقه، مكاناً مشهوداً في الكتابة الأدبية.

وُلدَ إدمون دو غونكور في 1822، ووُلد شقيقه جول بعده بثماني سنوات. نشآ نشأةً أدبيّة في ظلّ يتمهما المبكّر، وعُرفا بفضولهما لكلّ شيء. عاشا من تركة مكّنتهما من العيش لسنواتٍ في ضرب من الدّعة والتفرّغ للكتابة في الريف، على كرههما للطبيعة وولعهما بعوالم المدينة. ظلّا يجولان في المكتبات والمعارض والأسواق الشعبية واقتنيا الكثير من الأعمال الفنيّة والتّحَف والمؤلّفات. ومن عائد بيع هذه المقتنيات نشأ رصيد ماليّ للأكاديمية التي أوصى إدمون بإقامتها باسمه واسم شقيقه الراحل، وهو ما تمّ في 1900، بعد رحيله هو نفسه بأربع سنوات، ثمّ تأسّست الجائزة المعروفة باسمهما في 1902 ومُنحت للمرّة الأولى في 1903.

وضع الأخَوان ستّ روايات مشتركة تحمل كلّ منها عنوان شخصية محوريّة، هي «شارل دومايّي» Charles Demailly (1860)، و«الأخت فيلومين» Sœur Philomène (1861)، و«رينيه موبران» Renée Mauperin (1864)، و«جيرميني لاسيترو» Germinie Lacerteux (1864)، و«مانيت سالومون» Manette Salomon (1867)، و«مدام جرفيزيه» Madame Gervaisais (1869). وتتمحور كلّ رواية حول وسط اجتماعيّ بذاته، وسط المثقّفين في رواية «شارل دومايّي»، ووسط البرجوازية الوصوليّة في الرواية المترجمة هنا، ووسط المستشفيات في رواية «الأخت فيلومين»، ووسط الفنّانين في «مانيت سالومون»، والوسط الدينيّ مصوَّراً عبر صراع

الشهوة والورع في دواخل امرأة في «مدام جرفيزيه»، ووسط المتسوّلين والبؤساء في «جيرميني لاسيترو»، وفي هذه الأخيرة منحا الطبقات الشعبية وتجارب الأفراد «العاديّين» وكلمات الحياة اليوميّة والعاميّة حضوراً وامتداداً يؤكّد النقّاد، وعلى رأسهم الروائيّ إميل زولا، على كونهما غير مسبوقَين، لا بل اعتُبر هذا العمل أوّل رواية فرنسيّة مكرّسة للشّعب.

وإلى حضور واضح في الصحافة الأدبية والنقد الفنّيّ، وضع الأخَوان غونكور معاً عدّة كتب في التاريخ وتاريخ الفنّ: «تاريخ المجتمع الفرنسيّ إبّان الثورة وفي عهد حكومة المُديرين» Histoire de la société française pendant la Révolution et pendant le Directoire (1854)، و«سيرة ماري أنطوانيت» Histoire de Marie-Antoinette (1858)، و«المرأة في القرن الثامن عشر» La Femme au XVIIIe siècle (1862)، و«فنّ القرن الثامن عشر» L'Art du XVIIIe siècle، الذي بدآه في 1859 وأكمله إدمون بعد وفاة شقيقه ونشَره في 1875. ويعرب الكتابان الأخيران عن انسحارهما البالغ بالقرن الثامن عشر، جمع في نظرهما بين الحسيّة والروحانية، واعتبراه «قرناً مغتالاً». ولم يكن عملهما هذا في كتابة التاريخ منفصلاً عن تجربتهما الروائية، ففي إحدى عباراتهما الشهيرة يلخّصان ما كانا يؤمنان به من ترابط عميق بين الجنسين: «المؤرّخون هم ساردو الماضي مثلما أنّ الروائيّين هم ساردو الحاضر.» على أنّ صنيعهما المشترك الأكبر والأكثر شهرة، والذي اضطرّ إدمون إلى إكماله وحيداً فيما بعد، إنّما يتمثّل في يوميّاتهما المشتركة التي كانا يواظبان على وضعها بحرص بالغ، يصفان فيها ما سمعاه وما شاهداه، مركّزين على الجوانب المعتمة أو الغريبة من النّفوس. وقد أعربا هنا عن قدرة عالية على التهكّم والسخرية النقدية جعلت من هذا العمل أشهر آثارهما وأكثرها رواجاً إطلاقاً.

بعد فترة من الجنون، توفّي أصغر الشقيقَين، جول، في 1870، فألفى إدمون نفسه شبه عاجز عن مواصلة المغامرة الأدبية التي شكّلت نابض حياتهما الأساس، هو وشقيقه. بقي لازماً الصّمت طيلة سبع سنوات. ثمّ دفعته الشبيبة المحتفِلة بأعمالهما وحميّة اللقاءات الأدبية إلى معاودة فعل الكتابة. فوضع أربع روايات وتعمّق في الشغف بالرّسم اليابانيّ الذي كان قد شاطره إيّاه شقيقه، وواصل كتابة اليوميّات التي كانا قد كتبا معاً آلاف الصفحات منها. وبين 1887 و1896 نشر تسعة أجزاء من هذه اليوميّات Journal، تبدأ أولى صفحاتها بالعام 1851. بيد أنّه اقتصر فيها على نشر ما لم يكن جارحاً أو فاضحاً تماماً. ثمّ عندما صدرت اليوميّات في صيغتها الكاملة في

اثنين وعشرين مجلّداً في طبعة موناكو بين 1956 و1958، ألفت الساحة الأدبية نفسها إزاء وثيقة ضخمة وكاشفة سلّط فيها الأخَوان في البداية، وإدمون وحده من بَعد، أقسى الأضواء الممكنة على عصرهما. وممّا يجدر التنويه به أنّ مارسيل بروست Marcel Proust كان من أكبر المعجبين بهذه اليوميّات، وقد قام بمحاكاتها في فترة نشأته الأدبية التي عمل فيها على محاكاة كبار الأدباء ومعارضتهم.

هذه القسوة وهذا التدقيق شبه التشريحيّ وهذا البرم بأخلاق الحقبة وطبائعها، هذا كلّه نلاحظه في الرواية الحاليّة. فيها يرصد الشقيقان أُسَر الملاّكين الكبار تربّي أبناءها على السّعي إلى احتلال المناصب الرفيعة بشتّى السّبُل، وتجبر بناتها على اكتساب آداب لياقة الصالونات والمحادثة والظّهور في ما يُدعى «المجتمع الراقي» كما لو كان هذا الأخير هو الصيغة الوحيدة الممكنة للحياة. والفجيعة المزدوجة التي تطوّح بمصير العائلة والتي يذهب ضحيّتها كلّ من ابن الأسرة وابنتها الصغرى تأتي لتشكّل خاتمة متوقّعة لسلسلة من اللّوحات والجلسات التي كشف فيها المؤلّفان عن أفظع مثالب هذا المجتمع وأفدح تناقضاته. رواية قد تكون مسرحية الطابع، جعلا فيها من كلام الشخوص ومحاوراتها الطويلة أوسع نافذة ممكنة على خوائها الأليم وبحثها الخائب سلفاً عن امتلاء متعذّر بسببٍ من رداءة الوسائل المتّبعة لبلوغه.

في هذه الرواية كما في الروايات الأخرى، نهل الأخوان من عالمهما الشخصيّ ومن محيطهما العائليّ والاجتماعيّ تجارب ووجوهاً غفيرة. بعض الأشخاص الحقيقيّين الموصوفين في يوميّاتهما ببراعة أدبية مشهودة شكّلوا ما يشبه تخطيطات أوّلية لعديد الشخصيات الروائيّة. ولعلّ البخل الماديّ والروحيّ والنفاجة ورغبة الظهور والفظاظة الكامنة وراء لغة الصالونات المنمّقة تشكّل السّمات الأبرز لهذه الكائنات. لكنْ مهما تكن متانة الصلة بين الشخصيات الفعليّة والشخوص السرديّة فإنها لا تكفي لتفسير هذا السِّحر الذي يشيع في كتابة الأخوين والمتأتّي، من بين عوامل أخرى، من هذا المزيج الذي أشرنا إليه أعلاه من الدقّة في الرصد الموضوعيّ والقدرة على التقاط ما هو غريب وصادم في الطبائع والسّلوكات من جهة، والشاعرية ونبرة السخرية الفذّة في معالجة التجارب من جهة أخرى.

محرّر السلسلة

كاظم جهاد

إلى تيوفيل غوتييه

A Théophile Gautier

1

– ألا تحبّين المجتمع الرّاقي، يا آنسة؟

– ألن تفشي السرّ؟ إنّني ألتزم بالصمت عندما أكون فيه... هذا هو الأثر الذي يتركه فيّ أناسُه. ربّما يعود هذا إلى أنّني لم أكن محظوظة. لقد بُليتُ بشبّان جادّين، هم أصدقاء شقيقي، شبّان من فئة الاستشهاد بالأمثلة، كما أسمّيهم. هؤلاء الشبّان لا يمكننا محادثتهم إلّا عن آخر موعظة استمعوا إليها، آخر معزوفة بيانو درسوها، أو آخر فستان ارتدته الفتيات من بينهم: الحديث مع أبناء جيلي محدود الأفق.

– أعتقد، يا آنسة، أنك تمكثين طيلة السنة في الريف؟

– نعم... أوه! نحن في غاية القرب من باريس... هل هو جميل ما عُرض ضمن الأوبرا الهزلية هذه الأيّام؟ هل شاهدت العرض؟

– نعم، يا آنسة، عرض فاتن... موسيقى ذات عظمة وجلال... كانت باريس كلّها حاضرة في العرض الأوّل. ويمكنني أن أخبرك بأنّني لا أحضر إلّا العروض الأولى.

– تصوّرْ أنّه العرض الوحيد الذي يأخذونني إليه، أوبرا المغنّاة الهزلية... مع الفرنسيين... وإلى الفرنسيين أيضاً، عندما تُعرض الروائع... وأنا التي أجد تلك الروائع مضجرة! تصوّرْ أنّهم يمنعونني من الذهاب إلى مسرح الباليه روايال!... أقرأ نصوص المسرحيات، مثلاً... أمضيت وقتاً في حفظ مسرحية «المهرّجين»[1] عن ظهر قلب... أنت تستطيع الذهاب أينما شئت.. إنك سعيد حقّاً... في مساء ليس ببعيد، حدث نقاش بين أختي وصهري، حول حفل الأوبرا الراقص... هل صحيح أنّه يستحيل الذهاب إليه؟

– مستحيل، يا آنسة؟... يا إلهي...

– يا ترى، لو كنتَ متزوّجاً، هل كنت ستصطحب زوجتك إليه... مرّة واحدة... للفرجة؟

– لو كنت متزوّجاً، يا آنسة، لما اصطحبت إليه حتّى...

– حماتك، أليس كذلك؟... ألهذه الدرجة هو شنيع، حقّاً؟

– لكن هناك وصلة موسيقية، يا آنسة...

– منوّعة، أعرف ذلك. لكنّه يحدث في كلّ مكان... نذهب إلى المضمار[2] مثلاً... وهناك يوجد عزف، حمداً للربّ! نساء... طريفات نوعاً ما... يحتسين الشمبانيا في عربات الخيل... فما بالك بغابة بولونيا إذن!... ما أغبى أنْ يكون المرء شابّاً، ألا توافق على ذلك؟

– عجباً يا آنستي! لماذا يا ترى؟ أنا أرى، بالعكس...

– أتمنّى رؤيتكَ هناك! سوف تدرك حينئذ ما معنى ذلك العذاب، عذاب أن يكون المرء لائقاً! انظرْ مثلاً، نحن نرقص الآن، أليس كذلك؟ هل تظنّ أنّ بإمكاننا الحديث مع مرقِّصنا؟ نعم، لا، لا، نعم... هذا كلّ شيء! لا بدّ من ترديد المقطع الأحاديّ كامل الوقت... هذا لائق! وتلك هي متعة وجودنا... وكلّ شيء هو هكذا... وما هو لائق جدّاً ربّما كان ممارسة البغاء... أنا، لا أعلم... ثمّ البقاء للثرثرة مع الأشخاص الذين هم من جنسك... عندما يكون لنا بؤس إطلاقهم لمجتمع الرجال... لقد عوقبت كثيراً من قبل أمّي بسبب ذلك! هناك شيء آخر غير لائق أبداً، هو القراءة. منذ سنتين فقط سمحوا لي بقراءة الروايات المتسلسلة في الصحيفة... وهناك في صفحة المتفرّقات جرائم يجعلونني أتجاوزها: فهي ليست لائقة كفاية...، إنّها مثل دروس اللّياقة التي يُسمح لنا بها... فينبغي أن لا تتجاوز معدّلاً بسيطاً: فإذا تجاوز الأمر عزف قطعة دويتو[3]، أو الرسم بقلم الرصاص فقط، يصبح الأمر تكلّفاً، وادّعاءً... إليك بهذه الحقيقة: أنا أتعاطى الرسم الزيتيّ؛ وهذا يزعج عائلتي... ينبغي أنْ لا أرسم إلّا الورود بالألوان المائية... لكن يوجد تيار هوائيّ هنا، أليس كذلك؟ لا نكاد نتماسك واقفين...

هذا الكلام قيل في تفرّع لنهر السين، بين لابريش وجزيرة سان دني.

الفتاة والشابّ المتحدّثان بتلك الطريقة كانا في الماء. بعد التعب من السباحة، وجرّ التيّار لهما، تشبّثا بحبل الرسوّ لإحدى السفن الكبيرة التي كانت تتاخم ضفة الجزيرة. كانت قوة الماء تؤرجحهما كليهما بلطف، عند طرف الحبل الممدود والمرتعش. فكانا يغوصان قليلاً، ثمّ يطفوان من جديد. كان الماء يصفق صدر الفتاة، ويرتفع في فستانها الصوفيّ حتّى العنق، ويلقي عليها من الخلف موجة صغيرة، لا يبقى منها بعد لحظة، إلّا قطرة ندى موشكة على السقوط من طرف أذنها.

ولأنّها كانت متشبثة أعلى من الشابّ قليلاً، كان ذراعاها في الهواء، وقد قلبت رسغيها من أجل الإمساك بالحبل بطريقة أفضل، وظهرها يستند إلى خشب السفينة الأسود. كانت غريزة حياء تجعل جسدها يتهرّب كلّ لحظة من جسد الشابّ، المدفوع صوبها بقوّة التيار. كانت وهي على تلك الهيئة، المعلّقة والمتهرّبة في آنٍ، أشبه ما تكون بآلهة البحار التي ينقشها النحّاتون في جنبات السفن الشراعية. كان هناك رعشة، تأتيها من حركة النهر ومن برودة السباحة، وتكسبها شيئاً من تموّج الماء.

– آه! هوذا، مثلاً، تابعتِ الحديث، ما ينبغي أن لا يكون ملائماً البتة، السباحة معك... لو كنّا نستحمّ في البحر لكان الأمر مختلفاً. يمكننا ارتداء أزياء بحرية مثل هذه تماماً... والنزول من حجرة حمّام كما نزلنا من البيت. ونكون قد تمشّينا على الشاطئ كما تمشّينا على ضفة النهر... ونغطس في الماء حتّى هنا، مثلما هي حالنا هنا تماماً... وتدفعنا الموجة على شاكلة التيار... لكنْ لن يكون الوضع هو نفسه أبداً، على الإطلاق: ماء نهر السين ليس ملائماً! اسمعْ! بدأت أشعر بالجوع... وأنت؟

– يا آنسة، أعتقد أنّني سأتشرّف بتناول طعام العشاء...

– آه! أنبّهك، أنا آكل.

– كيف ذلك، يا آنسة؟

– نعم، أفتقر إلى الحسّ الشعريّ وقت الأكل... سأخدعك إنْ أنا أخفيتُ عنك أنّ لي معدة. أنت من النادي نفسه الذي ينتمي إليه زوج أختي؟

– نعم آنستي، أنا من النادي نفسه الذي ينتمي إليه السيّد دافاراند.

هل معكم الكثير من الناس المتزوّجين في ناديكم؟

– طبعاً هم كثيرون، يا آنسة.

– هذا وضع متفرّد... لا أتوصل إلى الفهم لماذا يتزوج الرجل. لو كنت رجلاً، لما فكرتُ في الزواج أبداً كما يبدو لي...

– من حسن الحظّ أنك امرأة، يا آنسة!...

– آه! نعم، هوذا وجه آخر لشقائنا: لا نستطيع البقاء عزّاباً بدورنا... لكنْ هل في مقدورك أنْ تقول لي لماذا ينتمي المرء إلى نادٍ عندما يكون متزوّجاً؟

– لكنْ، آنستي، لا بدّ من الانتماء إلى نادٍ، خصوصاً في باريس... كلّ رجل في وضع جيّد نسبياً... حتّى ولو كان ذلك من أجل الذهاب إليه للتدخين...

– كيف! أما زالت النساء من دون مقصورة تدخين؟ أنا لن أرفض ذلك... لن أرفض غليون الفلس الواحد!

– هل عندكم جيران، آنستي؟

– أوه! نحن نجاور قلة من الناس. توجد عائلة بورجو، في سانوا، حيث نذهب أحياناً.

– آه! عائلة بورجو... لكن، هنا، ألا يوجد أحد؟

– أوه! يوجد الخوري... آه! آه! في المرّة الأولى التي تناول العشاء في البيت، ابتلع طاسة غسول الفم! آه! سيّئ ما أقوله الآن... إنّه رجل طيب جدّاً... يأتيني بباقات دائماً...

– هل تركبين الخيل، يا آنسة؟ لا شكّ أنك تجدين في ذلك تسلية كبيرة.

– نعم أحبّ ذلك. في ركوب الخيل متعتي الكبرى. ما أحبّه على وجه الخصوص هو رحلة صيد بالمطاردة. لقد تربّيت هناك، في بلاد أبي... أوه! أنا فتاة مهووسة... هل تعلم أنّني مكثت ذات يوم سبع ساعات على صهوة حصان من دون نزول؟

– أوه! أعرف ما يعنيه ذلك، يا آنسة... فأنا أصطاد بالمطاردة سنوياً، في منطقة البيرش، مع رهط من كلاب السيّد دو بوليو... ربّما سمعت عنه؟ أتى بذلك الرهط من انجلترا... حصلنا في السنة الماضية على ثلاث حصص ساخنة من صيد الكلاب... هنا توجد رحلات صيد شانتيي...

– لا أغيب عنها أبداً مع بابا... خلال المرّة الأخيرة، كانت رائعة حقّاً... في لحظة ما، عندما تجمّع المشاركون... كان هناك ما لا يقلّ عن أربعين حصاناً... تعرف جيّداً أنّها تستثار عندما تكون مجتمعة... ولقد انطلقنا في قافلة عدْوٍ... وأكثر من ذلك، ففي ذلك اليوم حظينا بغروب

في منتهى الروعة على المستنقع... الهواء، الريح في الشَّعر، الكلاب، الأبواق، الأشجار المتطايرة أمام عينيك... كما لو كنت في نشوة! في تلك اللحظات، أكون شجاعة، نعم شجاعة...

– في تلك اللحظات فقط يا آنسة؟

– أوه! يا إلهي، نعم... على صهوة الحصان فقط... لأنّني أحسّ بالخوف كثيراً في الليل عندما أكون مترجّلة، وأنا لا أحبّ الرعد بتاتاً... وأنّني مسرورة جدّاً لغياب ثلاثة أشخاص في عشاء الليلة.

ولمَ ذلك يا آنسة؟

– كنّا سنكون ثلاثة عشر!... وكان عليّ أنْ أمارس دناءات من أجل مجيء الرابع عشر... لو أنك شاهدت ذلك!... آه! هوذا أخي برفقة دونوازال، وسيجلبان لنا السفينة. انظرْ ما أجمل المشهد من هنا، كلّ هذا، في هذه الساعة..

وبنظرة منها أشارت إلى نهر السين، إلى الضفتين، وإلى السماء.

كانت غيمات صغيرات تتراقص وتتدحرج في الأفق، بنفسجية، رمادية، فضية، مع بروق بيضاء في أعاليها تبدو كأنّها تضع أسفل السماء رغوة حافة البحار. من هناك ترتفع السماء، لامتناهية وزرقاء، عميقة وصافية، زاهية وشارعة في الشحوب، كما في الساعة التي تبدأ فيها النجوم تضيء خلف ضوء النهار. وفي الأعلى تماماً تحوم غيمتان أو ثلاث، صلبة ثابتة، معلّقة. ضوء كثيف يسيل فوق الماء، ينام هنا، يتلألأ هناك، يجعل نسيج الفضة يرتعش عند ظلال السفن، يلامس سارية، أو رأس دقّة، ويتخلّل لدى مروره قماشاً مدْراسيّاً[4] برتقالياً أو قميصاً ورديّاً لإحدى الغاسلات.

كان الريف والضاحية وأطراف المدينة تختلط على الضفتين. وتلوح صفوف حور بين البيوت المتباعدة كما في طرف مدينة تتلاشى. كان هناك أكواخ واطئة، وأسوار خشبية، وحدائق، ومصاريع خضراء، ومتاجر خمور مدهونة بالأحمر، وأشجار سنْط أمام الأبواب، وبراميل قديمة، وعرائش مائلة من إحدى الجهات، وأجزاء من جدران بيضاء تعشي الأبصار؛ يلي ذلك صفوف قاحلة من المعامل، ومبانٍ من الآجرّ، وسطوح من قرميد، وتغطية من الزنك، وأجراس ورشات. كان

هناك أدخنة تتصاعد مستقيمة من المعامل، وتسقط ظلالها على الماء مثل ظلال أعمدة. وعلى إحدى المدافئ كُتِبَ: تبغ. وعلى واجهة من الحصى والأنقاض، يمكن قراءة: دوريموس، المسمّى لابيش، مناوِب في قيادة السّفن. وفوق قناة مزدحمة بزوارق صندل مسطّحة، يرفع جسر دوّار ذراعيه السوداوين. كان ثمة صيادون يلقون بصناراتهم أو يسحبونها. عجلات تئزّ، وعربات تذهب وتعود. حبال لجر السفن تتهرأ في الدرب الصدئ، المتيبّس، المسودّ، والمدهون بكلّ الألوان، بفتات الفحم، ورواسب المعادن، وبقايا الموادّ الكيمياوية. ومن معامل الشموع، ومعامل الغلوكوز، ومعامل النشويات، ومعامل التكرير المزروعة على طول الرصيف، ما بين الإخضرار الضئيل، تخرج رائحة غامضة من الشحم والسكر، تحملها انبثاقات الماء وروائح القطران. صخب مسابك، وصفارات آلات بخارية تمزّق صمت النهر باستمرار. كانت تلك منطقة تجمع بين آسنيير وساردام وبوتو، وتمثل واحداً من تلك المشاهد الباريسية المحاذية لضفتَي السين، كما يرسمها هرفييه، قذرة ومشعّة، بائسة ومرحة، شعبية وحيّة، حيث تمرّ الطبيعة هنا وهناك، ما بين هيكل البناء، والعمل والصناعة، مثل عشبة بين أصابع إنسان.

– جميل، أليس كذلك؟

– يا إلهي، بصراحة يا آنسة، هذا لا يثير حماستي... إنّه جميل... إلى حدّ ما.

– بلى، هو جميل! أؤكّد لك أنّه جميل... كان هناك في المعرض، منذ سنتين، تأثير من هذا النوع... به! لم أعد أعرف... كان كذلك... أنا، هناك أشياء أحسّ بها...

– آه! أنت فنانة بالفطرة، يا آنسة...

– أوف!، ردّت مخاطِبة الشابّ بنبرة صوت هزلية.

واندفعت إلى الماء. عندما ظهرت من جديد، بدأت تسبح باتجاه الزورق الذي كان قادماً نحوها. كان شعرها قد انحلّ وتبلّل وهو شبْه طافٍ خلفها: فكانت تنفضه لتنبثق منه قطرات من الماء.

كان المساء يدنو. والسماء تتحزّز باللّون الورديّ ببطء. هبّ نسيمٌ على النهر. وفي أعالي الأشجار، كانت الأوراق ترتعش. وبدأت طاحونة صغيرة تشكّل شعاراً على باب ملهى بالدوران.

ولما كانت السابحة تحاذي السلّم الموجود في مؤخّرة الزورق:

– إذن يا رينيه! كيف وجدتِ الماء؟ قال لها أحد المجذّفين.

– كان جيّداً، أشكرك يا دونوازال.

– أنتِ لطيفة، عجباً، قال لها الآخر، تذهبين إلى الشيطان... كنتُ قلقاً تقريباً... وروفرشون؟... آه! نعم، ها هوذا.

2

ولد شارل لويس موبران سنة 1787. وهو ابن محامٍ شهير ومحترم في اللورين والباروا، بدأ الخدمة في السادسة عشرة– كتلميذ في مدرسة فونتينبلو العسكرية. عُيِّن ملازماً في الفوج الخامس والثلاثين من مشاة الخطّ[5]، ثمّ ملازماً أوّل في الفوج نفسه، وقد تميّز في إيطاليا بشجاعة في كلّ المحن. ففي معركة بوردينون، وقد كان جريحاً، وتحيط به جموع فرسان معادية تطالبه بالاستسلام، ردّ على الإنذار بأمر مهاجمة العدوّ، وتمكّن شخصياً من قتل أحد الفرسان الذين كانوا يهدّدونه وشقّ منفذاً مع رجاله، عندما ناء تحت وطأة العدد، وأصيب في رأسه بطعنتي سيف جديدتين، فسقط مثخناً وتُرك في عداد الأموات. ولقد تمّت ترقيته من نقيب في الفوج الثاني للبحر الأبيض المتوسط، إلى نقيب مرافق للجنرال روسيل دوربال، وشارك معه في حملة روسيا، حيث كسرت كتفه اليمنى بطلق ناريّ غداة معركة موسكوفا. في سن السادسة والعشرين، سنة 1813، صار ضابطاً في جوقة الشرف وقائد سَرِيّة. وفي الجيش كان يُعتبر من بين شبّان الضباط السامين الذين ينتظرهم مستقبل مشرق، عندما أدّت معركة واترلو إلى تهشيم سيفه وآماله. لكنّه، وبنصف راتب، تدخّل مع العقيدين سوزيه ومازيو في مؤامرة البازار الفرنسي البونابرتية. وبعد الحكم عليه غيابياً، بوصفه عضواً في اللجنة الإدارية، من قبل المجلس الأعلى للنواب الذي تشكّل في محكمة عدلية، تمكن بعض أصدقائه من إخفائه وترحيله إلى أمريكا. وخلال الرحلة البحرية لم يدرك كيف يشغّل نشاطه الدماغي، فتكفّل بالدراسة لصالح مرافق له في الرحلة كان ينتظر قبوله طبيباً في أمريكا، ولدى وصوله أجرى الامتحانات بدلاً منه. وبعد عامين من الإقامة في الولايات المتحدة، أدّت الصداقة الأخوية والتأثير الكبير لرفاق انخرطوا في الخدمة النشطة إلى الحصول على عفو وعودته إلى فرنسا. فعاد إلى مدينة بورمون الصغيرة، ليسكن بيت العائلة حيث كانت تقطن أمّه. كانت تلك الأمّ عجوزاً رائعة بروعة عجائز القرن الثامن عشر في الأقاليم، جامعة بين المزاح وعدم الاعتراض على احتساء القليل من الخمر. كان ابنها مولعاً بها؛ ولقد وجدها مصابة بمرض جعل الأطباء يمنعون عنها المنبّهات: وهكذا تخلّى عن الخمر والمشروبات الكحوليّة، والقهوة، حتّى لا يثير رغبتها ويجعل حرمانها أهون بمقاسمتها إياه؛ وبدافع التعاطف معها واحتراماً ومبرّة برغباتها وهي مريضة، قرّر الزواج. ولقد تزوّج من دون رغبة كبيرة من ابنة عمّ له اختارتها أمّه بدافع من وجود ملْكية مشتركة، وأراضٍ متجاورة، وهو كلّ ما يضمن الارتباط والتلاقي بين العائلات والثروات في المقاطعة.

بعد وفاة أمّه، وإحساسه بضيق المكان في تلك المدينة الصغيرة التي لم يعد يشدّه إليها أيّ شيء، عمد السيّد موبران الممنوع من الإقامة في باريس إلى بيع منزل بورمون، وبقايا ممتلكات صغيرة في البلاد، باستثناء مزرعة في فيلاكور، وذهب للعيش مع زوجته الشابّة في ملكية كبيرة اشتراها في أقصى الباسيني، في موريمون. وهناك حصل على بقايا الدير الكبير، وهي قطعة أرض جديرة بالاسم الذي أطلقه عليها الرهبان: مُورْ أُو موند[6]، قطعة بريّة بديعة من الطبيعة تنتهي بمستنقع يبلغ مائة فدّان وغابة سنديان لا يمكن تحديد عمرها، ومروج محصورة في قنوات صخورٍ منحوتة حيث يتدفّق الماء الجاري تحت مهاد عرائش الأشجار، ونباتات صحراء مهجورة في سبيل حالها منذ الثورة، وينابيع تحت الظلال، وزهور برية، ودروب حيوانات، وخرائب بساتين على خرائب بنيان. وهنا وهناك صخور صامدة. كان الباب لا يزال قائماً، وكذلك الدكك حيث يُقدّم الحساء للشحاذين؛ هنا صدر كنيسة بلا سقف، وهناك الطوابق السبعة للجدران على طريقة مونترُويْ. كان جناح المدخل، الذي شُيّد خلال بداية القرن الماضي، هو الوحيد الذي لا يزال قائماً، بكامله، سليماً تقريباً: وهناك استقرّ السيّد موبران. ولقد عاش هناك حتّى 1830، وحيداً منكبّاً على الدراسة، مستغرقاً في القراءة، مكتسباً تعليماً واسعاً، وعلماً في مختلف الاتجاهات، ممتلئاً بأفكار المؤرخين، والفلاسفة والسياسيّين، ومستكشفاً بعمقٍ كلّ علوم الصناعة. ولم يكن يترك كتبه إلّا لاستنشاق بعض الهواء، وإنعاش ذهنه، وإرهاق جسده بنزهات طويلة عبر الحقول أو عبر الغابات. ولقد بات من المعتاد في البلاد رؤيته على هذه الطريقة: من بعيد يبدأ الفلاحون بالتعرّف على خطوته، وسترة الرودنغوت المزرّرة، وساقي ضابط الخيالة الطويلتين، ورأسه الذي يحنيه قليلاً، والدعامة المقتلعة من كرمة ويستخدمها موبران كعكاز.

يخرج السيّد موبان من تلك الحياة المجدّة والخفية في فترة الانتخابات: فكان يظهر وقتها في كلّ نقاط المقاطعة. يسرع في عربات مغطاة، يلهب اجتماعات الناخبين بنار صوته العسكريّ، ويقود الهجوم على مرشّحي الإدارة: وتلك كانت الحرب أيضاً بالنسبة له. ثمّ، وبعد انتهاء الانتخابات، يغادر شومون ويسترجع عاداته ويتوغّل في الهدوء المعتم لدراساته. أنجب طفلين هما ذكر سنة 1826، وأنثى سنة 1827. وحلّت ثورة 1830؛ وكان قد عُيّن نائباً.

وصل إلى مجلس النواب بنظريات أمريكية تقرّبه من أرمون كاريل[7]. وكان هناك أثر عميق لكلامه الحيّ، المباغت والحربيّ والمحمَّل بالمفاجآت. وهكذا صار أحد ملهمي صحيفة

«الناسيونال» وكان من أوّل المساهمين فيها، ويهيّئ لها مقالات تهاجم الميزانية والسياسة المالية. قدّم له قصر التويلري[8] عروضاً؛ وكان هناك رفاق قدامى له، صاروا مرافقين للملك الجديد يجسون نبضه من أجل مركز عسكري عالٍ، ومهمة في القيادة، ومستقبل لا يزال يلائم عمره. لكنّه كان يرفض كلّ ذلك رفضاً قاطعاً. وفي سنة 1832 وقّع على احتجاج نواب المعارضة ضدّ كلمتَي: رعايا الملك، اللتين نطق بهما السيّد دو مونتاليفي، وظلّ يقارع النظام حتّى 1838.

في تلك السنة أنجبت له زوجته طفلة فتسبّبت ولادتها في تحريك مشاعره. ذلك أنّ ولديه السابقين لم يكسباه إلّا فرحاً بارداً، وسعادة بلا بهجة؛ كان ينقصهما شيء ما، يهلّل له الأب وتتفتّق به ضحكة بيت الأسرة. فكلاهما ضَمِنا حبّ السيّد موبران دون ولعه. وخاب أمل الأب في التمتّع بوجودهما. فعوض الابن الذي حلم به طفلاً حقيقياً، عفريتاً، واحداً من تلك الشياطين الجميلة التي يستعيد فيها العسكريون القدامى فتوّة دمائهم وما يشبه لعلعة البارود، ألفى السيّد موبران نفسه أمام صبيّ عاقل، طفل وديع جدّاً، «آنسة» كما كان يقول عنه: وتسبّب له ذلك في حزن عميق، ممتزج ببعض العار لأنّه حصل على وريث يتمثل في هذا السيّد الصغير الذي لم يكن يكسر ألعابه. ومع ابنته أصيب السيّد موبران بالضجر نفسه: كانت من تلك البنيّات اللائي يولدن سيّدات. كان يبدو عليها أنّها تلعب معه لكي تسلّيه. ولم تكد تعيش طفولة حقيقية. في سن الخامسة، كانت، عندما كان يأتي رجل لمقابلة والدها، تركض وتغسل يديها. كان ينبغي تقبيلها في بعض المواضع: كأنما جاءت إلى الدنيا مع خشية أنْ تدعكها ملاطفات أبيها وقلبه. وهكذا فإنّ كلّ مشاعر الحنان لدى السيّد موبران، بعد طول تجمّعها وتكثّفها، انطلقت نحو مهد القادمة الجديدة التي سمّاها رينيه، باسم أمّها اللورينيّ الأصل. صار يمضي أيّامه مع صغيرته رينيه في مداعبات بلهاء ممتعة. وفي كلّ لحظة ينتزع طاقيتها كي يرى شعرها الحريري الصغير. وكان يعلّمها بعض التقطيبات الصغيرة التي كانت تسلب لبّه. ويجعلها ترى شحمها بقرص لحم فخذيها الصغيرين بأصابعها الصغيرة. وينام بجانبها على السجّادة التي تتدحرج عليها، وهي تكاد تكون عارية، بعدم الإدراك الجميل الذي يميّز الأطفال. وفي الليل ينهض كي يتأمّلها نائمة، ويمضي ساعات في الإنصات إلى هذا النفَس الأوّل للحياة، والشبيه بنفَس زهرة. وعندما تستيقظ يأتي لقطف ابتسامتها الأولى، ابتسامة البنيّات الصغيرات التي تخرج من الليل كما لو كانت تخرج من الفردوس. كانت سعادته، في كلّ لحظة، تقْطر بالنعيم: وكان يبدو له أنّه يحب ملاكاً صغيراً.

يا للسعادة التي كان يعيشها معها في موريمون! كان يصطحبها في جولة حول المنزل، لكن في عربة صغيرة، وفي كلّ خطوة كان يلتفت ليراها تصرخ من فرط الضحك، والشمس على وجنتيها، وقدمها الوردية الصغيرة، المَرنة والملتوية، في يده. أو أنّه كان يصطحبها إلى نزهاته. فيذهب حتّى إحدى القرى، ويجعل البنيّة ترسل قبلات للناس الذين يحيّونه، ويدخل بيت أحد المزارعين ليريه الأسنان الجميلة لابنته. وكثيراً ما كانت الطفلة تنام في حضنه في الطريق كما لو كانت تنام في حضن مربّية.

وكان في مرّات أخرى يأخذها إلى الغابة، وهناك، تحت الأشجار الملأى بطيور أبي الحنّاء والعنادل، وفي ساعات النهار الأخيرة حيث توجد أصوات فوق الأشجار المشرفة على الدروب، كان يشعر بعذوبة لا توصف في سماع طفلته المسحورة بكلّ تلك الجلبة التي يمشي فيها، باحثة عن أصوات، هامسة، متأتئة، وكأنّها تجيب الطيور وتحادث السماء المنشدة. أمّا السيّدة موبران فلم تستقبل البتّة مجيء الطفلة الأخيرة استقبالا جيّداً. فالسيّدة موبران، وهي أمّ صالحة، كانت فريسة الغطرسة الريفية في المقاطعة، غطرسة المال. وكانت قد رتّبت وضعها لإنجاب طفلين؛ غير أنّ الثالث كان غير مرحّب به، بوصفه يمسّ بحظوة الاثنين الآخرين، وقلّل بالخصوص من نصيب ابنها. فالبنت الصغرى لا تمثّل بالنسبة لأمّها إلّا تجزئة الأراضي المجمّعة وتقسيم الخيرات المتراكمة، ما يؤدي إلى الانحطاط القادم للموقع الإجتماعي، وتقليص للعائلة في المستقبل.

وسرعان ما صار السيّد موبران لا يتوصّل إلى الراحة: فأم العائلة لا تنفكّ تهاجم رجل السياسة، مذكّرةً الأب بواجبه نحو ثروة أبنائه. وكانت تحاول إبعاده عن أصدقائه، وحزبه، ووفائه لأفكاره. كما كانت تسخر من حماقاته التي تمنعه من الاستفادة من موقعه. وهكذا تكرّرت كلّ يوم الهجومات والوساوس والملامات والمعركة الفظيعة حول التعلّق بمصلحة العائلة مقابل ضميرٍ نائبٍ معارض. وفي نهاية المطاف، طلب السيّد موبران من زوجته هدنة تأمّل بشهرين؛ إذْ كان يرغب بدوره في أنْ تكون ابنته رينيه غنيّة. وخلال شهرين، أرسل استقالته إلى المجلس وجاء يبني معملاً لتكرير السكّر في لابريش.

مرّت عشرون سنة على ذلك. وكبر الأبناء، وازدهر البيت. ونجح السيّد موبران في إيجاد صفقات رائعة في معمله. صار ابنه محامياً. وتزوّجت ابنته الأولى. فيما كان مهر رينيه جاهزاً.

دخل الجميع إلى الطبقة الأرضية من البيت. وفي زاوية من قاعة الجلوس المفروشة بالبُسط الفارسية الملوّنة، والمزهرة بباقات الحقول المنبثقة من السلال الصغيرة المعلّقة على السجّاد، كان السيّد هنري موبران ودونوازال وروفرشون يتجاذبون أطراف الحديث. وكانت السيّدة موبران قرب المدفأة تستقبل، مع كثير من التظاهر بالحنان، صهرها وابنتها، السيّد والسيّدة دافارند، وقد وصلا للتوّ. كانت تشعر أنّه من اللّزام عليها، في ذلك الظرف، نشر الحنان العائليّ وعرض مشاعر قلب الأمّ.

لم يكد حفيف معانقات السيّدة موبران والسيّدة دافارند ينتهي حتّى جاء عجوز قصير، دخل بهدوء إلى الصالون، وحيّا بعينيه السيّدة موبران وهو يمرّ أمامها، ثمّ اتّجه مباشرة إلى المجموعة التي يشارك فيها دونوازال.

كان هذا السيّد القصير يرتدي ثياباً سوداء وله سالفان ضخمان أبيضان، ويحمل قطعة ورق مقوّى تحت ذراعه.

– هل تعرف هذه؟ قال موجّهاً كلامه إلى دونوازال ساحباً إياه نحو فتحة نافذة وهو يفرج ورقته قليلاً.

– هذه؟... لا أعرف سواها... إنّها «الأرجوحة العجيبة»... المنقوشة حسب لافرانس[9]...

ابتسم السيّد القصير القامة:

– نعم، لكنْ أُنظرْ، وفتح ورقته قليلاً مرّة أخرى، ولم يفعل إلّا بطريقة لا تمكّن دونوازال من الرؤية.

– ممّا قبل المدّ... انظر، إنّها ممّا قبل المدّ! أرأيت؟[10]

– تماماً.

– مع حواشٍ!... عمل رائع، أليس كذلك! لم يعطوني إيّاه، اللّعنة، الأشرار! خرجت من المزاد!... وبسبب امرأة أيضاً...

– عجباً!

– فاسقة... تطلب المشاهدة، كلّما وافقتُ على سعر. كان ذلك الدلّال الوغد يقول دائماً: «مرّروه إلى السيّدة...» وفي الختام، بمائة وخمسة وثلاثين فرنكاً... أوه! ما كنت لأدفع فلساً واحداً إضافياً...

– أعتقد ذلك... لو علمت بالأمر، لا سيّما وأنّني أعرف نسخة مثل هذه، وتشبهها تماماً، عند الرسّام سبندلر... مع حواشٍ أكبر... وسبندلر لا يتمسّك كثيراً بلويس السادس عشر. كان يكفيني مطالبته...

– اللعنة! وقبل المدّ أيضاً، كمثل التي معي؟ هل أنت متأكّد؟

– قبل المدّ... نعم قبله... وهي في حال أقلّ تقدّماً من التي عندك... هي قبل...

وأدّت الجملة التي أكملها دونوازال في أذن العجوز إلى احمرار خدّ هذا الأخير من المتعة، وتبلُّل شفتيه من اللعاب.

في هذه اللحظة دخل السيّد موبران إلى قاعة الجلوس مع ابنته. كانت تمسك بذراعه. رأسها إلى الوراء قليلاً في استرخاء ودلال، وهي تستند إلى ذراعه وتمسح بلطف، مثل طفل يُحمَل، بشعرها على كمّه.

– أنت، صباح الخير، قالت وقبّلت أختها. ثم مدّتْ جبينها إلى أمها، وشدتّ على يد صهرها، وركضت نحو الرجل صاحب قطعة الورق المقوّى:

– هل يمكننا رؤيتها يا إشبين؟

– كلّا، يا ابنتي، لست كبيرة بما يكفي بعد. ثمّ صفعها صفعة مداعبة خفيفة.

– آه! ما تشترينه يكون دائماً كذلك دوماً! قالت رينيه وهي تشيح بظهرها عن العجوز الذي كان يعيد ربط أشرطة ورقته مع العقد المعتادة بالنسبة لأصابع جامعي النقوش.

– وإذنْ! ماذا قيل لي؟ هتفت السيّدة موبران فجأة وهي تلتفت نحو ابنتها بعد أنْ أجلست روفرشون على كرسي قريب منها، وكان قريباً جدّاً إلى درجة أنّ تحركاتها وفستانها تلامسه، وتداعبه تقريباً. وأضافت: هل جرفك التيّار؟ كان هناك مخاطر، أنا متأكّدة!... أوه! ذلك النهر!... لا أفهم حقّاً كيف يسمح السيّد موبران...

– مدام موبران، أجاب السيّد موبران الذي كان يتصفّح مع ابنته ألبوماً فوق المائدة، لا أسمح بشيء بل أتسامح.

– جبان! قالت الآنسة موبران إلى أبيها بصوت خافت.

– لكن، أؤكّد لك يا أمّي، كان هنري موبران هو الذي يتدخّل آنئذ، أؤكّد لك عدم وجود أيّ خطر. لقد جرفهما التيار قليلاً... ففضّلا التمسك بسفينة على النزول بعيداً. هذا كلّ ما في الأمر! هل فهمت...

– أنت تطمئنني، قالت السيّدة موبران وقد أخذت السكينة تعود إلى وجهها مع كلّ كلمة ينطقها ابنها. أعرفك في منتهى الحذر! لكن هل تعلم يا سيّد روفرشون أنّ عزيزتنا رينيه مجنونة جدّاً! أنا أشعر بالخوف دائماً... أوه! انظرْ ما زال الماء في شعرها... تعالي أجفّفه لك...

– هوذا السيّد داردوبيه! أعلن أحد الخدم.

– إنّه أحد جيراننا، قالت السيّدة موبران إلى روفرشون بصوت خفيض.

– إذن! أين وصلنا؟ سأل السيّد موبران القادمَ الجديد وهو يصافحه.

– الوضع على ما يرام... على ما يرام... ثلاثمائة وتد جديد اليوم.

– ثلاثمائة؟

– ثلاثمائة... أعتقد أنّ الأمر لن يكون سيئاً. أتعلم، بالنسبة لدفيئة النّبات، أقصّ مباشرةً من الحوض الصغير، بسبب الرؤية... خمسة وأربعين سنتمتراً على المنحدر، أو سبعة وأربعين، لا أكثر. لو كنّا على عين المكان لما احتجتُ إلى التفسير لك... من الجانب الآخر، وأنت تعرف،

أرتقي بالمسلك مقدار متر. أتعلم يا سيّد موبران، عندما يتم ذلك لن تبقى بوصة واحدة من أرضي من دون حرث؟

– لكن متى ستغرس إذن يا سيّد داردوبيه؟ سألت الآنسة موبران. منذ ثلاث سنوات وأنا أراك تجلب عمّالاً إلى بستانك: ألن تغرس فيه اشجاراً ذات يوم؟

– أوه! الأشجار، يا آنسة، لا شيء... لا يكون الوقت متأخّراً ابداً... الأولوية لما هو عاجل أكثر... رسم مخطّط الأرض، الأودية الصغيرة... وبعد ذلك، الأشجار... إذا شئنا...

دخل أحدهم من باب يفتح من داخل المنزل على قاعة الجلوس. كان قد وجّه التحية من دون أن يلمحه أحد. وكان هناك دون أنْ يراه أحد. كان ذا مظهر لائق وشعر أشعث مثل ممسحة يراع. إنّه السيّد برنار أمين صندوق السيّد موبران.

– كلّنا حاضرون... ولقد نزل السيّد موبران! حسناً! قال السيّد موبران وهو يلمحه، ماذا لو قدّمتِ الأكل يا سيّدة موبران؟... لا شكّ أنَ هؤلاء الشبّان يشعرون بالجوع.

انتهى وقت التأهّب للطعام. وحلّ الحديث محلّ الصمت خلال العشاء الذي بدأ، على إيقاع جلبة الملاعق في صحون الحساء.

– يا سيّد روفرشون... بدأت السيّدة موبران بالكلام.

كانت قد أجلست الشابّ بجانبها، إلى اليمين، حتّى يمكن القول إنّ حفاوتها كانت تحتكّ به. كانت تغدق عليه اهتمامها، وتغطّيه بدلالها. كانت ابتسامتها تملأ وجهها كلّه وحتّى صوتها لم يكن صوتها المعتاد يومياً، بل صوت مظهر تتبنّاه خلال الاحتفالات الكبرى. كانت نظراتها تتنقّل بشكل دائم من الشابّ إلى صحنه ومن صحنه إلى أحد الخدم. فالأمّ كانت تحضن صهراً.

– يا سيّد روفرشون، لقد التقينا مؤخّراً إحدى معارفك، وهي السيّدة دو بونيير... قالت لي كلاماً طيّباً عنك، كلاماً طيباً...

– تشرّفت بمقابلة السيّدة دوبونيير في إيطاليا... وكنت سعيداً أيضاً بتمكّني من إسداء خدمة صغيرة لها...

– هل أنقذتها من قطّاع طرق؟ هتفت رينيه.

– كلّا يا آنستي... كان الأمر أقلّ رومنسية بكثير... فالسيّدة دوبونيير كانت لها مشكلة في دفع حساب نزل. كانت بمفردها... وقد حلتُ دون تركها تُسرق كثيراً...

– هي حكاية لصوص دائماً، قالت رينيه.

– يمكن كتابة مسرحية عن ذلك، قال دونوازال، مسرحية جديدة، عن تخفيض في فاتورة يؤدّي إلى زواج. مع عنوان جميل: «حكاية ربع ساعة»... للكاتب رابليه!

– السيّدة دوبونيير شخصية محبّبة، عادت السيّدة موبران إلى القول، أجد شخصيّتها متميزة... هل تعرفها يا سيّد باروس؟ قالت وهي تلتفت نحو عرّاب رينيه.

– بالتأكيد يا سيّدتي، هي في غاية اللطف...

– أوه! يا عرّابي، إنّها تشبه «السّتير»![11]، قالت رينيه. وبعد أنْ أفلتت الكلمة، وأدركت الضحك، أحسّت بالخجل:

– أوه! ذلك يخصّ الرأس فقط، أكملت بحيوية.

– هذا ما أدعوه استدراكاً! قال دونوازال.

– هل مكثت كثيراً في إيطاليا، يا سيّد روفرشون؟ سألت السيّدة موبران لتغيير الموضوع.

– ستّة أشهر.

– وما هي انطباعاتك؟

– إنّها ممتعة جدّاً، لكنّها لا تخلو من إزعاج... لم أهضم فكرة تناول القهوة في كؤوس من زجاج...

– إيطاليا؟ قال هنري موبران، إنّها بالنسبة لي أكثر الرحلات كآبة... وأقلّها نفعاً... يا لها من زراعة! يا لها من تجارة!... ذات حفل تنكّري في فلورنسا، سألتُ نادلاً في أحد المطاعم عمّا إذا كان المطعم يظلّ فاتحاً أبوابه خلال الليل. «أوه! كلّا يا سيّدي، سيكون عدد الزبائن كبيراً جدّاً...»

هذا الكلام لم يُحكَ لي بل سمعته بأذنيّ. وهذا يعطي فكرة عن البلد بكامله. عندما نفكّر في انجلترا، في قوة المبادرة الجماعية والفردية، عندما نكون قد اطّلعنا على تلك العبقرية المنهمكة في العمل لدى المواطن الانجليزي، وريع مزرعة كبيرة في اليوركشاير... فهذا شعب حقّاً!

– أنا مع رأي هنري، قالت السيّدة دافارند، انجلترا متميزة... هناك تهذيب، أجد عادة تقديم الناس جيّدة... إنّها تشبه من يعيد لك بقيّة النقود ملفوفة في ورق... وعندهم أيضاً أقمشة ممهورة بأختام! أتاني زوجي من المعرض بفستان من البوبلين... آه! تعرفين يا أمّي، لقد اتّخذت قراري، تعرفين، في ما يخصّ معطفي. لقد ذهبت إلى آلبيريك... إنّه طريف جدّاً، تصوري... يجعل آنسة تضع معطفاً على كتفيك... ثمّ يبدأ بالدوران حولك، وبمسطرة من الأبنوس يشير إلى المواضع التي تشكو من عيوب ولا يكاد يلمسك، هنا! يطلق ضربات صغيرة: ومع كلّ ضربة مسطرة، تعلّم الآنسة الموضع بالطباشير... أوه! إنّه رجل ذو شخصية متميّزة ذلك السيّد آلبيريك، وبالإضافة إلى ذلك فهو الوحيد... لا يوجد غيره... له أسلوب خاصّ بالمعاطف!... البارحة رأيت اثنين في السباق من شغله... حقّاً أسعاره غالية.

– أوه! هؤلاء الناس يربحون ما يريدون، قال روفرشون، خيّاطي إدوار اعتزل العمل وبحوزته ثلاثة ملايين.

– حسناً، هذا أمر جيّد، قالت السيّد باروس، أشعر بسعادة عارمة عندما أرى أشياء مثل هذه. جاء دور العمال الآن ليحصلوا على الثروة! إنّها أكبر ثورة منذ بداية العالم...

– نعم، قال دونوازال، إنّها ثورة تذكّر بالكلمة الشهيرة للّصّ شابون: «السرقة، يا سيّدي رئيس المحكمة، هي أوّل تجارة في العالم!»

– هل كان السباق جيّداً؟ سألت رينيه.

– كان هناك الكثير من الناس، أجابت السيّدة دافارند.

– كان جيّداً جدّاً، يا آنستي، قال روفرشون. إنّ سباق جائزة ديانا شهد ركضاً ممتازاً. حصان «ريشة الديك»، الذي اعتدنا معه على الرقم 35، هزمه «بازيليكال» بقفزتين... كان الأمر

مؤثّراً جدّاً. وكانت الفرس «دجاجة الهاكس» أيضاً جميلة جدّاً... رغم أنّ المضمار كان صعباً بعض الشيء...

– ما اسم تلك السيّدة الروسية التي تقرن أربعة خيول دائماً، يا سيّد روفرشون؟ سألت السيّدة دافارند.

– إنّها السيّدة دو رسلاف. أوه! لها خيول رائعة... من سلالة الأورلوف الأصيلة!

– ينبغي عليك أنْ تحظى باستقبال الجوكي، يا جول، بخصوص السباق، قالت السيّدة دافارند ملتفتة صوب زوجها، أجد أنّه من المبتذل كثيراً الاحتكاك بكلّ الناس! حقّاً، عندما يحترم المرء نفسه قليلاً... امرأة خصوصاً... لا يوجد إلّا منصّة الجوكي، فارس السباق.

– آه! هي ذي رُقاقة محشوّة بالفطر، قال باروس، لقد أثبتت آديل براعتها... هذه وجبة «كوردون بلو» حقيقية... سوف أثني عليها لدى مغادرتي.

– عجباً! كنت أظنّ أنك لا تأكل منها أبداً، قالت السيّدة موبران.

– لم أكن أفعل في العام 1848[12]... لم آكل منها حتّى الثاني من ديسمبر... هل تعتقدين أنّ الشرطة كانت في كلّ تلك الفترة قادرة على مراقبة الفطر؟ لكن منذ استتباب النظام...

– هنرييت، قالت السيّدة موبران للسيّدة دافارند، دعيني أوبّخ زوجك... إنّه يهملنا... ها قد مرّ أكثر من ثلاثة أسابيع ولم نرَكم يا سيّد دافارند.

– يا إلهي! أمّي العزيزة، لو تعلمين كم كنت مشغولة! تعلمين أنّ علاقتي بجورج جيّدة جدّاً... والده مشغول كثيراً في المجلس.. وباعتباره رئيس مكتب، تتراكم القضايا على كاهل جورج... هناك أشياء عديدة لا يستطيع أن يعهد بها إلّا إلى أشخاص ثقات، من الأصدقاء. ولقد طرأت تلك القضية الكبرى، ذلك العرض في الأوبرا. وهو ما تطلّب مفاوضات ومحادثات وذهاباً وإياباً... كان ينبغي تفادي نشوب نزاع بين الوزارتين... أوه! كنّا مشغولين كثيراً في كلّ تلك الأوقات... هو في منتهى اللطف بحيث لم أكن لأستطيع...

– في منتهى اللّطف؟ تساءل دونوازال، أما كان ينبغي عليه أن يدفع لك على الأقلّ مقابل تحرّكاتك بالعربة؟ ولقد مرّ عامان وهو يعدك بمنصب عمدة في أحد الأقضية!

– عزيزي دونوازال، الأمر أصعب ممّا تتصوّره... ثمّ، إذا لم تكن هناك رغبة في الابتعاد عن باريس... أمّا ما تبقّى فيمكنني إعلامكم –وليبقَ سرّاً بيننا– بأنّ إنجازه قد تمّ. في حدود شهر آخر يتّضح ذلك...

– عن أيّ عرض كنت تتحدّث! سأله باروس.

– لابراديزي، قال دافارند.

– آه! لابراديزي!... مدوّخة! قال روفرشون. لها تحرّكات في منتهى الخفّة! في ذلك اليوم كنت في شرفة المدير المطلّة: لا يمكن سماعها تحطّ على قدميها عندما ترقص...

– كنّا نعتقد أنّنا سنراك مساء البارحة، يا هنري، قالت السيّدة دافارند إلى أخيها.

– البارحة، كنت في اجتماعي، قال هنري.

– لقد عُيِّن هنري مقرِّراً، قالت السيّدة موبران مفتخرة.

– آه! قال دونوازال، اجتماع أغيسّو... إذن ما زالت ثرثرتكم الطريفة دائماً بخير؟ كم شخصاً يشارك فيها؟

– مائتان.

–وكلّهم رجال دولة؟ هذا مريع!... وأنت عُيِّنتَ مقرِّر ماذا؟

– مقرّر مشروع قانون حول الحرس الوطني...

– أنت لا ترفض شيئاً، قال دونوازال.

– أنا متأكّد أنك لا تنتمي للحرس الوطنيّ، يا دونوازال؟ قال السيّد باروس.

– أبداً!

– ومع ذلك فهي مؤسَّسة.

–ذلك ما تؤكّده الطبول، يا سيّد باروس.

– وبالمقابل أظنّك لا تصوِّت، أليس كذلك؟

– مهما كان المبرّر.

– دونوازال، أشعر بالغضب وأنا اقول لك إنك مواطن سيّئ. هذا يسري في دمك، لا أؤاخذك على ذلك، لكنّه أمر...

– مواطن سيّئ، كيف ذلك؟

– أنت دائماً في تعارض مع القوانين في نهاية المطاف...

–أنا؟

– أنتَ... نعم! من دون الذهاب إلى الأبعد، فإنّ خلافة عمك فريدريك... والإرث الذي تركته لأبنائه الطبيعيين...

– وماذا في ذلك؟

– ذلك ما أدعوه عملاً غير قانوني، قابلاً للتوبيخ، والأسف. ماذا يريد القانون؟ إنّه واضح هذا القانون: ينص على أنّ الأبناء المولودين خارج الزواج لا يمكنهم الوراثة. لم تكن تجهل ذلك، أخبرتك به، وأخبرك به كاتبك العدل، والتشريع كذلك. وماذا فعلت؟ جعلت الأطفال يرثون! وتخلصت من القانون، روح التشريع، كلّ شيء! إنّ ترك ثورة عمّ تتخبط في مثل هذه الظروف، يا دونوازال، يعتبر تكريماً للأخلاق السيئة، وهو تشجيع للـ...

– سيّدي باروس، أعرف مبادئك في هذا المجال... لكنْ ماذا تريد؟ عندما رأيت الصبيان الثلاثة المساكين، قلت في نفسي إنّني لن أتلذذ أبداً بلفافات السجائر التي سوف أدخنها بثمن خبزهم... ليس المرء كاملاً.

– كلّ هذا لا يمثّل القانون. عندما يقول القانون شيئاً ما، يكون له هدف من وراء ذلك، اليس كذلك؟ القانون ضدّ الفسق. افترضْ أنْ يقلّدك الآخرون...

– لا تخفْ، يا باروس، قال السيّد موبران مبتسماً.

– لا يليق بنا تقديم القدوة السيئة، ردّ باروس بنبرة وقار مصطنع. ثمّ التفت نحو دونوازال: افهمني جيّداً يا دونوازال، هذا لا يقلّل من تقديري لك... بالعكس، أحيّي نزاهتك؛ أمّا أنْ يصل بي الأمر إلى القول إنّك أحسنت صنعاً فهذا غير ممكن! الأمر مثل الحياة: حياتك ليست منتظمة. ينشغل المرء، يا للشيطان! يمارس عملاً ما، يلتحق بمكان ما، يلتزم بمكتب ما، ويسدد دينه للوطن! لو أنك انكببت على ذلك مبكراً أكثر، لتمكّنت، مع ذكائك، من الحصول ربّما على مكان يدر عليك ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف فرنك...

– عُرض عليّ أفضل من ذلك، يا سيّد باروس.

– أكثر؟ قال باروس.

– أكثر، أجاب دونوازال بهدوء. نظر إليه باروس مصعوقاً.

– بجدّ، تابع دونوازال، حقّقت الكثير من المستقبل... لمدّة خمس دقائق. سترى كيف... يوم 24 فيراير 1848 لم أكن أعرف ماذا أفعل... عندما تمّ الاستيلاء على التويلري صباحاً، ظللنا مشوّشين طيلة اليوم... خطرت لي فكرة الذهاب لرؤية صديق يعمل موظفاً في إحدى الوزارات... وزارة في الجهة الأخرى من النهر. وصلتُ إلى الوزارة: لا أحد! صعدت، دخلت مكتب الوزير حيث كان يعمل صديقي: لا وجود لصديقي. أشعلت سيجارة في انتظاره. دخل سيّد أثناء تدخيني. رآني جالساً: ذهب به الظنّ إلى أنّني من المنتسبين إلى الوزارة. لم يكن يعتمر قبّعة: ظننته موظّفاً في الوزارة. طلب منّي بتهذيب شديد أنْ أريه الرّجال. رافقته، وعدنا. أعطاني كي أكتب شيئاً دلّني على معانيه: تناولت ريشة صديقي، وكتبت. قرأ ما كتبت، فسُرّ بذلك؛ وتحادثنا: استحسن كتابتي وإملائي. صافحني: انتبهَ إلى أنّني أضع قفازين... وباختصار طلب منّي بإلحاح، خلال ربع ساعة، أنْ أشغل منصب أمين سرّه... كان هو الوزير الجديد!

– ولم تقبل؟

– وصل صديقي... قبلت بالمنصب له... صار إلى حدّ ما يشبه مقدّم عرائض في مجلس الدولة... كان أمراً جميلاً مع ذلك الحصول على نصف يوم عمل بلا أجر!

وصلوا إلى مرحلة تناول التحلية. قرّب السيّد موبران صحن معجّنات صغيرة، وأغرق فيه يده بلا انتباه.

– سيّد موبران؟ قالت له زوجته، موجّهة إليه إشارة بعينيها.

– عفواً يا عزيزتي... التناسق، صحيح... لم أعد أنتبه إليه، ثمّ أعاد الصحن إلى موضعه.

– لك هوس الإزعاج...

– لقد أخطأت، يا عزيزتي، لقد أخطأت... أرأيتم، أيها السادة، زوجتي امرأة رائعة... لكنْ، إذا مسّ أحدهم بتناسقها... إنّه واحد من ديانات زوجتي، التناسق.

– أنت مثير للسخرية يا سيّد موبران، قالت السيّدة موبران، وقد احمرت خجلاً من الإمساك بها في حالة تلبّس بالروح الريفية للمقاطعات، ثمّ توجهت إلى ابنتها: يا إلهي، وأنت يا رينيه لماذا تجلسين هكذا؟ استقيمي في جلستك يا صغيرتي العزيزة...

– طيّب، همست الفتاة، تخاطب نفسها، أمّي توجه انتقامها لي...

– سادتي، قال السيّد موبران لدى الدخول إلى قاعة الجلوس، تعلمون أنّه يمكن التدخين. نحن مدينون بهذا إلى ابني؛ كان سعيداً بالحصول على الإذن من أمه...

– قهوة، يا عرّابي؟ سألت رينيه السيّد باروس.

– كلّا، أجاب السيّد باروس، سوف تمنعني من النوم.

– هنا، أكملتْ رينيه جملتها، والسيّد روفرشون؟

– أبداً، يا آنستي، أشكرك جزيل الشكر.

كانت تذهب وتجيء، ودخان الفناجين التي تحملها يصعد نحو وجهها مثل نفَس مع حرارة القهوة.

– هل تناول الجميع قهوتهم؟

لم تنتظر الإجابة.

– ترا... ترا... ترا...

أرسل البيانو في قاعة الجلوس أولى نوتات رقصة بولكا. ولما سكت:

– هل نرقص؟ ماذا لو رقصنا؟ أوه! تعالوا نرقص!

– دعينا ندخّن بهدوء، قال السيّد موبران.

– نعم يا سيّدي الوديع، ثمّ استعادت إيقاع البولكا، وشرعت ترقصها وهي جالسة على المنضدة الخفيضة، غير مستندة إلى الأرض إلّا بأصابع قدميها. كانت تعزف دون أن تنظر، ورأسها ملتفت نحو القاعة، نشطة، مبتسمة، شعلة الرقص في عينيها وعلى خديها مثل بنية ترقّص الآخرين، وترافقهم وهي تعزف متحركة معهم. كانت تؤرجح كتفيها. جسدها يتموج كما لو كان تحت تأثير عناق، وقوامها يحدد الإيقاع. كانت تلوح في هيأتها إشارة مرتخية لبداية خطوة. ثمّ التفتت نحو البيانو: بدا رأسها يتحرّك بهدوء وفق الإيقاع، وتسارعت عيناها مع يديها على ملامس البيانو السوداء والبيضاء. كانت، وهي منحنية على الموسيقى التي تعزفها، تلوح وكأنّها تضرب النوطات الموسيقيّة أو تداعبها، تكلّمها، تؤنّبها، تبتسم إليها، تهدهدها، وتجعلها تنام. كانت تشدّد على النغم وقت ارتفاعه؛ وتتفنّن في الأداء؛ وكان لها حركات صغيرة ناعمة وإشارات صغيرة ملؤها الشغف؛ وكانت تنحني وتقف، ويلمع أعلى مشطها القشريّ في الضوء كلّ لحظة، ثمّ لا يلبث أنْ ينطفئ في سواد شعرها. وكانت شمعتا البيانو المرتعشتان من الضجة، ترسلان وميضاً على وجهها بشكل جانبيّ أو تقرنان شعلتيهما عند جبينها، وخدّيها، وذقنها. وكان ظلّ قرطيها، وهما كرتان من مرجان، يرتجف باستمرار على بشرة عنقها، فيما كانت أصابع الفتاة تفرط في سرعتها على البيانو حتّى لم يعد من الممكن رؤية شيء آخر غير لونورديّ متطاير.

– هذا اللّحن لها... قال السيّد موبران موجّهاً كلامه إلى روفرشون.

– تلقّت دروساً من الموسيقار كيدون[13]، أضافت السيّدة موبان.

– لا! انتهى!

وتركت رينيه البيانو لتنتصب أمام دونوازال:

– احكِ لي حكاية، يا دونوازال، لتسلّيني، احكِ ما تشاء.

ووقفت أمامه متقاطعة الذراعين، ورأسها إلى الخلف قليلاً، وجسدها يستند إلى ساق واحدة، مع مظهر طفولي متعمد نوعاً ما، وازدهاء نبيه، يضيفان إلى أناقة زيّ الفروسية: كانت ترتدي ياقة مستقيمة من نسيج مضلّع، وربطة عنق من شريط أسود؛ وكانت طيات صدرية بيضاء تنزل على فستانها القماشي المفصّل على شكل سترة: وكان لتنورتها جيوب سترة من الأمام.

– متى تنبت لك أضراس عقل، يا رينيه؟ سألها دونوازال.

– أبداً! وشرعت تضحك، هيّا! أين الحكاية التي ستروبها لي؟

تأكّد دونوازال من أنّ لا أحد يسمع فخفض صوته:

– كان يا ما كان، كان هناك أب وأم ولهما بنيّة. وكان الأب والأمّ يرغبان في تزويجها فيستقدمان أناساً من مرتبة عالية؛ غير أنّ البنية التي كانت من مرتبة عالية أيضاً...

– آه! كم أنت غبيّ!... سأذهب للعمل، هوذا. وتناولت سلّة حياكتها على المائدة، ثمّ ذهبت للجلوس حذو أمها.

– ألا نلعب ورق الويست[14] هذا المساء؟ سأل السيّد موبران.

– بلى، يا عشيري، قالت السيّدة موبران، المائدة جاهزة... أنت ترى ذلك جيّداً... لم يبق إلّا إشعال الشموع.

– اتّفقنا! هتف دونوازال في أذن باروس الذي بدأ يغفو عند زاوية المدفأة مع اهتزازات الرأس التي تميز مسافراً في عربة خيول. وثب السيّد باروس؛ وقدّم له دونوازال ورقة: ملك البستوني! قبل بلوغ الحالة النهائية! أنت مطلوب للعبة الويست.

– ألست مجهدَة جدّاً هذا المساء يا آنسة؟ قال روفرشون وهو يقترب.

– أنا، يا سيّدي؟ يمكنني الرقص طيلة الليل! هذه هي حالي.

– أنت تصنعين شيئاً جميلاً هنا.

– أتقصد هذا؟ آه! نعم، هو جميل! إنّها جوارب... أحوك لصغاري التعساء... وهي تدفئ، هذا كلّ ما في الأمر... لست ماهرة في شغل الإبرة، أقول لك... التطريز والتنجيد يتطلّبان الانتباه، أمّا هذا... انظر، إنّ الأصابع هي التي تعمل... كلّ شيء يتقدّم من تلقاء نفسه... يمكننا في تلك الأثناء التفكير في أيّ شيء...

– انظري يا رينيه، قال السيّد موبران، أمر طريف: أواصل الخسران ولا ألحق بهم...

– آه! آه! هذا جيّد جدّاً... سأحتفظ به في مجموعتي، أجابت رينيه، ثمّ فجأةً: دونوازال! إلى هنا! هلّا أتيت إلى هنا؟ هنا... أقرب، أقرب... هلّا أتيت هنا... فوراً؟ والآن، اركع على ركبتيك...

– هل أنت مجنونة؟ صاحت السيّدة موبران.

– رينيه، قال دونوازال، أعتقد أنك أقسمت على إفشال زواجي...

– رينيه، على مهلك، على مهلك! قال السيّد موبران من مائدة اللعب بنبرة أبوية.

– وماذا في الأمر؟ قالت رينيه؛ وبدأت تهدد دونوازال مازحة بمقص: لا تتحرك كثيراً! دونوازال سيئ الحلاقة دائماً... شعره مقصوص بطريقة سيئة... لديه خصلة كبيرة قبيحة تنزل على جبينه... إنّها تزعج من ينظر إليه... اريد أنْ أقصّ له خصلته... حسناً! إنّه خائف! لكنّني أحسن قص الشعر، اسألْ أبي! وفي لحظة أطلقت مقصها مرّتين أو ثلاثاً في شعر دونوازال، ثمّ ذهبت نحو المدفأة، ونفضت الشعر في النار، ثمّ التفتت: لا يذهبنّ بك الظنّ إلى أنّني أردت نشل خصلة منك!

لم تنتبه البتّة إلى ضربة الكوع التي وجّهها لها أخوها لدى مروره. وكانت أمّها التي تحوّلت لحظة إلى اللون القرمزيّ، قد شحبت بعدئذٍ تماماً: لكنّها لم تنتبه إليها أيضاً. وجاء أبوها الذي ترك لعبة الويست، بمظهر مرتبك وهيأة المستاء، فاستولت على السيجارة التي كان قد بدأ بتدخينها،

ووضعتها بين شفتيها، وسحبت نفساً من الدخان، ثمّ تخلصت منها، وأشاحت بوجهها، وسعلت وغمزت بعينيها وقالت:

– أوف! كم هي سيّئة!

– لكن، حقّاً، يا رينيه، قالت السيّدة موبران بصوت صارم ومتأسف، حقّاً لست أدري... لم تسبق لي رؤيتك كما في مثل هذا المساء...

– الشاي! طلب السيّد موبران من خادم دق له الجرس.

– بلغنا الساعة العاشرة والربع حالياً! قالت السيّدة دافارند، لم يبق لنا إلّا وقت الذهاب إلى سكة الحديد. رينيه، فليأتوني بقبعتي.

وقف الجميع. نهض باروس من نومه بسسبب الضجة، وانطلقت الجماعة الصغيرة من مدعوّي باريس في طريق العودة إلى سان دوني.

– أرافقكم، قال دونوازال، وسوف يسمح لي ذلك باستنشاق هواء نقيّ.

كان باروس في المقدّمة، مسلّماً ذراعه إلى روفرشون، وراءهما الأسرة دافارند. لتنتهي المسيرة بهنري موبران ودونوازال.

– لماذا لا تنام؟ غداً ستذهب إلى باريس، قال دونوازال إلى هنري.

– كلّا، أجاب هنري، لا أريد. لديّ شغل غداً صباحاً... ولن أقصد باريس إلّا متأخراً... سوف يضيع نهاري كلّه.

سكتا. وكان هناك كلمات من باروس تطير في الليل لحظات وتبلغ مسمعيهما مادحةً رينيه لروفرشون.

– قلْ لي، يا دونوازال، أخشى أن يكون قد حدث انكسار، ألا تظنّ ذلك؟

– نعم، أظنّ.

– آه! يا عزيزي، هل لك أنْ تقول لي لماذا تقبّلت كلّ الحماقات التي مرت برأس أختي، هذا المساء؟ أنت لك تأثير كبير عليها، و...

– يا صغيري، قال دونوازال وهو يسحب نفساً من سيجاره، اسمحْ لي أولاً بفتح قوسين تاريخيّين وفلسفيّين واجتماعيّين. نحن انتهينا، أليس كذلك؟ عندما أقول نحن، فأنا أقول أغلبية الشعب الفرنسيّ. انتهينا من الآنسات الصغيرات الجميلات اللواتي يتكلّمن مثل العرائس المزوّدة بنوابض، ويقلن: بابا، ماما، ولا ينسين النظر إلى الوالدين وهنّ يرقصن؟ الآنسات الصغيرات

الصبيانيات، الخجولات، الخفرات، المتلعثمات، والمروَّضات على جهل كلّ شيء، فلا هنّ يعرفن الوقوف على سيقانهنّ، ولا الجلوس على كرسي، انتهى كلّ ذلك، صار قديماً، مستهلكاً: كانت تلك صفات الآنسة التي تنتظر الزواج في مسرح الجيمناز[15]... اليوم لم يعد الوضع كذلك. تغير أسلوب الثقافة؛ صار الشبّان مثل تعريشة، تنمو في هبوب الريح! ويمكن سؤال الفتاة عن انطباعات وتعبيرات شخصية وطبيعية. صار يمكنها الحديث وعليها أنْ تتحدّث حول كلّ شيء. بات ذلك من العادات. لم يعد مطلوباً منها أنْ تلعب دور البراءة، بل الذكاء الأصيل. المهمّ أن تتألق في الصالونات، والأهل مسرورون لذلك. فأمّها تصطحبها إلى دروس مختلفة. هل لها موهبة؟ لا بد من احتضان تلك الموهبة وحمايتها. وبدل مدرّسات المنازل التعيسات، يُحضر لها مدرّسون حقيقيّون، أساتذة من معاهد الموسيقى، ورسّامون سبق لهم عرض أعمالهم. صارت تتصرّف كالفنّانين، ويمكن استحسان ذلك... إذن، أهذه تربية البنات أم لا، في كنف البرجوازية الحالية؟

– وما تستنتج؟

– الآن، تابع دونوازال من دون أن يجيب، ضعْ وسط هذه التربية التي لا أحاكمها، لاحظْ ذلك، ضعْ أباً رائعاً وجريئاً، يجسّد الطيبة والحنان أيضاً، ليضيف إلى كلّ ذلك الانعتاق تشجيعه لضعفها ومحبّته؛ افترضْ أنّ ذلك الأب قد ابتسم لكلّ الجسارات، لكلّ الصبيانيات الجميلة لطفل يسكن امرأة؛ وتركَ لابنته حريّة أنْ تتخذ بالتدريج تلك الصفات الخاصّة بالرجال والتي يستعيد فيها بفخرٍ شكل قلبه...

– وكنت أنت، أنت يا عزيزي، منْ يعرف أختي تمام المعرفة، والتربية التي تلقّتها، والأسلوب الذي اتّخذته وهي تستند إلى أشكال تدليل والدي، كلّ ما يجعل في نهاية المطاف صعباً تزويجها، أنت الذي تركتها هذا المساء ترتكب عدّة ممارسات غير لائقة، والحال أنّك كنت قادراً، بتلك الكلمات التي تعرف كيف تقولها لها، والتي لا يمكن لغيرك قولها، أنْ تُسكتها مباشرة؟

الصديق الذي كان هنري موبران يحدثه بتلك الطريقة، أي دونوازال، كان ابن مواطن، وابن رفيق مدرسة ورفيق سلاح للسيّد موبران. ترافق السيّد موبران ووالده في المعارك نفسها؛ وامتزجت دماؤهما في المكان نفسه؛ وخلال الانسحاب من معركة روسيا أكلا من كبد الحصان نفسه.

وبعد عام من عودة السيّد موبران إلى فرنسا فقد ذلك الصديقَ الذي ترك له الوصاية على ابنه أثناء احتضاره. ووجد الطفل أباً له في الوصيّ. وفي الثانوية كان يقضي كلّ عطله في موريمون، وصار منزل موبران هو العائلة بالنسبة له. ولما أنجب السيّد موبران ابنيْن، بدا للشابّ أنّه حُرم حتّى ذلك الوقت من أخ وأخت: فشعر أنّه البكر بينهما، واستعاد طفولته كي يكون طفلاً معهما.

كان بالطّبع يفضّل رينيه، وبدأت هي تحبّه منذ صغرها. كانت وقتها حيويّة وعنيدة؛ وكان هو الوحيد الذي يتوصل إلى جعلها تنصت وتطيع. وعندما كبرتْ كان هو معلّم طباعها ونجيّ روحها، وسيّد ذوقها. وزاد تأثيره على الفتاة مع مرور الأيّام والألفة، في ذلك المنزل الذي كانت له فيه غرفته الجاهزة دوماً، وأكله الجاهز دائماً، وحيث كان يأتي في أيّ وقت ليقضي أسبوعاً.

– في بعض الأيّام، تابع هنري القول، لا يكون لحماقات أختي ضرر؛ لكن هذه الليلة... وبحضور ذلك الشابّ... سوف ينتج عنها فشل الزواج، أنا متأكّد من ذلك! خطوبة واعدة بآمال عريضة... شابّ ممتاز على جميع المستويات، جذّاب، وشديد التميّز...

– وهل حقّاً تجده كذلك؟ أنا شخصياً أخشى على أختك منه... وهذا سبب تصرّفي معها كما رأيتني الليلة. ذلك الرجل يمثل التميّز الشائع، التميّز مع ابتذال كلّ أصناف الأناقة! هو يافطة لكلّ أنواع الموضة، «مانيكان»[16] لدى خيّاط، جسديّاً ومعنويّاً! لا شيء، لا وجود لشيء لدى سيّد مثله! هو، زوج لأختك؟... يا للشيطان! كيف تريد منه أن يتوصّل إلى فهمها؟ بمَ عساه يدرك ما يوجد لديها، وفي سلوكها الغريب، من كرم ونبل وشغف؟ هل تتصور وجود فكرة مشتركة بينهما؟ يا إلهي! من شأن أختك أنْ تتزوّج أيّ رجل كان، بشرط أنْ يكون ذكياً، ذا حزم، ذا شخصية، قادراً على السيطرة أو تحريك طبيعة امرأة مثل طبيعتها، لن أضيف شيئاً. كثيراً ما توجد عيوب، لدى الرجل، تستطيع إحياء قلب امرأة. حتّى مع شخص سيّئ، يمكن أن يتوافر عنصر التعلّق به انطلاقاً من الغيرة؛ فرجل الطموح والأعمال مثلك، يمكنه أنْ يوفّر لها الانشغال والحمى والحلم بمستقبلها... لكنّ سيّداً صغيراً مثل هذا السيّد! تعاشره مدى الحياة! سوف تظل أختك تعيسة مثل الحجارة؛ وتموت من جرّاء ذلك... ذلك أنّ أختك لم تجبل مثل الأخريات، لا بد من الانتباه إلى ذلك. إنّها من طبيعة سامية، حرّة، تجمع بين السخرية العالية وعذوبة الحنان... وفي الحقيقة هي سوداوية ضاجة...

– سوداوية ضاجة؟ ما هذا؟

- سأوضّح لك. أعني...

- بسرعة يا هنري! صاحت دافارند من رصيف الركوب، سنصعد إلى المقطورة... بطاقتك معي.

5

كان السيّد والسيّدة موبران في غرفتهما. ولقد دقت ساعة الحائط معلنة منتصف الليل برنين خفيض وبطيء كما لو كانت تشير إلى احتفالية تلك الساعة الحميمة والزوجية، والتي هي في الوقت نفسه خلوة الزوجين والمجلس السرّي لإدارة البيت؛ ساعة التحوّلات والسِّحر، بورجوازية وشيطانية في آن، تذكّر بحكاية المرأة التي مُسِخت قطّة. ظل السرير يلامس الزوجة بطريقة تكتنفها الأسرار. الرقاد يكسبها نوعاً من الفتنة. في هذه اللحظة تعود إليها بقية أعمال السِّحر التابعة للعشيقة. تنهض عزيمتها إلى جانب عزيمة الزوج الذي ينام. تنتصب، تخدش، تعنّف، تحرد، تنكّد، تصارع. تتسلّح ضدّ الرجل بالملامسات اللطيفة وإنشاب المخالب. الوسادة تسند إليها القوة: فتلج في اللّيل كما لو كانت تلج في قوّتها.

كانت السيّدة موبران أمام المرآة تضع قصاصات لفّ الشعر، وقد أضاءتها شمعة واحدة. كانت ترتدي قميص نوم وتنّورة داخلية. كان جسدها الممتلئ، وفوقه ذراعاها الصغيرتان تذهبان وتجيئان بحركة تتويج، يرسم على الجدار خيال لباس البيت الخمسينيّ المدهش، ويبعث في ورق عمق الغرفة رعشة واحد من تلك الظلال البدينة التي يبدو وكأنما اشترك كلّ من هوفمان ودومييه في رسمها في عمق مضاجع الأزواج المسنّين. كان السيّد موبران قد التحق بالفراش منذ فترة.

– لويس! قالت السيّدة موبران.

– ماذا؟ قال السيّد موبران، بنبرة اللامبالاة والندم والضجر لدى رجل ما زالت عيناه مفتوحتين لكنّه بدأ يتذوّق نعمة الاستلقاء.

– أوه! إذا كنت نائماً!

– لست نائماً البتة. ماذا هناك؟

– أوه! يا إلهي، لا شيء. أجد أنّ رينيه كانت في منتهى عدم اللياقة هذا المساء... هذا كلّ ما في الأمر. هل لاحظت ذلك؟

– كلّا. لم أنتبه.

– مجرّد نزوة! إذْ لم يكن هناك من مبرّر... ألم تقل لك شيئاً، هيّا قلْ! ألا تعرف شيئاً؟ هوذا ما يحصل لي بسبب تكتّمكم... وأسراركم: أنا الأخيرة دائماً في الاطلاع على الأشياء... لكنْ أنت، أوه! أنت، كلّ شيء يُحكى لك... أنا سعيدة جدّاً لأنّني لم أولد غيورة، أتدرك ذلك؟

رفع السيّد موبران لحافه إلى كتفه، من دون أنْ يجيب.

– أنت تنام بالتأكيد، تابعت السيّدة موبران، بتلك النبرة الحادة والمحبطة من امرأة تنتظر رداً على هجومها.

– سبق أنْ قلت لك إنّني لست نائماً...

– لكنْ، ماذا دهاك، ألا تفهم يا سيّد موبران؟ أوه! يا لهؤلاء الرجال الأذكياء... أمر مثير للفضول! رغم أنّه يمس بك كفاية، هذه شؤونك وشؤوني أيضاً. هوذا زواج آخر فاشل، هل فهمت؟ زواج كان يشمل كلّ شيء... الثروة، العائلة المشرّفة... كلّ شيء! أعرفها تلك المراحل من التوقف الوقتي في حالات الزواج... يمكننا التسليم بالنهاية... حدثني هنري عن ذلك هذا المساء؛ طبعاً، لم يخبره الشابّ بأي شيء؛ هو شابّ يعرف كيف يعيش... غير أنّ هنري متأكّد أنّه سوف ينسحب... تلك أشياء يمكن الإحساس بها... تتضمنها مظاهر الناس...

– وليكنْ! فلينسحبْ، ماذا تريدين منّي أنْ أقول لك؟ واستوى السيّد موبران على مؤخرته، ومد يديه على فخذيه.

– سوف ينسحب. شبّان مثل روفرشون يوجد منهم الكثير... وبنات مثل ابنتي...

– يا إلهي! ابنتك... ابنتك...

– أنت لست عادلة في سلوكك معها بما يكفي، يا تيريز.

– أنا؟ إنّني أتصرف معها بكلّ العدل الممكن. كلّ ما هنالك... أنّني أراها كما هي، وليس لي عيناك، لها عيوب، عيوب كبيرة جدّاً شجّعتها أنت، نعم، أنت، نزوات، طيش، كما لو كانت في سن العاشرة!... لا يذهبنّ بك الظنّ إلى أنّني لا أتألم من ترددها، ومن تطلباتها، ومن كومة أشياء

عبثية، منذ أنْ صرنا نسعى إلى تزويجها! وتلك الطريقة التي تسيء بها للناس الذين نقدّمهم لها! إنّها فظيعة في المقابلات... كان هناك حوالى عشرة خاطبين ممّن دققنا في سلوكهم...

بعد هذه الكلمات الأخيرة للسيّدة موبران، لمع ألق من الزهو الأبوي على وجه السيّد موبران.

– نعم، نعم، قال مبتسماً من الذكرى، الواقع أنّ لها روحاً شيطانية... هل تتذكّرين ذلك المحافظ المسكين: «أوه! إنّه ديك عجوز!...» أذكر كيف قالت ذلك فوراً لدى رؤيته.

– إنّه لأمر في منتهى الطرافة فعلاً، وهو ملائم جدّاً بالخصوص... وهل تظنّ أنّ مثل تلك الكلمات تحقق الزواج... وهل من شأنها أنْ تلزم أشخاصاً آخرين بالتقدّم للخطوبة؟ أنا متأكّدة من أنّ لرينيه صيتاً كريهاً في المجتمع الرّاقي... يكفي القليل من تلك الروح الكيّسة التي تبديها... وسوف ترى كم سيأتي من طالبي يد ابنتك! لقد زوجتُ هنرييت بطريقة في غاية السهولة! أمّا هذه فهي صليب عذابي...

كان السيّد موبران الذي تناول حُقّة النشوق من فوق منضدة السرير، يبدو منشغلاً بتدويرها بين إبهامه والسبابة.

– وعلى أية حال، تابعت السيّدة موبران، هذا الأمر يخصّها هي... عندما تبلغ الثلاثين، بعد أنْ تكون قد رفضت الجميع، عندما لا يبقى من يرغب فيها... رغم كلّ ما تتحلّى به من عقل وخصال حميدة، وغير ذلك... عندئذ سوف تفكر جيّداً... وأنت كذلك.

ساد هدوء. تركت السيّدة موبران وقتاً للسيّد موبران كي يعتقد أنّها أنهت كلامها. ثمّ غيّرت من نبرتها:

– والآن لديّ ما أحكيه لك عن ابنك...

وهنا، رفع السيّد موبران رأسه، بعد أن كان صاغراً تحت وقع كلامها؛ وافترّ فمه عن نصف ابتسامة لا تخلو من سذاجة ماكرة.

يوجد لدى البرجوازية، سواء العليا أو السفلى، نوع من الحبّ الأمومي الذي يعلو حتّى الشغف وينحط إلى درجة العبادة. فكثيراً ما توجد أمهات بحنان كأنّه يسجد متعبداً، وقلب كأنّه يركع

أمام الابن. لم يعد ذاك حبّاً أمومياً، مخفياً ضعفه، متسلحاً بحقوقه، غيوراً على واجباته، مهتماً بالتراتبية العائلية وآدابها، محاطاً بالاحترام والسلطة. والابن الذي تقرّبه من أمّه كلّ أشكال الألفة، يحصل منها على عناية تعادل الولاء، ومداعبات تتضمن المذلة. تجلب إليه أمّه كلّ أحلامه؛ فهو ليس الوريث فقط، بل مستقبل العائلة التي يعدها بثروات البرجوازية، وارتقائها، وصعودها التدريجي من جيل إلى جيل. تتمتّع الأمّ بما هو عليه وبما سوف يكونه. تحبه وتتباهى به. تنذر إليه طموحاتها وتضمر له الإجلال. يبدو لها هذا الابن مثل كائن خارق تدهش أحشاؤها كيف حملته: كأنما اختلطت في داخلها، وبشكل غامض، كلّ أشكال الكبرياء والخشوع لوالدة إله.

كانت السيّدة موبران نموذجاً لأمهات البرجوازية العصرية. فجدارة ابنها، ومحياه، وعقله، كانت بالنسبة لها إلهية. وكانت شخصيته، ولطفه، وما يقوله، وما يفعله، يكتسي قداسة لديها. كانت تلبث متأملة أمامه؛ ولا يكون من وجود للآخرين في حضوره عندها. كان العالم يبدو لها وكأنّه بدأ وينتهي مع ابنها. كان يجسد الكمال في كلّ شيء، فهو الأذكى، والأجمل، وهو بالخصوص أكثر الرجال تميزاً. كان حسير النظر ويضع نظارة بلا ماسكتين: ولم تكن لتعترف بضعف بصره.

عندما يكون حاضراً، تنظر إليه وهو يتكلّم ويجلس ويمشي؛ وتبتسم له عندما يكون مشيحاً بظهره. كانت تحب طيات ثيابه. وكثيراً ما تمكث مستغرقة عدة دقائق في كرسي مريح عندما لا يكون حاضراً: هناك فكرة ذات عذوبة لامتناهية تنير وجهها وتهدئه شيئاً فشيئاً؛ فيحط عليه الظل والسلام والضياء في آن؛ نظرتها سعيدة وعيناها تتذكّران، وقلبها يستعيد الرؤية. ولو كلمها أحدهم في تلك اللحظة، لبدت كأنّها تستيقظ للتو.

هناك بعض الوراثة في ذلك الهوس بالحبّ الأمومي. فالسيّدة موبران من دم يكنّ لابنها محبّة ساخنة، عنيفة وتكاد تكون جنونية. فالأمهات في عائلتها كنّ أمهات بعنف. وكانت جدّتها قد خلّفت وراءها أسطورة في مقاطعة «أوت مارْن»: يُقال إنّها شوّهت بجمرة متّقدة طفلاً قيل إنّه أجمل من ابنها. وكادت السيّدة موبران تُجنّ خلال آلام ابنها الأولى: صارت تلعن كلّ الأطفال المعافين؛ وطلبت من الربّ أنْ يقتلهم، إنْ مات ابنها. وذات مرّة أصيب بمرض خطير، فأمضت ثمانيَ وأربعين ليلة بلا نوم؛ تورّمت ساقاه من التعب. عندما بدأ بالركض سُمح له بكلّ شيء. وإذا ما جاء من يشتكي من اعتدائه على أطفال القرية، كانت تقول بصوت حنون: «يا للصغير المسكين!»

ثمّ، ومع نموّ الطفل، بدأت روح الأمّ تمشي أمامه، وبدأت تملأ بالآمال درب حياته كرجل. وكانت تفكر في وريثات المقاطعة اللواتي يمكن أنْ تكون أعمارهنّ لاحقاً مناسبة لعمره. وكانت تراه داخل القصور، على صهوات الخيول، يمارس الصيد في ثياب حمراء. فتنبهر بالاستيهامات وبالاحتمالات.

وتأتي ساعة المدرسة الثانوية، ساعة الانفصال. كافحت السيّدة موبران ثلاثة أشهر كي تحتفظ بابنها، وتربيه قربها بواسطة معلم. غير أنّ السيّد موبران كان حاسماً.

كل ما تمكنت السيّدة موبران من الحصول عليه من زوجها تمثّل في اختيار المدْرسة: فاختارت الألطف من بين ما وجدت، إحدى مدارس الأطفال الموسرين؛ ذات الانضباط الرخو، حيث يتمّ تناول كعك المارينغ[17] وقت النزهة، وحيث يلجأ الأساتذة إلى الأمر بتكرار التمارين أكثر ممّا إلى فرض العقوبات.

خلال الأعوام السبعة التي أمضاها هناك، لم يمر يوم واحد من دون أنْ تأتي السيّدة موبران من سان دوني لرؤيته في استراحة الساعة الواحدة. ولم يكن ليثنيها المطر أو البرد أو التعب أو المرض. في غرفة الاستقبال، في ساحة المدرسة، تتبادل الأمهات الأخريات الإشارة إليها. يقبّلها الابن، يتناول الحلويات التي تجلبها له ويتذرع بواجب سيكمله كي يسرع عائداً إلى اللعب. كان ذلك كافياً للأم. لقد رأته، وهو بخير. كانت لا تنفك تفكر في صحته. وتكثر من تزويده بالقمصان الداخليّة. وخلال العطل كانت تحشوه باللحوم، وخاصة فتائل لحم العجل وتسكب له كلّ عصيره النازف حتّى يصير كبيراً وقوياً. اشترت له سجادة صغيرة حتّى لا يقرأ وهو جالس بخشونة على مقاعد صفّه. كان في المدرسة غرف للتلاميذ: فأثثت له غرفته مثلما تؤثث غرفة رجل. وهكذا حصل وهو في الثانية عشرة من العمر على خزانة زينة من خشب البليساندر الفاخر ذي اللّون البنفسجيّ.

صار الطفل شابّاً، والشابّ غادر الثانوية، ولم يكن من تعلق السيّدة موبران إلّا أنْ ازداد مع كلّ مشاعر الرضى التي تكتسبها عيون الأمهات من وجود ابن يافع تتبدل هيئته وتنمو لحيته. ومع تناسي المزودين الذين كانت تدفع لهم الفواتير، كانت مفتونة بطريقة ابنها في ارتداء ثيابه والاعتناء بشعره وتبديل أحذيته. كان يوجد في تذوقه ما يحب، وفي بذخ عاداته، وفي مظهره، وفي حياته،

أناقة تنحني أمامها بذهول وافتتان كما لو لم تكنْ هي مصدرها وأمينة صندوقها. ولم يكن خادم ابنها خادماً بأتمّ معنى الكلمة في نظرها. وحصان ابنها لم يكن حصاناً فقط: كان حصان ابنها. وعندما يخرج ابنها كانت تُخبر بذلك حتّى تسعد برؤيته يصعد إلى عربته وينطلق.

كانت تمتلئ بهذا الابن كلّ يوم أكثر. ومن دون تسلية، وبلا أيّ انشغال للخيال، ومع عدم القراءة، وقد هرمت قرب ذلك الزوج الذي لم يجلب لها الحبّ البتة وكانت تشعر به دائماً منغلقاً دونها في البحوث والسياسة والأعمال، ولم يتبقّ بجانبها إلّا ابنة لم تمحضها محبّتها كلّها أبداً، انتهى بها الأمر إلى تكريس حياتها كلّها من أجل حظ هنري، وإلقاء كلّ أشكال غرورها في مستقبله.

وظلت فكرتها الوحيدة، فكرة كلّ ساعات النهار والليل، فكرتها الهاجس، أنْ تزوّج هذا الابن المحبوب، أنْ تزوّجه زواجاً موفقاً، أنْ تزوّجه بطريقة غنية ومتألقة بما يكفي حتّى يتمكن هذا الزواج من أنْ ينتقم ويعوض لها أحزان وجودها وظلمته، وحياة التوفير والوحدة، وكل أصناف الحرمان التي عاشتها كامرأة وكزوجة.

– هل تعرف على الأقلّ عمر ابنك، يا سيّد موبران؟ تابعت السيّدة موبران القول.

– هنري! لكن، يا سيّدتي، لا شك أنّ هنري قد بلغ... هو من مواليد 1826، أليس كذلك؟

– أوه! هذا أمر مستغرب من أب، أنْ يسأل... نعم، 1826، يوم 12 يوليو 1826.

– إذن، فعمره الآن تسعة وعشرون عاماً... نعم! حقّاً، لقد بلغ التاسعة والعشرين...

– مع ذلك، تمكث هنا مكتوف اليدين! لا تكترث أكثر لمستقبله! تقول: نعم! حقّاً، لقد بلغ التاسعة والعشرين...، هكذا، بهدوء تام! كان غيرك سيتحرك، سيبحث... هنري ليس مثل أخته، هو يريد أنْ يتزوّج... هل فكّرت ولو مرّة أنْ تجد له خطيبة، زوجة؟ إطلاقاً! وإنّما مثلما فعلتَ مع ابنتك البكر... أسألك قليلاً ماذا فعلت بخصوص زواجها؟ أكانت تجد أو لا تجد، كأنّما الأمرين سيّان عندك. كان الأمر يتطّلب أنْ أدفعك حتّى أجعلك تتحرّك! آه! يمكنك تناسي ذلك الزواج: لا شكّ أنّ سعادة ابنتك لا تثقل على ضميرك! لولاي، هل كنت ستجد صهراً مثل السيّد دافارند... الذي يعشق هنرييت... وهو من ألمع رجال المجتمع الرّاقي!... نموذج الأزواج...

وبعد أن أطفات السيّدة موبران الشمعة، انسلت إلى الفراش بجانب السيّد موبران، الملتفت ناحية الزقاق وأنفه قبالة الجدار.

– نعم، أضافت وهي تتمدّد تحت الملاءات، هو نموذج! وهل تعتقد أنّ كلّ الأصهار يشبهونه في اهتمامه بنا؟ هو يقدّم كلّ شيء كي نبدي إعجابنا به... وأنت تقدّم له اللّحم عندما يتناول العشاء عندنا هنا، ولا يقول شيئاً... يا للكياسة! احتجت إلى ترقيع السجّاد مؤخّراً...

– عفواً يا عزيزتي، عمّ نتحدّث؟ أنبّهك إلى أنّني أرغب في النوم قليلاً هذه الليلة... بدأ الحديث عن ابنتك... والآن بدأتِ بفصل جديد حول مهارات السيّد دافارند... أعرف هذا الفصل.. لن ينتهي حتّى صباح الغد... اسمعي، تريدين لابنك الزواج، أليس كذلك؟ الأمر كذلك. إذن! لا أطلب أكثر من ذلك: فلنزوّجه.

– وهل يمكن التعويل عليك في تزويجه! وهل أنت رجل يرضى بالإزعاج؟

– عجباً، هذا ليس عدلاً يا عزيزتي... يبدو لي أنّني قدّمت براهيني، منذ أكثر من خمسة عشر يوماً... الذهاب لحضور أوبرا في منتهى الضجر! تناول المثلجات مساء، وهو أمر أكرهه... التحدّث عن أحوال الطقس مع رجل ريفي يصرح بمهر ابنته في الشوارع... وهل تعتبرين ذلك عدم رضى بالإزعاج؟ تحدّثينني عن الفشل؟ لكن هل هي غلطتي إذا كان ذلك السيّد يرغب في تزويج ابنته من «فحل جميل» كما قال، هل هي غلطتي، وحدي، إذا لم يكن لابننا بنْية هرقل؟

– يا سيّد موبران...

– هذا صحيح، في نهاية المطاف... أنا متّهم بكلّ شيء، عندك... ولن تترددي في اتهامي بالأنانية...

– أوه! يا إلهي، مثل كلّ الرجال!

– شكراً من أجلهم...

– كلّا، هذا في طبعكم أنتم الرجال... ينبغي عدم لومك... القلق للأمهات فقط... آه! لو كنتَ مثلي... لو كنت تفكر كلّ لحظة في ما يمكن أن يحدث لشابّ... أعلم جيّداً أنّ هنري عاقل؛

لكنّ أيّ ارتباط يمكن أنْ يتم بسرعة فائقة... مع امرأة حقيرة، فاسقة... أيّ مستوى... هذا ما يحدث كلّ يوم... سوف أصاب بالجنون! قلْ لي، يا موبران، ما رأيك لو أنّنا نجس نبض السيّدة روزيير، هه؟

لم يكن هناك إجابة. استسلمت السيّدة موبران إلى الصمت، دارت وتقلبت وحاولت النوم، فلم تجده إلّا مع طلوع الصباح.

– ماذا، يا للشيطان، إلى أين أنت ذاهبة؟ قال السيّد موبران في الصباح إلى السيّدة موبران التي كانت ترتدي أمام المرآة دثاراً من الدنتيلا السوداء بلا كمّين.

_ إلى أين أنا ذاهبة؟ قالت السيّدة موبران وهي تثبّت الدّثار على إحدى كتفيها بواحد من الدبّوسين الصغيرين اللّذين كانت تمسك بهما في فمها. هل ينزل دثاري كثيراً إلى الأسفل؟ انظر وأخبرني...

– كلّا...

– اسحبْ قليلاً.

– ولكن ما أجملك! قال السيّد موبران وهو يتراجع وينظر إلى لباس زوجته، ذلك اللباس الأسود ذي الصرامة الفائقة في أناقتها، والذي يعكس ذوقاً جيّداً يكاد يكون متقشفاً.

– سأذهب إلى باريس.

– ماذا؟ ستذهبين إلى باريس؟ ماذا ستفعلين في باريس؟

– يا إلهي! ما أكثر ما تتسبّب فيه من إزعاج وأنت تسأل دائماً: إلى أين تذهبين؟ ماذا ستفعلين؟ تريد أن تعرف، أليس كذلك؟

– لكنّني كنت أسأل بحسن نية...

– يا صديقي، سأعترف، قالت السيّدة موبران خافضةً عينيها.

التزم السيّد موبران بالصمت فوراً. كانت زوجته تتصف، منذ بداية الزواج، بورع امرأة تذهب إلى القداس كلّ يوم أحد؛ وفيما بعد، رافقت ابنتيها إلى دروس التعليم المسيحي: كانت تلك كلّ الواجبات الدينية التي رآها تمارسها. منذ عشرة أعوام، كان يشعر بها بجانبه، غير مبالية مثله، بشكل طبيعي، وبكلّ بساطة. ما إنْ مرت لحظة الذهول الأولى حتّى فتح فمه ليكلمها، نظر إليها،

ولم يقل لها شيئاً، وفجأة استدار على عقبيه، وخرج من الغرفة مدندناً لحناً لا ينقصه إلّا الموسيقى والكلمات.

وصلت السيّدة موبران إلى بيت جميل وزاهٍ في شارع المادلين، فصعدت إلى الطابق الرابع؛ دقّت جرس باب خالٍ من أيّ مظهر: ففُتح.

– السيّد القسّ بلُومْبُوَا!

– من هنا، يا سيّدتي، قال خادم ذو لكنة بلجيكية، وكسوة خدم سوداء، ونظرة متواضعة، وتحية انحناء. جعل السيّدة موبران تجتاز غرفة انتظار تعبق بعطر ناعم، ثمّ قاعة أكل تملؤها الشمس، حيث كانت مائدة مهيّأة بأدوات الأكل. ووجدت السيّدة موبران نفسها في قاعة جلوس مزيّنة وملأى بالزهور. وفوق أرغن مرصّع بنقوش غنية، كان هناك نسخة من لوحة «اللّيل» للكورّيجو[18]. وفي لوحة أخرى يُشاهد تناول ماري أنطوانيت وحرسها القربان في «الكونسييرجيري»[19] في أجواء حِداد، وقد حُفرتْ على الحجر انطلاقاً من شائعة. هدايا تذكارية كثيرة، آلاف الأشياء الشبيهة بمقتنيات الأعياد تملأ الرفوف. وكان هناك تمثال مصغّر من البرونز يجسد مادلين كانوفا، وقد وُضع على مائدة وسط القاعة. أمّا الأثاث، والنّجُد المختلفة والمشغولة بورع، فكانت تفصح عما كانت: هدايا نساءٍ تقيّات إلى القسّ.

كان هناك رجال ونساء ينتظرون، يفتحون باب غرفة القس، يلبثون بضع دقائق، يخرجون، يلقون التحية، يختفون. وكان آخر الأشخاص المنتظرين امرأة أطالت البقاء. وعندما خرجت، لم تتمكن السيّدة موبران من رؤية وجهها تحت حجابها ذي الطية المزدوجة.

كان القسّ واقفاً أمام مدفأته عندما دخلت السيّدة موبران. كان يمسك بطرفي جبّته متباعدين، أمام النار، مثل ذيل سترة.

لم يكن للقسّ بلومبوا مقرّ قسّ ولا خورنيّة. كان له اختصاص وزبائن: كان هو كاهن علية القوم، المجتمع الرّاقي والناس الموسرين.

كان يشجّع مرتادي الصّالونات على الاعتراف، يقود ضمائر أبناء أصحاب الحسب والنّسب، ويعزّي الأرواح الجديرة بأن يُعنى بها. كان يضع يسوع المسيح في متناول الناس النيّرين،

والفردوس في متناول الأغنياء. وكثيراً ما كان يردّد: «لكلّ واحدٍ نصيبه في كروم الربّ»، فيبدو مزمجراً ورازحاً تحت ثقل مهنته المتمثّلة في إنقاذ أرواح سكّان ضاحية سان جرمان وضاحية سانت هونوريه وشوسيه دانتان[20].

كان رجل إدراك وروح، كاهناً سهلاً يلائم كلّ شيء وفق مبدأ: «الأمور بمقاصدها لا بألفاظها». كان متسامحاً وذكيّاً. يتفهم ويبتسم. يقيس الإيمان بمزاج الناس، ولا يقدّمه إلّا بجرعات خفيفة. وكان يلطف التوبة، يخلّص الصليب من عُقَده، ويمهد بالرمل درب الخلاص. ومن التديّن القاسي البشع الصارم لدى الفقراء، يستخلص ما يشبه تديّناً محبوباً لدى الأغنياء، خفيفاً، فاتناً، مرناً، خاضعاً للأشياء وللأشخاص، ولكلّ لياقات المجتمع الرّاقي، وآدابه، وعاداته، وحتّى أحكامه المسبقة. كان يجعل من فكرة الرب شيئاً مريحاً وأنيقاً.

كانت للقسّ بلومبوا فتنة الكاهن المتحلّي بالتعلّم والمواهب ولطافة الرّوح. كان يجيد إدخال المحادثة ضمن الاعتراف، وإضافة المتعة إلى العظة، والبهجة على المسح بالزيت المقدّس. ويعتني بإثارة المشاعر وإثارة الاهتمام. إذْ كان يعرف الكلمات التي تلامس والكلمات التي تلاطف والكلمات التي تدغدغ. كان صوته موسيقياً، ونبرته مزهرة. يسّمي الشيطان «أمير الشرّ» وسرّ القربان المقّدس «الغذاء الربّاني». وكان يسهب في أسلوب التورية الملونة مثل رسوم القداسة. فكان يتحدّث عن روسيني، ويستشهد براسين، ويقول «الغابة» مختصراً اسم غابة بولونيا. ويتحدّث عن الحبّ الإلهي بكلماتٍ تُربك، وعن رذائل اليوم بخاصّيات طريفة، وعن المجتمع الرّاقي بلغته. وتتسرّب بين الفينة والأخرى إلى استشاراته الروحية مصطلحات دارجة وطازجة وكلمات حميمة، تماماً مثل مقتطفات من يوميّات في كتاب زهد. كان متوائماً وروحَ العصر. وكان ينبعث من ثوبه ما يشبه رائحة كلّ الخطايا الجميلة التي حاذته. كان عميقاً وفطناً إزاء الإغواءات الناعمة، مفعماً بالرقة، وبالحذق واللياقة في خبايا الميول الحسية. كلّ ذلك كان يفتن النساء.

تميّزت خطوته الأولى، وبدايته في مهنته الكنسية، بإغراء، وباختطاف أرواح، ونجاحٍ ارتقى إلى مستوى انتصار وربّما إلى فضيحة. فبعد سنة في دروس المثابرة في التعاليم المسيحية أمضاها في الكنيسة الخورنية الفلانيّة ناداه المطران إلى وظيفة أخرى، واستبدله بمدير آخر، فثار دارسو التعاليم المسيحية. ورفضت كلّ الفتيات استقبال القادم الجديد أو الاستماع إليه. اهتاجت كلّ تلك القلوب والرؤوس الصغيرة. وسالت دموع الرعية، انتفاضة أسف حقيقيّة لم تتأخّر في التحوّل إلى

مقاومة. وهكذا تابع الأكبر سناً في دروس المثابرة، وكذلك مرشدات العمل الخيريّ، نضالهنّ لمدة أشهر. وكنّ يتحالفن لكي لا يظهرن في الاجتماعات؛ ووصل بهنّ الأمر إلى حدّ حجب صندوق المال الذي كان في عهدتهنّ على الخوري. وبُذلت جهود كبيرة لتهدئتهنّ.

كلّ ما كان يعلنه ذلك من حظوظ ووعود للقسّ بلومبوا لم يغب عنه. وهكذا انتشرت شهرته. وتلك القوة التي تمس كلّ شيء في باريس بما في ذلك جبّة الكاهن، أي الموضة، حملته وأطلقت شهرته. صاروا يأتونه من كلّ الأنحاء. كان أصحاب الهنات الصغيرة يذهبون إلى غيره؛ أمّا هو فكانوا يأتونه بالخطايا الممتازة. وحوله كان هدير الأسماء الكبيرة، والثروات الطائلة، وأنواع الندم الجميل والفساتين الأنيقة. كانت الأمهات يستشرنه ليسهّلن دخول بناتهنّ إلى المجتمع الرّاقي، والبنات يتزودّن بنصائحه قبل ولوج حلقات ذلك المجتمع. كان هو الرجل الذي يستشار من أجل السماح بتقوير الثياب وتعرية الرقبة والكتفين، والرجل الذي يشرف على احتشام فساتين الحفلات الراقصة ولياقة المطالعة، وهو الرجل الذي يُسأل عن عناوين الروايات التي يمكن قراءتها وقائمة المسرحيات الأخلاقية التي يمكن مشاهدتها. كان يهيّئ للمناولة الأولى، ويرافق إلى الزواج. يعمّد الأطفال، يستمع إلى اعترافات المتعلقة بزنا القلوب. وتأتي إليه النساء المهمَلات وغير المقدَّرات ليتأوهن من مادية أزواجهنّ، فيزودهنّ بالقليل من المثل التي ينقلنها إلى بيوت الزوجية. أمّا حالات اليأس، والأحزان الكبرى، فتسرع إليه، وينصحها برحلة إلى إيطاليا، والتسلية بالرسم وبالموسيقى، مع اعترافات جيّدة في روما. وتقصده النساء المنفصلات عن أزواجهنّ كي يعدن إلى أزواجهنّ من دون ضجة. فتتوسط مصالحاته حبّ الزوجات وغيرة الحموات. يزود الأمهات بمعلمات؛ ويزود الزوجات الشابّات بخادمات أربعينيات. وتتعلم منه حديثات الزواج طريقة الحفاظ على سعادتهنّ والمحافظة على أزواجهنّ بالكتمان والرقة في التبرّج، والنظافة، والاعتناء، وطهارة الملبس ونعومته. فكان يقول أحياناً: «يجب، كما ترين، يا ابنتي العزيزة، أنْ يكون للمرأة الشريفة قليل من عطر الغادة اللعوب». وتدخل تجربته في نظافة الزواج. وتستضيء الأمّ بضوء نصائحه، وتنصت الحامل إلى توقّعاته: فهو الذي يقرّر ما إذا كان هناك امرأة ستكون أماً، أو أمٌّ ستكون مرضعاً.

هذا الصيت، وهذا الدور، وهذا التدبّر الحميم للمرأة، وهذا الامتلاك لكلّ أسرارها، مع الكثير من المسارّات والمعارف، والكثير من العلاقات في كلّ الاتّجاهات مع صاحبات المقام وحارسات كنوز الأعمال الخيرة، والصلات المتواصلة، التي تسمح بها مساعي الإحسان ومنافعه، مع كلّ ما يتّصف بالأهمية في باريس، وكلّ النفوذ الذي يمكن أن يراكمه كاهن متكتم خدوم وبارع، كلّ ذلك

مكّن القسّ بلومبوا من التمتّع بإحدى تلك السلطات الكبيرة التي تشعّ خفْية. فالمصالح، وغيرها، تقدّم اعترافاتها له. والطموحات الاجتماعية تلجأ إلى فضله. ويكاد كلّ صالح للزواج في هذا المجتمع يتوجّه إلى هذا القسّ الذي لا ينتمي إلى أيّ تيّار سياسيّ، وقد ذاع صيته لدى مختلف الطبقات وحصل على موقع رائع يؤهّله لتقريب الأسماء أو جعل العائلات تتصاهر، وضمان الاتّفاقات أو موازنة المواقف، وجمع المال إلى المال، أو ضمّ لقب عريق إلى ثروة حديثة. كأنما صار الزواج في باريس مديناً إلى ما يشبه عناية خفيّة في هذا الرجل النادر الذي يمتزج فيه الكاهن ووكيل الدعاوى، الداعية والدبلوماسيّ، فينيلون والسيّد دو فوا[21].

كان للقسّ بلومبوا إيراد بأربعين ألف ليرة، يتبرع بنصفه إلى الفقراء. ولقد رفض مطرانية كي يبقى كما هو: كاهناً.

– من التي تشرّفني بحضورها؟ قال القسّ الذي بدا وكأنّ ذاكرته تبحث عن اسم.

– السيّدة موبران... والدة السيّدة دافارند...

– آه! عذراً، يا سيّدتي، عذراً.. أنت لست من الأشخاص الذين ننساهم... لكن، أرجوك، هوذا مقعد مريح لك.

ثمّ جلس بعكس الضوء، قبالتها، وتابع القول: شكّل ذكرى عزيزة جدّاً بالنسبة لي ذلك الزواج الذي مكّنني من التعرف عليك، زواج الآنسة ابنتك من السيّد دافارند. لقد تمكّنا، أنت وأنا، أنت يا سيّدتي بتفاني الأمّ، وأنا يا إلهي! باستنارة شحيحة لكاهن متواضع، من تحقيق زواج مسيحيّ حقّاً، يستجيب بالكامل إلى متطلّبات الإيمان لدى تلك الطفلة العزيزة، ومتطلبات القلب، وضرورات موقعها الاجتماعي. السيّدة دافارند هي عندي نموذج لطالبات الغفران، أنا في منتهى الرضا بذلك. والسيّد دافارند شابّ رائع يشارك زوجته مشاعرها الدينية، وهو أمر نادر الحدوث هذه الأيّام. الروح تستريح في كنف زيجات في غاية السعادة، والتميز، وأنا متأكّد مسبقاً أنك لم تأتِ من أجل هذين الابنين العزيزين...

– صحيح، يا سيادة القسّ، أنا في غاية السعادة من هذا الجانب... سعادتهما فرحة كبيرة في حياتي. إنّ تزويج الأبناء لمسؤولية كبيرة جدّاً! كلّا، يا سيادة القس، لم أجئك من أجلهما: بل من أجلي.

– من أجلك، سيّدتي العزيزة؟

ورمقها القسّ بنظرة سرعان ما أطفأ بريقها.

– آه! يا سيّدي القسّ، الأعوام تحدّث الكثير من التغييرات... حتّى بلوغ عمري، تكون هناك تسلية بالعديد من الأشياء: الناس، المجتمع... كلّ ذلك يسلّي. نتناسى، نحبّ كلّ ذلك، نصدقه، ونعتمد عليه... ونتصور أنّنا لن نحتاج إلى أيّ شيء آخر... لكن! سيّدي القسّ، أنا الآن بلغت السنّ التي يحتاج فيها المرء إلى شيء آخر. أنت تفهمني... أشعر بالفراغ في الدّنيا. لا شيء يشغلني. أرغب في العودة إلى ما تخلّيت عنه. أعرف كم أنت متسامح، وأدرك مدى إحسانك. أحتاج إلى نصائحك، إلى يدك، كي تعيدني إلى كلّ الواجبات التي أهملتها مطوّلاً، من دون الانقطاع عن معرفتها واحترامها. أتعرف هذا البؤس، سيّدي القسّ؟

وبينما كانت تتكلّم بتلك الطريقة، مع سهولة تدفّق الكلام لدى المرأة ولدى الباريسية، هذه السهولة التي تُسمّى في لهجة باريس bagou، أي ذلاقة اللّسان، وقعت عينا السيّدة موبران اللتان ظلّتا تتحاشيان عيني الكاهن كما لو كانتا تشعران بوجودهما في العتمة، وقعتا آليّاً على لمعة نور حرّكتها يدا القسّ، وأشعلتها إشراقة الشمس، فشعّت وسط هذه الغرفة، غرفة رجل أعمال، بسيطة رسمية وباردة. كانت لمعة النور تلك متأتية من علبة حليّ كانت أصابع القسّ تلهو بألماساتها.

– آه! أذهلكِ، قال القسّ مفاجئاً نظرة السيّدة موبران ومجيباً على فكرتها، من دون الإجابة على جُمَلها، أذهلك هذا، أليس كذلك؟ نعم صندوق حلي... هو صندوق حلي... قطع ألماس... وانتبهي! إنّها جميلة كفاية –ومدّ لها العقد الماسيّ– هذا أمر غريب، أليس كذلك، وأن يكون هنا بالتحديد؟ ماذا تريدين؟ هذا هو مجتمعنا الحديث. ونحن مضطرّون إلى التعامل ولو قليلاً مع كلّ شيء... يا له من مشهد حزين! لم أشفَ منه حتّى الآن... بكاء ونحيب... ربّما تمكنت من سماع ذلك؟ كانت امرأة شابّة شقيّة تتمرّغ عند قدميّ، أم عائلة، يا سيّدتي! يا للأسف! هي ذي الدنيا... وهذا ما يؤدّي إليه البحث عن التزيّن والحلي وكلّ ما يستخدم لنيل الإعجاب... ينفقون، ينفقون، ويصلون إلى مرحلة لا يدفعون فيها للمحلّات التجارية إلّا الفوائد المتراكمة... نعم يا سيّدتي، هذا يحدث، سوف أسمي لك المحلّات... هناك أمل دائم بتسديد رأس المال ذات يوم... وتتم المراهنة على صهر يُقال له كلّ شيء فيكون سعيداً جدّاً بتسديد ديون حماته... لكن، في انتظار ذلك يعيل صبر المخازن التجارية... ويأتي يوم تهدد فيه بكشف كلّ شيء للزوج... عندئذ... أوه! إذن! تخيّلي

أنواع القلق والعذاب! هل تعلمين أنّ هناك من حدثتني قبل قليل عن إلقاء نفسها في الماء؟ تطلّب منّي الأمر وعداً بإيجاد ثلاثين ألف فرنك... لكنّني أطب منك العفو، لقد أدخلتك في حديث شؤوني... لنعدْ إليك، إلى ذويك... لديك ابنة ثانية... فاتنة... كنت قد هيّأتها للمناولة الأولى... ذكريني إذن باسمها الأوّل...

– رينيه.

– هذا هو، تماماً... طفلة ذكية جدّاً، حيوية جدّاً، طبيعة مختلفة تماماً... أخبريني، ليست متزوّجة؟

– كلّا، سيّدي القس، هذا شغلي الشاغل. ليست لك فكرة عن تلك الفتاة العنيدة... ليس لها أيّ شبه بأختها. لها تلك الطباع التعيسة بالنسبة إلى أيّ أمّ... كم تمنّيت لو كانت أقلّ ذكاء بقليل... عثرنا لها على أفضل الخطّاب. ترفضهم بطيش وجنون... حتّى البارحة... زد على ذلك أنّ والدها يبالغ في تدليلها...

– آه! إنّه لأمر مؤسف. لا يمكنك تصديق مدى تعلّقنا الأموميّ بهؤلاء الأبناء الذين جئنا بهم إلى يسوع وإلى مريم... لكنّك لا تخبرني شيئاً عن ابنك... فتى رائع، وحسن التربية، وصار في سن الزواج، كما بدا لي...

– هل تعرفه يا سيّدي القسّ؟

– حصل لي شرف لقائه ذات مرّة في منزل أخته، عند السيّدة دافارند، عندما ذهبت لرؤيتها خلال مرضها؛ لأنّ تلك، كما تعلمين، هي الزيارات الوحيدة التي نؤديها، زيارات المرضى... ثمّ إن لي معلومات جيّدة عنه. أنت أم سعيدة، يا سيّدتي: ابنك ممارس لواجباته الدينية. خلال عيد الفصح، تناول القربان لدى الآباء اليسوعيين. ولقد كان، ولا شك أنّه لم يخبرك بذلك، في عداد أولئك الرجال من سادة المجتمع، ومن المسيحيين الحقيقيين، الذين انتظروا كامل اللّيل تقريباً من أجل الاعتراف، بسبب كثرة الازدحام! نعم، لا يمكن تصديق ذلك، لكنْ شكراً للربّ! هذا هو واقع الحال. هناك شبّان، من الموسرين، ظلوا ينتظرون الاعتراف حتّى الخامسة صباحاً. لست في حاجة إلى إعلامك كم أنّ الكنيسة تتأثر بمثل هذه الحماسة، وكم هي ممتنة للذين يقدّمون لها هذا العزاء ويهبون لها هذا التكريم، في هذا الزمن الحزين من إفساد الأخلاق والارتياب؛ وأخيراً كم نحن، كلّ

خدَمها، مستعدون لصالح كلّ هؤلاء الشبّان من ذوي القدوة الحسنة والإرادة الطيبة، وجاهزون لتمكينهم من دعمنا الضئيل، وإسنادهم بالقليل من التأثير الذي يمكننا الحصول عليه في العائلات...

– آه يا سيّدي القس، أنت في منتهى الطيبة... واعترافنا بالجميل، اعترافي واعتراف ابني... لو تكرمت بالاعتناء به... كانت جيّدة هذه الفكرة التي راودتني كي أجيء للقائك. يا إلهي! كت أجيئك كامرأة، لكنّني كنت أجيئك أيضاً كأم... إنّه لملاكٌ ابني، يا سيّدي القس... زدْ على ذلك أنك تستطيع الكثير!

حرّك الكاهن رأسه بابتسامة إنكار يمتزج فيها التواضع بالكآبة:

– كلّا يا سيّدتي أنت تبالغين. نحن أبعد ما نكون عمّا تقولين. نتوصّل أحياناً إلى القيام ببعض الخير، ولا نزال نواجه صعوبة شديدة في القيام بذلك! لو كنت تعلمين كم أنّ الكاهن لا يُعدّ شيئاً مهمّاً في هذا الوقت! يخافون نفوذه، يتحاشونه، لا يرغبون البتة في رؤيته خارج الكنيسة، والحديث معه خارج الاعتراف... حتّى أنت يا سيّدتي، من شأنك أن تندهشي لو تدخّل الكاهن الذي تعترفين له في سلوكك اليومي... الابتعاد، الاحتراس، تلك هي الأحكام المسبقة والمؤسفة إزاءنا لدى الناس...

– آه! يا إلهي، لكنّ الساعة الآن هي الواحدة... لقد رأيت مائدتك جاهزة لدى وصولي... أنا أشعر بالخجل... ستسمح لي بالعودة خلال بضعة أيّام...

– غدائي يمكن أن ينتظر، قال القسّ بلومبوا. والتفت نحو مكتب يغصّ بالأوراق قربه، مشيراً إلى السيّدة موبران بمعاودة الجلوس. سادت لحظة صمت لا يُسمع فيها إلّا الحفيف الذي يصدره الكاهن بين الأوراق. وانتهى ذلك ببطاقة زيارة في شكل قرن سحبها الكاهن من بين كومة أوراق ووجّهها نحو الضوء، وقرأ فيها: «ثلاثمائة ألف فرنك، إيرادات، سندات... خمسة عشر ألف ليرة دخْل يوم الزواج... الأب والأمّ متوفّيان... ستّمائة ألف فرنك عند موت الأعمام والعمّات الذين لم يتزوّجوا ولن يتزوّجوا... شابّة... تسعة عشر عاماً... فاتنة... أجمل ممّا تتصوّر هي».

وقال الكاهن وهو يعيد البطاقة بين الأوراق:

– هيّا، فكّري، أخيراً سوف ترين... سوف أحصل أيضاً... نعم، لديّ في هذه اللحظة خمسة وعشرون ألف ليرة كإيراد من تزويج هذه اليتيمة... لكنْ، كلّا، لن يتمّ ذلك؛ فالوصيّ عليها يحتاج إلى نفوذ: فهو مستشار مقرِّر من الفئة الثانية لدى مجلس المحاسبة، ولن يعطي محميّته إلّا إلى صهر يستطيع العمل على تعيينه ضمن الفئة الأولى... آه! انتظري، هي ذي التي يمكن... وقال وهو يتصفّح ملاحظات: اثنتان وعشرون سنة، ليست جميلة... لها مواهب تضمن القبول... ذكية، أنيقة؛ الأب، ألف وخمسمائة ألف فرنك؛ ثلاثة أبناء، ثروة كبيرة. فهو يملك أوّلاً منزلاً في شارع بروفنس، حيث مكاتب الأمن؛ وأرضاً في منطقة الأورن، ومائتي ألف فرنك في المصرف العقاري... رجل كامل الصفات بما يكفي، من أصل برتغالي. الأمّ لا تمثل شيئاً في البيت. لا وجود لعائلة، وحتّى الأب سيحقد عليك لو رأيت أهله... لا أخفي عنك شيئاً، كما ترين... يُجمَعون مرّة في السنة في عشاء عائليّ، وهذا كلّ شيء... الأب مستعدّ لتقديم مهر بثلاثمائة آلاف فرنك؛ وهو يحرص على أنْ تسكن ابنته عنده.

وعاد إلى تصفّح الملاحظات: نعم، قال القسّ، هذا كلّ ما أجده لك في هذا الوقت... إذن، عليك أنْ تخبري ابنك بكلّ هذا، يا سيّدتي العزيزة. واستشيري السيّد زوجك. أنا أضع نفسي بالكامل تحت تصرفكم. أتمنى عندما تشرفينني بزيارتك القادمة، أن تجلبي لي بعض الأرقام، وبعض الملاحظات... التي من شأنها أنْ توضح لي النوايا التي تريدينها حول زواج ابنك... ولا تنسي أيضاً أنْ تأتيني بابنتك: سوف أتشرف باستقبالها، تلك الطفلة العزيزة.

– أتمنّى سيّدي القسّ أنْ تحدد لي ساعة أزعجك فيها أقلّ ممّا فعلت اليوم؟

– أنا يا سيّدتي ملْك جميع مَن يحتاجون إليّ، وهذا يشرّفني كثيراً... لكنْ ماذا لو جئت لزيارتي بعد خمسة عشر يوماً من الآن... لأنّني سوف أكون في الريف تماماً، ولن آتي إلى باريس إلّا ليوم واحد... نعم، إنّها ضرورة اضطُرِرتُ إليها؛ أصل في نهاية الشتاء في غاية الضعف... وأمامي الكثير من القضايا... أضيفي إلى ذلك أنّ هذه الطوابق الأربعة تقتلني. لكنْ، ماذا عسانا نفعل؟ لا بد من دفع ثمن امتلاك مصلّى، والرخصة الثمينة المتمثلة في تقديم القداس في بيتي... المصلى كما تعلمين، لا أحد يستطيع النوم في أعلاه... إيه! لكنّني أفكر في ذلك، لماذا لا تأتين لرؤيتي هناك في الريف، في كولومب؟ إنّها نزهة. عندي فواكه... ذاك غرور المالك عندي. سوف

أقدّم لكما لمجة بلا طقوس، لك، يا سيّدتي العزيزة، ولابنتك العزيزة... أترى يشرّفني ابنك الرائع بمرافقتكما؟

7

بعد ربع ساعة وإثر دقات السيّدة موبران للجرس، فتح خادم يرتدي سترة حمراء بابَ طابق منخفض بين الطابقين الأوّل والأرضيّ في شارع تيبو.

– صباح الخير جورج... هل ابني هنا؟

– نعم يا سيّدتي، سيّدي هنا.

ابتسمت السيّدة موبران لخادم ابنها. ولدى مرورها ابتسمت للشقة، للأشياء وللأثاث.

دخلت إلى المكتب. كان هنري يكتب وهو يدخّن. قال: «عجباً!»، ثمّ أبعد سيجاره عن فمه، وحنى رأسه على مسند مقعده المريح كي يستقبل قُبلة أمّه؛ ثمّ عاد إلى التدخين: «كيف، هذه أنتِ، يا أمّي؟... في باريس، اليوم؟ لم تخبريني بذلك... ما الذي أتى بك؟»

– أوه! تسوُّق، وزيارات... تعرف أنّني أجد دائماً ما يؤخّرني... ما أجمل وضعك هنا!

– آه! صحيح، أنت لم تريْ ترتيباتي الجديدة.

– يا إلهي! كم تُحسن ترتيب أمورك!... لا أحد مثلك حقّاً... ليس عندك رطوبة هنا، طبعاً؟ ووضعت السيّدة موبران يدها على الجدار، اطلبْ من جورج دائماً أن يقوم بالتهوئة كلّما غادرت، أليس كذلك؟

– نعم، نعم، يا أمّي، قال هنري بنبرة الضجر التي نردّ بها على الأطفال.

– أوه! لماذا لديك هذان؟ لا أريد منك أنْ تمتلك مثلهما... فقد لمحت السيّدة موبران للتوّ فوق مكتبةٍ سيفَيْن صالحين للقتال، تكفي رؤيتهما!... عندما نتخيّل!...

أغمضت السيّدة موبران عينيها لحظة، وجلست:

– أنت لا تعلم كم تزعجنا حياة العزوبية التي تعيشها!... لو كنتَ متزوّجاً، يبدو لي أنّني لن أكون على هذه الدرجة من العذاب... أتمنى رؤيتك متزوّجاً يا هنري!

– أنا أيضاً، أؤكّد لك ذلك.

– صحيح؟ لنرَ، الأمهات، أنت تعرف... لا نخفي أسرارنا عنهنّ... أنا خائفة... عندما أراك كما أنت، شابّ جميل، متميز، روحاني، لديك كلّ ما يثير الإعجاب... أنت مجبول بطريقة تجعلك محبوباً أكثر! لذا، أنا أشعر بالخوف...

– ممَّ؟

– أنْ... أنْ يكون لك مبرّر... كي لا...

– كي لا أتزوّج، أليس كذلك؟ علاقة ما هي بمثابة قيد... أليس كذلك؟

أشارت السيّدة موبران أنْ نعم برأسها.

انفجر هنري ضاحكاً:

– آه! يا أمّي الطيبة، لو كان لديّ قيدٌ لفككتُه، كوني مطمئنة! أيّ شابّ يحترم نفسه لا يرتبط...

– إذن، هلّا أخبرتني عن الآنسة هيربو... طبعاً أنت الذي تسبّبت في القطيعة...

– الآنسة هيربو؟ عرض الأوبرا مع أبي؟ آه! كلّا... نعم، نعم، الآنسة هيربو.. العشاء عند السيّدة ماركيزا، أليس كذلك؟ الأخيرة، إذن؟ فخّ أرسلتِني إليه بلا تحذير! ينبغي الاعتراف أنك في منتهى البراءة!... أُعلن عن حضوري: السيّ... ـد هنري موبران! كان واحداً من تلك الإعلانات المفخّمة التي تقول: «هوذا الخطيب!». وجدت شمعدانات قاعة الاستقبال مضاءة. وسيّدة البيت التي رأيتها مرّتين في حياتي أرهقتني بالابتسامات؛ وابنها الذي لا أعرفه تقدّم وصافحني. كان في القاعة أم وابنة لا يبدو عليهما أنهما يريانني: جيّد جدّاً! طبعاً أجلسوني لتناول العشاء بجانب الشابّة: عائلة ريفية، ثروة مَزارع، أذواق بسيطة... رأيت كلّ ذلك أثناء تناول الحساء. كانت الأمّ، في الجانب الآخر من المائدة، تراقبنا بدقة؛ أمّ لا تطاق، ويا لزينتها!... سألتُ الإبنة عمّا إذا كانت قد شاهدت «النبيّ» في الأوبرا. فأجابت: «نعم، رائعة.»؛ «– هناك بالخصوص ذلك الفعل الباهر في الفصل الثالث»؛ «– آه! نعم، ذلك الفعل الباهر... ذلك الفعل الباهر...». لم تشاهد المسرحية التي لم أشاهدها بدوري. كاذبة في المقام الأوّل. تسلّيتُ بدفعها إلى ذلك؛ فصارت مزعجة. انتقلنا إلى قاعة الجلوس. «ما أجمل الفستان! هل لاحظت ذلك؟، قالت لي سيّدة البيت. هل تصدّق أنّني

أعرف فستانها ذاك منذ خمسة أعوام؟ إيميلين في منتهى الاعتناء! وتتميّز بالترتيب!» عائلة بُخَلاء تريد توريطي معها...

– هل تظنّ ذلك؟ مع أنّ المعلومات...

– امرأة تتمكّن من الإبقاء على فستانها خمس سنوات! هذا يكشف كلّ شيء، هذا يكفي! يمكن رؤية مهرها في جورب من الصوف! ولا بدّ أن يكون هناك ثروة متمثّلة في الأراضي، وبعض المال، والتعويضات، والضرائب، والدعاوى، وأن يكون هناك المزارعون الذين لا يدفعون، والحمو الذي يقدّر لك ممتلكات غير قابلة للبيع... كلّا؛ كلّا، لم أعد صغيراً... أريد الزواج، لكن الزواج بطريقة ناجحة... اتركيني أتصرّف وسوف ترين. اطمئنّي، لست ممنْ يؤخذ بجملة من نوع: «شعرها في منتهى الجمال وتحبّ أمّها كثيراً!» أرايت يا أمّي، لقد فكرت كثيراً في الزواج من دون أن يظهر عليّ ذلك... أصعب ما يمكن الحصول عليه في هذه الدنيا، وثمنه هو الأغلى، وهو ما يتمّ تخاطفه ويؤخذ غلاباً، ما لا يمكن الحصول عليه إلّا بقوّة التفوّق، والحظّ، والتدنّي، والحرمان، والجهود المسعورة، والمثابرة، والتصميم، والطاقة، والجرأة، والعمل، هو المال، أليس كذلك؟ إنّه سعادة وشرف أن يكون المرء غنياً، هو المتعة واحترام الملايين. إذن! لقد توصلت إلى وجود وسيلة لبلوغ ذلك، لبلوغ المال، مباشرة وفوراً، بلا تعب، بلا إرهاق، بلا مهارة، ببساطة، وبشكل طبيعيّ، فوراً وبطريقة مشرّفة؛ هذه الوسيلة هي الزواج... وتوصلتُ أيضاً إلى هذا: لا حاجة إلى أنْ يكون المرء متفوّقاً في الجمال، ولا مدهشاً في الإيمان كي يحقّق زواجاً غنيّاً؛ يجب أنْ يريد ذلك فقط، أنْ يريده ببرود وبكلّ قواه، أنْ يراهن بكلّ حظوظه على تلك الورقة، وبكلمة واحدة تحقيق النجاح في مهنة الزواج. وتوصّلت أخيراً إلى أنّه في ممارسة هذه اللعبة ليس هناك صعوبة أكبر في تحقيق زواج استثنائيّ أو عاديّ، أنْ يتزوّج المرء مائتي ألف فرنك مهراً أو مليوناً ومائتي ألف: هذا يتوقّف على رباطة الجأش والحظّ؛ فالرّهان هو ذاته. في وقت تتوّصل فيه شخصيّات مرموقة إلى تحقيق زواج بإيراد يقدّر بثمانمائة ألف ليرة، لا تعود هناك حاجة إلى الحساب. هذا ما أردت قوله لك، وأنا متأكّد أنك فهمتِني...

وأضاف هنري موبران، وهو يمسك بيد أمّه التي لاحت في ذهول الدهشة، والإعجاب، والاحترام تقريباً:

– لا ترهقي نفسك... سوف أتزوّج فعلاً... وربّما أفضل ممّا تتصوّرين...

وما إنْ خرجت أمّه حتّى عاد هنري إلى الإمساك بريشته وتكملة المقال الذي بدأ بكتابته لصالح **المجلة الاقتصادية**، فكتب: «... مسار الإنسانية لولبيّ وليس دائرياً...»

8

مثل الكثير من شبّان الوقت الحاضر، لم يكن لهنري موبران سنّ تعكس عمره، بل كان له سنّ زمانه. فبرودة الشباب، هذه العلامة الكبرى في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كانت تسِمُ شخصيته كلّها، كان يبدو جاداً ويوحي بالجمود. وتلوح لديه تلك العناصر المتناقضة مع المزاج الفرنسي، التي تشكل في تاريخنا تلك الطوائف الخالية من الحميّة والأحزاب المفتقرة إلى الشبيبة، مذهب الجانسنيّة[22] بالأمس، والعقائدية اليوم. وكان هنري موبران شابّاً عقائدياً.

كان من ذلك الجيل من الأبناء الذين لا يدهشهم شيء، ولا يسليهم شيء، ويذهبون بلا حماسة للفرجة التي يؤخذون إليها، ويعودون منها بلا انبهار. ففي مقتبل العمر كان وديعاً ومتعقّلاً. وفي الثانوية، لم يحدث له في الصفّ أنْ يحلم، ورأسه بين يديه، ومرفقاه على قاموس، وعيناه تجوبان المستقبل. لم تخالجه إغواءات المجهول بتاتاً ولا الرؤى الأولى للحياة التي تملأ مخيّلات السادسة عشرة من العمر بالاضطراب وبالملذّات، ما بين جدران الباحة الأربعة ذات النوافذ المشبَّكة التي ترتدّ عليها الكُرات، وتخترقها الأفكار. كان يوجد في صفّه اثنان أو ثلاثة من أبناء مشاهير السياسة: فوثّق علاقته بهم. وخلال دروس البلاغة كان يفكر في الحلقة التي سيقبل فيها.

ظلّ هنري وديعاً لدى خروجه من الثانوية، وأخفى أعوامه العشرين. لم تتميّز حياة الشباب لديه بأيّ صخب. ولم يكن من الممكن التقاؤه في أماكن اللعب، ولا في أماكن الشرب، ولا في أماكن المخاطرة، بل في في الصالونات الجادّة، متحلّياً بالانتباه والمبادرة لدى النساء اللواتي بلغن درجة من النضج. وما كان سيضرّ به في أماكن أخرى كان نافعاً له هنا. تمّ تقبّل فتوره على أنّه فتنة؛ وكان لرصانته ما يعادل الإغراء تقريباً. فهناك تقليعات لحظوة الرجل. لقد أدّى حكم لويس فيليب، مع مخزونه الهائل من الجامعيّين، إلى تعويد صالونات باريس السياسية والأدبية الكبيرة على أن تثمّن لدى رجل الصالونات ما لا أدري من سِحرٍ يقبع في ثوبه الأستاذيّ الذي يجرّه بين الناس، حتّى عندما يصير وزيراً. فبعد ذوق الخصال الفكرية الحية والمرحة والنزقة، حلّ لدى نساء البرجوازية الكبرى ذوق الكلمة التي تحيل إلى الدروس، والعلم الخارج من كراسي الأستاذية، وإلى نوع من الحفاوة المتدكترة. وحتّى مدّعي المعرفة لم يعد ليُخيف، وإنْ كان مسناً؛ أمّا الشابّ فلا بد أنْ ينال الإعجاب، ويُقال إنّ هنري موبران كان ينال الكثير من الإعجاب.

كان يمثّل عقلاً عملياً. ويبشر بعبادة المنفعة، والحقائق الرياضية، والديانات الوضعيّة والعلوم الصحيحة. وكان يوقّر الفنون، ويدعم القول إنّ أثاث بُول[23] بلغ تطوّراً غير معهود. وبالنظر إلى أنّ الاقتصاد السياسي، هذا العِلم المؤدّي إلى كلّ شيء، لاح له وهو يدخل المجتمع الرّاقي بمثابة موهبة ومهنة، فقد صار متخصّصاً في الاقتصاد بكلّ تصميم. وهكذا طبّق على هذه الدراسة الجافة ذكاء ضيّقاً لكنّه يتحلّى بالصبر، والمثابرة، وصار يرسل كلّ أسبوعين إلى مجلّات كبرى، مقالات طويلة، محشوّة بالأرقام، تتغاضى عنها النساء ويدّعي الرجال أنّهم قرأوها.

اكتسب هنري موبران لوناً من الليبرالية، وذلك بفضل اهتمام الاقتصاد السياسي بالطبقات الفقيرة، وانشغاله برفاهيتها، وحساباته الرياضيّة في رصد بؤسهم. ولا يعني ذلك أنّه اتّخذ موقع معارضة حاسمة جدّاً: فقد كانت آراؤه تستبق المبادئ الحكومية فقط، ضمن تلك القناعات العامّة التي تستبق المستقبل، وتهيّئ لفرصها، مخمّنةً ما يمكنه الحدوث. وكان يقْصر حربه ضدّ السلطة على لمحة أو إشارة مقنعة يرسل معناها وتفسيرها إلى الصالونات بواسطة أصدقائه. وفي الواقع لم يكن على علاقة عدوانية مع النظام الراهن بقدر ما كان في علاقة دلال. فارتباطات الصالونات، ولقاءات المجتمع الرّاقي كانت تجعله على مقربة من النفوذ الحكوميّ وعلى تخوم رعاية الإدارة. كان يجهّز أعمال موظّف كبير، مصحّحاً تجاربها الطباعية لأنّ الموظف كان مشغولاً جدّاً ويكاد لا يجد وقتاً إلّا لتوقيع كتبه. ولقد توصل إلى «علاقة ممتازة» مع محافظ المقاطعة، آملاً الوصول بفضله إلى المجلس العامّ، ومنه إلى مجلس النواب. كان يبرع في ذلك اللعب المزدوج وتلك التسويات، والتوافقات التي تجعله يمسك بكلّ شيء من دون أنْ يتورط في شيء. ولأنّه ليبراليّ واقتصاديّ فقد وجد الوسيلة لإبعاد ريبة الكاثوليكيين وضغينتهم ضدّ شخصه وضدّ معتقداته. ولقد تدبّر، بينهم، علاقات تسامح وتعاطف؛ فتوصّل إلى نيل إعجاب رجال الدين وتملّق الكنيسة من خلال ربطه التقدّم الماديّ بالتقدّم الروحيّ، والإيمان الاقتصاديّ بالإيمان الكاثوليكيّ، وكينيه[24] بالقديس أوغسطين، وباستيا[25] بالإنجيل، والإحصائيات بالربّ. ثمّ، وخارج هذا البرنامج، تمكّن بفضل تحالف الدين والاقتصاد السياسي، مع خلفية دينية، وممارسات ورعة خفية لكنّها منتظمة، إلى اكتساب التقدير المتعاطف للقسّ بلومبوا والارتباط سرّاً بالمجتمع المؤمن والممارس لواجباته الدينية. ولقد حصل هنري موبران على شقته في شارع تيبو من أجل إعداد سهرات شبابية، سهرات جادة حول مائدة تشبه المكتب، حيث يتناقش المدعوّون حول الحقّ الطبيعيّ، والمساعدة الاجتماعية، وقوى الانتاج، وتعددية الجنس البشري. كان هنري يحاول تحويل تلك السهرات إلى نوع من المحاضرات.

وكان يفرز الرجال من خلالها ويبحث عن عناصر الصالون الكبير الذي يريد إنشاءه في باريس، حال زواجه؛ كان يجلب ذوي السلطة والنفوذ في مجال علم الاقتصاد؛ وينادي بنوع من الرئاسة الفخريّة لأعضاء المعهد الأكاديميّ، مع متابعته لهم بمجاملاته والتماساته، وكان من شأنهم ذات يوم، حسب مخطّطاته، أنْ يجعلوه يجلس بجانبهم في قسم العلوم الأخلاقية والسياسية.

غير أنّ هنري أظهر كلّ مواهبه وكلّ مهاراته في استغلال الجمعية. لقد تعلّق منذ البداية بتلك الوسيلة الكبيرةِ لمضاعفة الأصفار، والتي تعني أنّ الإنسان لم يعد واحداً، بل وحدة مرتبطة بعدد. وهكذا صار له موطئ قدم في مختلف الجمعيّات. انخرط في محاضرة آغيسّو وتسلّل بين كلّ أولئك الشبّان المتدربين على الكلام، وصعود المنبر، وتعلم مهنة الخطابة، والتدرب على موقع رجال الدولة، من أجل المعارك البرلمانية القادمة. لم يهمل شيئاً: من النوادي، إلى اجتماعات قدامى الثانوية ومآدبهم، فمحاضرات المحامين، فجمعيّات التاريخ والجغرافيا والنجدة والعلوم والأعمال الخيرية. في كلّ مكان، وفي كلّ المراكز التي تهب الفرد إشعاعاً وتمكّنه من كسب النفوذ المشترك للمجموعة، أبرز نفسه، وحضر فيها، مراكماً المعارف، مقيماً علاقات، معتنياً بالصداقات، ومبدياً التعاطف الذي قد يوصله إلى نتيجة ما، ممهّداً لطموحاته، متنقّلاً من مكاتب شركة إلى مكاتب شركة أخرى، نحو اكتساب أهمية وشهرة خفية، مثل تلك الأسماء التي تلمّعها السياسة ذات يوم.

ومع ذلك، لم يكن ينقصه أيّ شيء من أجل ذلك الدور. كان مهذاراً وشديد الحركة، ويُصدر كلّ الضجيج المؤدي إلى النجاح في قرننا: كان ردئياً متألقاً.

نادراً ما كان يستعرض مقالاته بين الناس. لكنّه اعتاد وضع إحدى يديه في صدريته بطريقة طبيعية، على طريقة السيّد غيزو في لوحة البورتريه الذي رسمه دولاروش.

9

– عجباً! قالت رينيه، لاهثة بقوة مثل طفل كان يركض، وهي تدخل في الحادية عشرة إلى قاعة الأكل، ظننت أنّ الجميع نزلوا... أين أمّي يا ترى؟

– هي في باريس... من أجل التبضّع، أجاب السيّد موبران.

– آه! ودونوازال؟

– ذهب لرؤية رجل المنحدرات... يبدو أنّه استُبقيَ هناك لتناول الغداء. فلنتناول غداءنا.

– صباح الخير بابا! وعوض أنْ تجلس، اتجهت رينيه صوب والدها وألقت بذراعيها حول عنقه وشرعت تقبله.

– هيّا! هيّا! كفى، يا مجنونة، ظل السيّد موبران يقول وكان يضحك متخبطاً.

– اتركني أقبلك بطريقة القرص، نعم، هكذا...

وأمسكت بخديه.

– كم أنت بنية صغيرة، يا إلهي!

– انظرْ إليّ... أريد أنْ أعرف إنْ كنت تحبني قليلاً...

ونهضت رينيه، إثرَ نيل قُبلة، وابتعدت عن أبيها دون أن تتخلّى عن الإمساك برأسه بين يديها. وهكذا تبادلا النظر بعذوبة، وعمق، والعينان في العينين.

كان الباب الزجاجيّ لقاعة الأكل مفتوحاً، تاركاً المجال لدخول ضوء الخارج إلى القاعة مع روائح الحديقة وضجيجها. كان هناك شعاع يقفز على المائدة وينساب على أواني البورسلين، ويلمع في الكؤوس، بينما هواء خفيف ينتقل في أعطاف يوم مرح؛ وظلال أوراق ترتعش برخاوة فوق الأرضية. وكان يُسمع من غير وضوح حفيف أجنحة في الأشجار، وبهجة طيور بين الزهور في البعيد.

– لا أحد سوانا!... هذا رائع! قالت رينيه وهي تبسط منديلها. أوه! المائدة كبيرة جدّاً! أنا بعيدة جدّاً.

وتناولت أدوات أكلها كي تجلس قريبة من والدها:

– بما أنّ أبي لي وحدي اليوم، فأنا أريد التمتّع بأبي. وأدنتْ كرسيها من كرسيّه.

– عجباً! أنت تذكّرينني بذلك الوقت الذي كنت تريدين فيه دائماً تناول مأدبتك الصبيانية في جيبي... كان عمرك ثماني سنوات آنذاك...

شرعت رينيه تضحك:

– أنا تلقيت عقوبة بالأمس... تابع السيّد موبران بعد لحظة صمت، وهو يضع سكّينه وشوكته في صحنه.

– آه! قالت رينيه بكلّ بساطة رافعةً نحو السقف نظرة بريئة، ثمّ خافضةً نحو والدها عيني قطّة: صحيح، يا أبي المسكين! ولماذا؟ ماذا عساك فعلت؟

– أنصحك أنْ تسأليني عن السبب مرّة أخرى، مثلاً... فأنت تعلمين أكثر مني. وتسألينني يا لئيمة...

– أوه! إذا كنت ستوبّخني يا أبي فسوف أقوم... وأقبّلك! وكانت وهي تقول ذلك قد قامت نصف قيام.

– عودي إلى الجلوس يا رينيه، أرجوك، قال السيّد موبران بنبرة تحاول التظاهر بالصرامة. حضرتُكِ توافقينني الرأي، بالنسبة ليوم أمس، يا ابنتي العزيزة...

– أوه! يا أبي، هل ستخاطبني بالصيغة الرسمية في يوم جميل الطقس كهذا؟

– ولكنْ، أخيراً، قال السيّد موبران محاولاً المحافظة على وقاره في مواجهة الهيئة الصغيرة المتمردة لابنته حيث تختلط الملاطفة بالتحدّي، هلّا أوضحت لي... لأنك بالتأكيد فعلتِ ذلك عمداً...

قامت رينيه وهي تغمز بمكرٍ، بإيماءات موافقة من رأسها.

– أعتقد أنّني أكلمك بجدّ، يا رينيه...

– لكنّني في منتهى الجدّ، أؤكّد لك ذلك... بما أنّني قلت لك إنّني فعلت ذلك عمداً بأنْ كنتُ كما أنا...

– ولماذا؟ هلّا أخبرتني بالسبب؟

– لماذا؟ أرغب في ذلك، لكنْ بشرط ألّا يجعلك ذلك مسرفة في الزّهو... لأنّ... لأنّ...

– لأنّ؟

– لأنّي أحبّك أكثر بكثير من ذلك السيّد الذي كان حاضراً بالأمس، أكثر بكثير، حقّاً!

– إذن لا حاجة إلى استقدام الناس... إذا كان ذلك الشابّ لا يعجبك... نحن لم نجبرك... أنت التي تركت الأشياء تتقدّم. وبالعكس، نحن، أمّك وأنا، كنّا نظنّ أنّ هذا الخطيب...

– عفواً يا أبي... لو أنّني عمدت إلى رفض السيّد روفرشون من أوّل رؤية، مباشرة، لحكمتما عليّ بأني طائشة، ومجنونة، وبلا عقل... من هنا أستطيع سماع صوت أمّي... وبدل ذلك، عمّ أُلام؟ لقد رأيت السيّد روفرشون، وعدت إلى رؤيته، واستغرقت الوقت الكافي لتقويمه، ولقد اقتنعت تماماً بنفور ربّما يكون في منتهى الغباء، لكنّه موجود...

– لكن لمَ لم تخبريني بذلك؟ كنّا وجدنا أكثر من طريقة للقطيعة...

– أنت ناكر جميل، يا أبي. لقد أنقذتك من ذلك الهمّ. انسحب الشابّ، ولا دخل لكما بالأمر... كلّ شيء تسبّبت فيه أنا... ومع ذلك يوجد إنكار لتفانيّ! مرّة أخرى...

– اسمعيني، يا ابنتي العزيزة. إنْ كنت أكلمك بهذه الطريقة، فلأنّ الأمر يتعلق بزواجك... زواجك! لقد أمضيت وقتاً طويلاً للاقتناع بهذه الفكرة، بالانفصال عنك... الآباء أنانيّون، كما ترين: يتمنون ألا تطرن أبداً... يجدون صعوبة كبيرة في تصور ذلك، سعادتهم من غير ابتساماتكنّ، بيتهم من دون حفيف فساتينكنّ! لكن لا بد من التعقّل. يبدو لي الآن أنّني قابل لأنْ أحب صهري... ذلك أنّني هرمت، يا صغيرتي العزيزة رينيه، وأمسك السيّد موبران بيديْ ابنته بين يديه: والدك في الثامنة

والستّين، يا ابنتي... لم يبق لي إلّا أنْ أراك سعيدة... مستقبلك، لو كنت تعلمين! هو تفكيري وهمّي... أمّك تحبّك كثيراً أيضاً، أعرف ذلك، لكنْ يوجد بين طبعها وطبعك... وإذا حدث ورحلتُ... يا إلهي! يجب رؤية الأشياء، وفي عمري... هل ترين، فكرة الرحيل من دون أنْ أراك برفقة زوج، وأطفال... هي محبّة يمكنها أنْ تعوّض لك، داخل قلبك، محبّة والدك العجوز الذي لن يكون هنا...

ولم يتمكّن السيّد موبران من إنهاء كلامه: فقد ضمّته ابنته مختنقة بالنحيب، ودموعها تنهمر على صدريته.

– آه! هذا مؤذٍ، مؤذ... قالت مختنقة، لمَ تتحدّث عن ذلك؟... أبداً! أبداً! وندّت منها حركة تبدّد فكرة قاتمة.

أجلسها السيّد موبران على ركبتيه. ضمّها بين ذراعيه، قبلها على جبينها، وقال لها: «لا تعودي إلى البكاء».

عادت إلى القول: «أبداً! هذا مؤذٍ!»، كما لو كانت تصارع نهاية كابوس. ثمّ قالت لأبيها وهي تمسح عينيها بظاهر يدها:

– اتركني أذهب للبكاء وحدي. وهربتْ.

– لا شكّ أنّ دردوييه هذا مجنون، قال دونزوازال وهو يدخل، تصوّرْ أنّني لم أتوصل إلى التخلص منه أبداً... آه! هل أنت وحدك؟

– نعم... زوجتي في باريس... ورينيه صعدت للتو.

– لكنْ ما هذه الهيئة يا سيّد موبران!

– أنا؟... كلّا. مجرّد مشاحنة عائلية صغيرة مع رينيه، حصلت لي معها منذ وهلة... بخصوص ذلك الزواج، ذلك السيّد روفرشون... ارتكبتُ حماقة بالقول إنّني متلهّف لرؤية أحفادي... وإنّ الآباء الذين في عمري ليسوا خالدين... وعند هذا الحدّ.. ابنتي المسكينة حساسة جدّاً، أنت

تعرف... وهي الآن في غرفتها تبكي. لا تذهب إليها... فهي تحتاج إلى وقت لاستعادة رباطة جأشها... وفي انتظار ذلك سأذهب لرؤية عمّالي.

ظلّ دونوازال بمفرده فأشعل سيجارة، وأخذ كتاباً وشرع يقرأ على أحد مقاعد الحديقة. مرّت ساعتان وهو هناك عندما رأى رينيه قادمة. كانت تعتمر قبعة وعلى وجهها المنتعش يلمع فرح ما، نوع من الإثارة الرائقة والناعمة.

– عجباً! أنت خرجت؟ ومن أين جئت؟

– من أين جئت؟ قالت رينيه وهي تفكّ أشرطة قبّعتها، حسناً سأخبرك بذلك، أنت، لأنك صديقي. ثمّ حسرت عن رأسها ورفعته بتلك الحركة الجميلة التي تمتلكها النساء في هزّ شعرهن: جئت من الكنيسة، وإذا كنت تريد أنْ تعرف ماذا كنت أفعل هناك... فقد طلبت من الرب أنْ أموت قبل أبي... كنت أمام تمثال كبير للعذراء... لا أعتقد أنّك ستضحك... ستؤلمني إنْ ضحكت... ربّما كان ذلك بفعل الشمس، أو من طول التحديق فيها، لست أدري... ولقد خيّل لي أنّها كانت تحرّك لي رأسها بالموافقة –وحرّكت رينيه رأسها بإشارة موافقة– أنا سعيدة جدّاً على أية حال... وأشعر بألم حقيقي في ركبتيّ أيضاً، على سبيل المثال... ذلك أنّني صليت طوال الوقت على ركبتيّ، من دون كرسي، من دون أيّ شيء، على البلاط... آه! كنت أصلي بصدق... لا أحد يمكنه منعي من ذلك!

بعد مرور بضعة أيّام، كان السيّد والسيّدة موبران، مع هنري ورينيه ودونوازال، مجتمعين بعد العشاء في الحديقة الصغيرة التي تمتد خلف البيت، وتضيق ما بين جدران مباني معمل التكرير. كانت الشجرة الكبيرة في الحديقة من فصيلة الصنوبر. وقد تُركتْ شجيرات ورد تتسلق أغصانها السفلى فصارت أذرعتها الخضراء تحرك وروداً. وتظهر تحت الشجرة أرجوحة، وخلفها أجمات ليلك وخمائل؛ وأمامها، دائرة أرض معشبة، ومقعد وحوض صغير جدّاً مثابتُه من الحجارة البيضاء، ولم تعد نافورته تعمل: كان يغصّ بنباتات مائية، وخلفه، في بقية مياه، تسبح عظايات سمندل سوداء داكنة.

– ألم تعودي تفكرين في التمثيل الكوميدي، يا رينيه؟ سأل هنري أخته، هل هو مشروع مهجور تماماً؟

– مهجور، لا... لكن ماذا تريد؟ ليست غلطتي أنا، مستعدة للتمثيل ولو على رأسي. لكنّني لا أجد أحداً... إلّا إذا اكتفيت بتمثيل مونولوغ... دونوازال رفض ذلك... وأنت، الرجل الصارم، قالت لأخيها، لا أحتاج إلى طلب ذلك منك...

– أنا من شأني أنْ أمثل جيّداً... قال هنري.

– أنت، يا هنري؟ قالت السيّدة موبران مندهشة.

– يضاف إلى ذلك أنّه لا يوجد نقص في عدد الرجال، تابعت رينيه، يوجد دائماً رجال للتمثيل. لكن المشكلة في الجانب النسائيّ... آه! هوذا، الجانب النسائيّ... لا أرى واحدة لتمثّل معي...

– أوه! قال هنري، إذا بحثنا بين كلّ معارفنا، أُراهن أنّنا...

– لنرَ... ابنة السيّد دورون... في الواقع، نعم! ابنة السيّد دورون، أليس كذلك؟ هم يسكنون في سان دني... وسوف يكون ذلك مناسباً للتمارين... هي ساذجة قليلاً، لكنْ تبدو لي بالنسبة لدور السيّدة دو شافيني...

– آه! قال دونوازال، ما زلت تريدين تمثيل مسرحيّة «نزوة»[26]؟

– اعتراض أخلاقيّ؟... بما أنّي سأمثّل مع أخي...

– والعرض سيكون لصالح الفقراء، كما آمل؟ تابع دونوازال.

– ولمَ ذلك؟

– لتحفيز الجمهور على الإحسان.

– سوف نرى، يا سيّدي، سوف نرى... هيّا إذن، إيمّا دورون، ما قولك يا أمّي، ماذا ترين؟

– هؤلاء الناس ليسوا من مجتمعنا، يا ابنتي، أجابت السيّدة موبران بحيوية، رؤيتهم من بعد جيّدة جدّاً... لكنّنا نعرف من أين يخرجون... من شارع سانت هونوريه. كانت السيّدة دورون تذهب فعلاً لاستقبال السيّدات عند أبواب عرباتهنّ... وفي الأثناء يمرّ السيّد دورون عبر باب خلفيّ ويرافق الخدم لاحتساء الخمر عند بائع النبيذ المجاور... تلك هي ثروة آل دورون!

مهما كانت السيّدة موبران امرأة رائعة في الواقع، فقد كان يندر أنْ توفّر أيّ فرصة كي تنتقص بتلك الطريقة، ومع تعابير مفعمة بالاحتقار والتقزز المتعجرفين، كلّ الأشخاص الذين تعرفهم وثروتهم وأصولهم وموقعهم. لم يكن ذلك عن شراسة، أو عن لذة في النميمة والثلب؛ كما لم يكن ذلك أيضاً عن حسد: كانت تنكر جدارة الناس ونبلهم، وتنكر حتّى الإيرادات التي تنسب إليهم، وذلك ببساطة عن غرور بورجوازي غير عاديّ، وبقناعة أنْ لا وجود، خارج نسبها، لأي دم نقيّ، وخارج عائلتها لا وجود لعائلة شريفة، وخارج أقاربها لا يوجد إلّا الأنذال أو من شابههم، ولا شيء في صلابة ما تمتلكه هي، ولا شيء خارج ما عندها متأتّ عن جدارة.

– وليكن في علمكم أنّ لزوجتي حكايات مماثلة عن كلّ الناس الذين نعرفهم! قال السيّد موبران.

– ما رأيك يا أبي، لو أخذنا ريمولي الصغيرة الجميلة؟

– اسألي أمك. تكلّمي يا سيّدة موبران.

– الصغيرة ريمولي؟ لكنّك، يا عزيزي، تعرف جيّداً؟

– لا أعرف شيئاً.

– وكيف؟ ألا تعرف حكاية والدها؟ جصّاص إيطالي شقيّ... حلّ بباريس معدماً، واشترى، بمال لا أدري من أين مأتاه، كوخاً وأرضاً صغيرة في مونبارناس، ووجد هناك، في أرضه، مونفوكون حقيقيّة! باع ما يعادل ثمانمائة ألف فرنك من السّماد العضويّ[27] ثمّ ضارب في البورصة... أف!

– هكذا إذن! قال هنري، يبدو لي أنك تنقّبين بعيداً جدّاً... لمَ لا نطلب الآنسة بورجو؟ وهم حالياً في سانوَا...

– الآنسة بورجو؟ تساءلت السيّدة موبران.

– نؤيمي؟ تابعت رينيه بحيوية، أعتقد أنّني أوافق عليها... لكنّني وجدتها في منتهى البرودة معي هذا الشتاء... لديها شيء ما... لست أدري...

– لديها... ما لديها أنّها ستحصل على إيراد بثلاثة آلاف ليرة، قاطعها دونوازال، والأمهات يراقبن هذا النوع من الفتيات... لا يتسامحن معهنّ كثيراً في توثيق علاقة مع أخت لها أخ... ولا شك أنّها تلقت هذا الدرس، هذا كلّ ما في الأمر.

– يضاف إلى ذلك أنّ هؤلاء الناس يضعون أنفسهم فوق الآخرين! كأنما نزلوا من...

وقطعت السيّدة موبران كلامها لتسأل هنري:

– رغم ذلك، كانوا يعاملونك معاملة جيّدة، أليس كذلك، يا هنري؟ السيّدة بورجو لطيفة بالنسبة لك؟

– حتّى إنّها اشتكت لي عدة مرّات لأنكم لا تحضرون سهراتها... ولأنك لا ترافقين رينيه كثيراً لرؤية ابنتها.

– حقّاً؟ قالت رينيه مبتهجة.

– يا سيّد موبران، قالت السيّدة موبران، وأنت، ماذا تقول بخصوص ما يقوله هنري؟ الآنسة بورجو؟...

– أيّ اعتراض تريدينه مني؟

– إذن، قالت السيّدة موبران، نتبنّى فكرةِ هنري. نذهب يوم السبت. هل ترغب في ذلك، موبران؟... وأنت ستأتي معنا، يا هنري.

بعد بضع ساعات نام الجميع. كان هنري موبران وحيداً واقفاً في غرفته يذرعها جيئة وذهاباً، مدخّناً سيجاراً مطفأ. ويبدو كأنّه يبتسم بين الفينة والأخرى لبعض ما يخالجه من أفكار.

11

كثيراً ما كانت رينيه تذهب، خلال النهار، لممارسة الرسم في مرسم صغير، مبنيّ بحطام دفيئة نبات، يختفي في آخر الحديقة، متقشف البناء ويكاد يختلط بالاخضرار، وقد أحيطت جدرانه بلحاء اللبلاب، فصار يجمع بين الخربة والعشّ.

في ذلك اليوم، كان يوجد في المرسم الصغير، على مائدة مغطاة بسجادة جزائرية، قُمع ياباني ذو رسوم زرقاء، ليمونة، وروزنامة حمراء قديمة تحمل شعار فرنسا، وكذلك غرضان أو ثلاثة بألوان فاقعة موضوعة بطريقة أُرِيدَ لها أن تكون طبيعية ما أمكن كي تشكل لوحة، تحت ضوء النهار الذي يتسلّل من السقف الزجاجيّ. وأمام المائدة كانت رينيه ترسم ذلك كلّه، على قماشة مهيّأة للرّسم، بواسطة ريشات دقيقة مثل إبر. كانت تنورة فستانها من قماش أبيض مضلّع تفيض واسعة التموّج عند كلّ جهة من جهات المنضدة الخفيضة التي كانت تجلس عليها. وكانت قد قطفت لدى مرورها بالحديقة، وردة بيضاء ورشقتها في شعرها المنتفخ، فوق أذنها. كانت قدمها تخترق تنورتها، في حذاء مكشوف، يُظهر قليلاً من بياض جوربها، عندما تستند إلى عارضة الحامل.

وبالقرب منها كان دونوازال يراقبها وهي تعمل، محاولاً أنْ يرسم رسماً سيئاً لمظهرها الجانبي على ألبوم التقطه من إحدى الزوايا.

– آه! أنت تتّخذين وضع «الموديل» بطريقة جميلة، قال وهو يبري قلمه ثانية. أفضل التقاط صدمة عربة على التقاط شبهك... أنت لا تتوقفين... إذا واصلتِ التحرك هكذا دائماً...

– آه! يا دونوازال، لا تعبث بالبورتريه... آمل أنك ستجاملني وتحسّنه قليلاً...

– ليس أكثر ممّا تفعل الشمس. لديّ وعيُ مصوّر «الدّاغريوتيب»[28].

– هيّا أرِني، قالت حانية نصفها الأعلى نحو دونوازال، وشابكة مسند يدها ولوحة الألوان على صدرها.

– أوه! لست جميلة... وعادت إلى الرسم: صحيح، أنا أشبه... أشبه ذلك؟

– قليلاً، يا رينيه، انتبهي، بصراحة، كيف ترين نفسك؟ جميلة؟

– كلّا.

– مليحة؟

– لا... لا...

– آه! لقد فكّرتِ هذه المرة...

– نعم لكنّي قلت ذلك مرّتين.

– حسناً. إذا كنت لا تعتبرين نفسك جميلة ولا مليحة؛ هل تعتقدين أنك...

– بشعة؟ لا. صحيح. يصعب توضيح ذلك... في بعض الأيّام، عندما أنظر في المرآة، أجد نفسي... كيف أقول لك ذلك؟ في النهاية أعجب بنفسي... ليس بسبب وجهي، أدرك ذلك جيّداً... بل بسبب هيئة أكون عليها في تلك الأيّام، هو شيء ما يكون في داخلي وأشعر به يمرّ عبر قسماتي... لست أدرك كنهه، هل هو سعادة، لذّة، حيوية، انفعال... أنت وما تريد! تنتابني لحظات على تلك الشاكلة، كما يبدو لي، حيث أخدع محيطي بطريقة جميلة... وهذا لا يمنع أنّني أتمنى دائماً لو كنت جميلة...

– عجباً، عجباً، عجباً...

– هذا أمر ممتع للذّات، كما يبدو لي... اسمعْ مثلاً! تمنيت لو كنت طويلة القامة... بشعر داكن السواد... من الغباء أنْ أكون شقراء تقريباً... مثل جلد أبيض... لو كانت لي بشرة، يا إلهي! مثل السيّدة ستافلو... بشرة برتقالية قليلاً... يعجبني ذلك، هذه مسألة ذوق... أضفْ إلى ذلك أنّني كنت سأتمتع بالنظر في مرآتي... وأترك علامات رشيقة وجميلة على فراشي... وذلك أشبه ما يكون بسَيري حافية القدمين في الصباح، على سجّادتي، لدى قيامي من النوم: أتمنّى لو كانت لي قدَما تمثال كنتُ قد رأيته... فكرة!

– ما هذا، ألا ترغبين في أن تكوني جميلة من أجل الآخرين؟

– نعم ولا. ليس من أجل كلّ الآخرين.. من أجل الذين أحبّهم فقط. كان ينبغي أن نكون بشعين بالنسبة للامبالين، الناس الذين لا نحبّهم: ألا ترى ذلك؟ لن يحصلوا إلّا على ما يستحقونه...

عاد دونوازيل إلى التخطيط بالقلم. «كم هو طريف مثلك الأعلى إذْ أنك تحلمين بأن تكوني سمراء!»، قال بعد هنيهة صمت.

– وبماذا كنت ستحلم أنت؟

– لو كنت امرأة؟ سأحلم بأنْ أكون امرأة قصيرة لا سمراء ولا شقراء...

– كستنائية إذن؟

– وبدينة... أوه! سمينة مثل سمانى...

– سمينة؟ آه! أنا أتنفس... ذلك أنّني شعرت للحظة أنك ستتقدّم لي بوحاً... كان لا بدّ من انعكاس الضوء على شعرك حتّى أتذكّر سنيّك الأربعين.

– أنت لا تبالغين يا رينيه، ذلك هو عمري... لكنْ، هل تعرفين ما هو عمرك عندي؟

– كلا؟

– اثنتا عشرة سنة... وسوف تظلين كذلك دائماً.

– شكراً، يا صديقي، هذا ما أريده، قالت رينيه، وهكذا يمكنني التلفظ معك بكلّ الحماقات التي تعبر رأسي... يا دونوازال! تابعتْ بعد صمت قصير، هل سبق لك أنْ أحببت؟ وتراجعت قليلاً عن لوحتها، ثمّ نظرت إليها جانبياً، ورأسها مائل قليلاً على كتفها، لرؤية تأثير فارق اللون الذي أضافته.

– حسناً! أنت تبدئين بداية جيّدة! أجاب دونوازال، هوذا سؤال...

– ما به سؤالي؟ أسألك هذا السؤال كما قد أسألك أيّ سؤال آخر. يبدو لي أنّه لا يوجد شيء... إذن لا يمكن السؤال عن ذلك أمام الناس؟ انتبه يا دونوازال: أنت تعطيني اثنتي عشرة سنة، جيّد جدّاً، وأنا أتقبلها، لكنّ لي عشرين سنة أيضاً. صحيح أنّني شابّة، لكنْ إنْ كنتَ تعتقد أنّ

الشبّان الذين في سنّي لم يقرؤوا أبداً روايات ولا رددوا أغانيَ عاطفية... هذه استياء، دعوة إلى حالة البراءة... على كلّ حال، كما تريد... إذا كنت تجدني صغيرة فأنا أتراجع عن سؤالي. أنا، كنت أظنّ أنّ حوارنا نحن الإثنين مثل حوار بين رجلين...

– حسناً، بما أنك تصرّين على معرفة ذلك، نعم يا آنستي، لقد عشقت.

– آه!... وما التأثير الذي تركته فيك حالة العشق؟

– صديقتي العزيزة، أنت لا تحتاجين إلّا إلى إعادة قراءة الروايات التي سبق لك قراءتها: سوف تجدين ذلك التأثير في كلّ الصفحات...

– نعم! هذا بالتحديد ما يحيّرني كثيراً: كلّ الكتب التي نقرأها ملأى بالحب، ولا يوجد سواه! لكنّنا، في الحياة، لا نرى منه شيئاً... أنا، على الأقلّ، لا أرى ذلك؛ بالعكس، أرى كلّ الناس يستغنون عنه، وبالتوفيق... في بعض الأيّام أتساءل عمّا إذا لم يكن موجوداً إلّا للكتب، عما إذا لم يكن مجرد خيال مؤلف، حقاً.

شرع دونوازال يضحك:

– أخبريني يا رينيه، بما أنّ حديثنا حديث رجال كما قلت، ونحن نتحدّث حديث القلب للقلب، بصراحة، كصديقين قديمين، هل تسمحين لي أن أسألك بدوري عما إذا سبق لك أنْ شعرت، ليس بالحب، لكنْ... بإحساس ما نحو شخص؟

– كلّا، ابداً، أجابت رينيه بعد لحظة تأمّل. لكنّني لست نموذجاً. أعتقد أنّ هذه الأشياء تحدث بالخصوص للناس الذين يعانون من فراغ في القلب، ومن شغور، والذين ليسوا ممتلئين، مملوكين، وفي حماية أنواع من التعلّق تستولي عليك وتحافظ عليك كلّها، مثل التعلق الذي نكنّه للأب على سبيل المثال...

لم يجب دونوازال.

– ألا تظنّ أنّ ذلك يضمن الوقاية؟ قالت له رينيه، حسناً! أؤكّد لك، أنّني حاولت التذكّر بلا طائل... أوه! أراجع ضميري بالكامل... وبصدق، أقسم لك على ذلك... لنرَ... في طفولتي، لا أجد شيئاً... كلّا، لا شيء تماماً... مع أنّني كنت أعرف صديقات صغيرات لم يكنّ أكبر مني؛ كنّ

يقبلن، عندما لا يراهنّ أحد، باطن قبعات الفتيان الذين كانوا يلعبون معنا؛ كما كنّ يجمعن من الصحون التي أكلوا فيها نوى الدراق ويرصصنه في علبة، وينمن مع العلبة، نعم، أتذكّر ذلك. مثلاً، نؤيمي، الآنسة بورجو كانت متميّزة بذلك... حتّى أنا، كنت ألعب بمنتهى البساطة.

– وفيما بعد، عندما لم تعودي طفلة؟

– فيما بعد... بقيت دائماً طفلة بالنسبة لذلك... كلّا، لا شيء، ما من انطباع، لا أتذكّر... أي أنّني... سأكون صريحة تماماً معك... لقد شعرت بقليل، بقليل من تلك البداية التي تكلّمتَ عنها، بقليل من ذلك الإحساس الذي تعرفتُ عليه لاحقاً في الروايات... وهل تعرف تجاه مَنْ؟

– لا.

– تُجاهكَ أنتَ. أوه! لم يدم ذلك سوى لحظة... أحببتك بسرعة وبطريقة مختلفة... وأفضل... مع التقدير والامتنان. أحببتك لأنك خلّصتني من عيوب الطفلة المدللة، وفتحت ذهني، وربيتني على الأشياء الجميلة، الأشياء النبيلة، الأشياء الكريمة، كلّ ذلك من خلال طرائف، لكنّها طرائف كانت تأتي على كلّ ما هو بشع، وبائس، ومسطّح، وكل ما هو حقير وجبان! علّمتني اللعب بالكرة والضجر من صحبة الأغبياء. الكثير من تفكيري، والكثير ممّا أنا عليه، والقليل من القليل الذي يشكّل قيمتي، أدين لك به؛ ولقد أردتُ أنْ أعيده لك بصداقة حميمة ومتينة؛ بإعطائك ودّياً، كما يُعطى صديق، بعض الحبّ الذي أكنّه لوالدي...

واتّخذ صوت رينيه مع الكلمات الأخيرة رنّة عالية، ونبرة رصينة.

– ما هذا؟ قال السيّد موبران، وهو يدخل للتوّ، ملقياً نظرة على رسمة دونوازال، هذي ابنتي! هذا تشويه شنيع... وتناول السيّد موبران الألبوم وشرع يمزّق الورقة.

– آه! يا بابا! هتفت رينيه، كنت أرغب في الاحتفاظ بها للذكرى!

12

كانت عربة خفيفة، مقرونة إلى حصان، تنقل عائلة موبران على طريق سانوَا. وكانت رينيه قد تناولت العنان والسوط من يدَي أخيها الذي كان يدخّن بجانبها.

دبّت بهجة الرحلة والهواء والحركة في السيّد موبران فشرع يمزح خلال لقاءات الطريق ويحيّي المارّة الذين تعترضهم العربة بمرح. وكانت السيّدة موبران صامتة ومستغرقة. غارقة في تأمّلاتها، تهيّئ دماثتها للقصر، وكأنّها تتمرّن عليها.

– لكنْ، يا أمّي، أنت لا تقولين شيئاً... هل هناك ما يزعجك؟

– كلّا، لا بأس، لا بأس، أجابت السيّدة موبران، لكنّي لا أخفي عنك أنّ هذه الزيارة تقلقني قليلاً... ولولا هنري... أجد شيئاً ما، في منتهى البرود لدى السيّدة بورجو... يوجد بعض التعالي في ذلك البيت... أوه! يا إلهي! لا يكمن ذلك في كونهم سيسعون إلى إبهاري بـ... ملايينهم! أعرف جيّداً من أين أخذوها: إنّها متأتية من طريقة إنتاجية اشتروها من عامل بائس مقابل مبلغ زهيد، بعض الفلوس...

– هيّا، يا سيّدة موبران، قال السيّد موبران، لا شكّ أنهم اشتروا أكثر من واحدة...

– حسناً، رغم كلّ ذلك، لا أشعر بالراحة في بيت أولئك الناس.

– أنت ساذجة حقا إذا انشغلت...

– لكنْ بوسعنا أنْ نخرسهم إذا شئنا! قالت الآنسة موبران وهي تسوط الحصان الذي غطى الكلمة بصدى ركضه.

كان لانزعاج السيّدة موبران أسبابه. وكان ضيقها مبرراً. فكلّ شيء، في البيت الذي ستزوره، مرتّب من أجل ترهيب الناس، وانتقاصهم، وسحقهم، واختراقهم، وتركهم ينوؤون تحت شعورهم بالدونية. فالمال معروض فيه بطريقة مدروسة. والثروة لها إخراج بارع. والثراء يهدف إلى إهانة الآخرين بكلّ وسائل الترهيب، بالأشكال العنيفة أو الناعمة للبذخ، بارتفاع السقف في كلّ مكان، بالمظهر المبالغ في وقاحته لدى الخدم، بالبوّاب ذي سلسلة الفضّة متجمّداً في ردهة الانتظار،

بالأواني المسطحة لتناول الطعام، بمجموعة من العادات الأميرية التي تجعل الأمّ والابنة بثيابها المكشوفة، تجلسان إلى المائدة، ولو وجهاً لوجه، كما لو كان ذلك في بلاط ألماني صغير.

وكان السادة يتجاوبون مع هذا الإيقاع في منزلهم ويدعمونه. وكانت روح مسكنهم، وحياتهم، وطريقة وجودهم متجسّدة فيهم. الرجل بكلّ ما استعاره من الطبقة الانجليزية العليا، وأساليبها، وزينتها، والسّالفين المجعّدَين، ومظهر تميّزها؛ والمرأة، بسلوك رفيع، وأناقة فائقة، وكل أنواع الجفاف لدى البرجوازية الكبيرة، ممّا يجعلها تمثل بجدارةٍ غطرسة المليون فرنك. كان تهذيبهم المستخفّ، وحفاوتهم المتعالية، يبدوان وكأنهما ينزلان نزولاً على الأشخاص. وحتّى من أذواقهم نفسها كان يفوح نوع من الوقاحة. ولا يمتلك السيّد بورجو لوحات ولا قطعاً فنية بتاتاً: كانت مجموعته الشخصية تتكون من مجموعة أحجار كريمة، كان يعرض فيها حجر ياقوت أحمر بقيمة خمسة وعشرين ألف فرنك، وهو واحد من أجمال أحجار الياقوت في أوروبا.

مرّ الناس على كلّ ذلك التباهي بالمال، وشكّل صالون آل بورجو، بعد انتشار صيته وتميّزه بلون معارِض معلن بقوّة، أحد أكبر الصالونات الثلاثة أو الأربعة في باريس. ولقد سكنته السيّدة بورجو، إثر قضاء شتاءين أو ثلاثة في مدينة نيس، بمبرّر صحيّ، واستغلّت ذلك لتحويل بيتها إلى دار ضيافة في طريق إيطاليا، مفتوحة لكلّ العابرين من الكبار والأغنياء والمشهورين وحاملي الألقاب. خلال أيّام الحفلات الموسيقية الكبرى التي تعمل فيها السيّدة بورجو على إثارة الإعجاب بصوتها الجميل وموهبتها الموسيقية الكبيرة، تلاقي مشاهير أوروبا مع ذائعي الصيت في باريس؛ ويحتكّ عالم العلوم وعالم الفلسفة العليا وعالم الجماليات المحضة، بعالم السياسة الذي تمثله كوكبة متماسكة جدّاً من حركة الأورليانيّين[29]، وعصابة من الليبراليين غير الملتزمين يظهر هنري موبران بمثابرة دقيقة في صفوفهم منذ عام. وإضافة إلى كلّ ذلك يبرز بعض المدافعين عن الشرعية الملكية، وقد جلبهم الزوج إلى صالون زوجته: ذلك أنّ السيّد بورجو كان من المدافعين عن الشرعية الملكية.

مع عودة الملكية، كان عضواً في جمعية «الكاربونيريّا»[30] السريّة الإيطالية. ولأنّه كان ابناً لبائع جوخ، فقد أسخطه أصله واسم بورجو، لدى خوضه مجال الحياة، في مواجهة النبلاء، والقصور، وأسرة البوربون الملكية. فشارك في التآمر. واعتُرِفَ به، مع السيّد موبران، عضواً في الجمعيّة. وشوهد في كلّ الاضطرابات. كان يستشهد آنذاك بكلّ من بيرفيل[31] وسان جوست ودوبان

الكبير[32]. وبعد 1830 صار متّزناً أكثر واكتفى بمقاطعة الملكية التي سرقتْ منه الجمهورية. فكان يقرأ صحيفة الناسيونال، ويرثي لحال الشعوب، ويكره مجالس النواب، ويهاجم السيّد غيزو[33]، ويندفع في قضية بريتشارد[34].

فجأة حلّ العام 1848؛ واستيقظ المالك مرتعباً وانخرط مباشرة في الجمعية السريّة لإعادة الملكية، وفي ليبرالية لويس فيليب. لكنّ هبوط الإيراد، وكساد أسعار العقارات، والاشتراكية، والمشاريع الضريبية، وتهديدات جدول دائني الدولة، وثورة أيّام شهر يونيو، وكلّ ما تخبّئه ثورة رعب لقطعة نقدية من فئة المائة فلس، أدّت كلّها إلى بلبلة السيّد بورجو وإلى تنويره في الوقت ذاته. كانت أفكاره تتغيّر دفعة واحدة، ووعيه السياسيّ يلفّ حول نفسه في دورة كاملة. وكان يهرع نحو بنود العقيدة، ثمّ يعود إلى الكنيسة كما لو كان يعود إلى ثكنة جندرمة، نحو الحقّ الإلهيّ كما نحو مطلق السلطة والضمانة الربّانيّة لقيَمها.

لسوء الحظّ، خلال هذا التحوّل المباغت والصادق للسيّد بورجو، كانت دراسته وشبابه وماضيه، وكلّ حياته تضطرب وتتخبّط وتتمرّد. ولدى عودته إلى أسرة البوربون الملكية، لم يتمكّن من العودة إلى يسوع المسيح. وظلّ الرجل المسنّ يتمادى في تهجماته وتهرباته وعاداته. ولدى الاقتراب منه، يمكن الإحساس أنّه ما زال متأثراً بفولتير أحياناً. بينما يتغلّب لديه بيرنجيه، في كلّ لحظة، على دو ميستر.

– ناولي العنان لأخيك، يا رينيه، قالت السيّدة موبران، لا أريد أنْ يروك تقودين.

أصبحوا قبالة سياج كبير ورائع ينتصب أمامه شمعدانان يُضاءان بالغاز مساءً، ويشتعلان طوال الليل. دارت العربة فوق الرمل الأصهب في الممشى، حاذت أجمات ضخمة من الغار الوردي، وبلغت درج المدخل. فتح خادمان البابين الزجاجيين لغرفة الاستقبال المبلطة بالرخام وكانت نوافذها العليا مغطاة باخضرار ستارة عريضة من جنبات الشجيرات المستجلبة. ومن هناك، أُدخِل آل موبران إلى قاعة استقبال مغلفة الجدران بالحرير القرمزي وليس على جدرانها إلّا لوحة واحدة، بورتريه السيّدة بورجو في بدلة الحفلة الراقصة، بتوقيع: الرسام آنغر. ومن النوافذ المفتوحة يظهر قربَ عينِ ماءٍ لقلق، وهو الحيوان الوحيد الذي سمح به السيّد بورجو في منتزهه، بسبب ظله الشبيه برسوم الشعارات.

عندما دخل آل موبان إلى القاعة الكبرى، كانت السيّدة بورجو جالسة على أريكة وتنصت إلى ما تقرأه لها معلّمة ابنتها. وكان السيّد بورجو المتّكئ على المدفأة يداعب سلسلة ساعته. فيما كانت الآنسة بورجو قرب القارئة تنسج على مِدْبَج تطريز.

كانت السيّدة بورجو، بعينيها الواسعتين وبزرقتهما القاسية قليلاً، وحاجبيها المقوسين، وطيات جفنيها، وأنفها الأشم والحادّ، والتقدّم المتعالي لأسفل وجهها، مع لطفها المتصلّف، تذكّر بجورج شابّة في دور ضمن أوبرا «آغريبين»[35]. كان للآنسة بورجو حاجبان رماديان مرسومان جيّداً. أمّا رموشها الكبيرة المقوسة فكانت تكشف عن عينين زرقاوين، محتدمتين عميقتين، تحلمان. وكان هناك زغب خفيف، خفيف جداً وأبيض تقريباً، يلوح عندما تكون تحت الضوء، فوق شفتها، عند الزاويتين. وكانت المعلمة من تلك الوجوه الممحوّة، واحدة من تلك العوانس اللائي دحرجتهنّ الحياة واستهلكتهنّ، من الداخل كما من الخارج، ولم يبق لهنّ من الملامح أكثر ممّا لفلسٍ مهترئ.

– هذا رائع حقّاً، قالت السيّدة بورجو وهي تقف وتتوجه نحو خط في الأرضية وسط القاعة، هؤلاء الجيران الأعزاء... مفاجأة لذيذة!... يبدو لي أنّ زمناً طويلاً جدّاً قد مرّ من دون أنْ أتشرف برؤيتك يا سيّدتي العزيزة، ولولا ابنك الذي ارتأى عدم التمادي في إهمالنا، وحضور أمسياتي مساء الإثنين...، وصافحت هنري الذي بادر بالانحناء، لما علمنا شيئاً عن أخباركم، وأخبار هذه الفتاة الجميلة... وأمّها.

– يا إلهي، سيّدتي، قالت السيّدة موبران وهي تجلس على بعد مسافة من السيّدة بورجو، أنتِ في منتهى الطيبة...

– أوه! لكن تعالي هنا، قالت السيّدة بورجو وهي تهيّئ لها موضعاً بجانبها.

– بقينا نؤجل المجيء عدة أيّام، أردنا المجيء كلنا.

– ما هذا، إنّه لأمر مؤسف، تابعت السيّدة بورجو، لسنا على بعد مائة ميل... وإنّها لجريمة حقّاً أنْ نترك الطفلتين، وأشارت إلى رينيه ونؤيمي، اللتين كبرتا معاً، من دون لقاء!... ماذا، ألم تتبادلا القبل بعد؟

مدّت نؤيمي التي ظلت واقفة، خدّها ببرود إلى رينيه التي قبّلتها مثلما يعضّ طفل حبة فاكهة.

– سيّدتي العزيزة، قالت السيّدة بورجو إلى السيّدة موبران وهي تنظر إلى الفتاتين، ما أبعد ذلك الزمن الذي كنّا نرافقهما فيه إلى شارع شوسيه دانتان، إلى ذلك الدرس الذي كان يضجرنا مثلهما تقريباً! أتذكّرهما... تلعبان معاً... ابنتك التي كانت مثل الزئبق... شيطانة حقيقية! وابنتي... أوه! كانتَا بمثابة النهار والليل. غير أنّ ابنتك كانت تجرها... يا إلهي! يا لذلك الهوس الذي انتابهما لفترة، هل تذكرين؟ عندما كانتا تأخذان كلّ مناديل المنزل من أجل التنكّر...

– آه! نعم، يا سيّدتي، قالت رينيه وهي تضحك وتلتفت نحو نؤيمي، أجمل أفعالنا كانت عندما لعبنا حزّورة «المُرابِط» مع مارا في حمّام ساخن جدّاً وكان يصيح: «أنا أغلي، أنا أغلي، أنا أغلي»[36]؛ هل تذكرين؟

– أوه! أذكر ذلك جيّداً، قالت نؤيمي من دون أنْ تنجح في قمع ابتسامة، لكنْ، كنتِ أنتِ صاحبة الفكرة.

– حسناً يا سيّدتي، تشرّفت بأنْ وجدتك مهيّأة مسبقاً لما جئت أطلب منك؛ إذْ أنّني جئتك في زيارة وراءها مصلحة. جئتك تحديداً للجمع بين ابنتينا. ذلك أنّ رينيه ترغب في تمثيل الكوميدي... وبالطبع فكرت في صديقتها القديمة. وإذا أنت وافقت بالسماح للآنسة ابنتك بتمثيل دور بجانب ابنتي... فسيؤدي ذلك إلى حفل عائلي صغير حميم جدّاً.

مع كلمات الطلب الأولى التي نطقت بها السيّدة موبران، عمدتْ نؤيمي التي تركت يديها أثناء تبادل الحديث بين يدي رينيه، إلى سحبهما بغتة.

– أشكرك على هذه الفكرة، سيّدتي العزيزة، أجابت السيّدة بورجو، أشكر أيضاً ابنتك الجميلة رينيه. لا يمكنك بالنسبة لي، طلب شيء أنسب وأجمل ممّا طلبتِ. أعتقد أنّ ذلك سيكون مناسباً جدّاً لنؤيمي. فهذه الابنة المسكينة تعاني من خجل لا يوصف... أمر مؤسف... سيساعدها ذلك قليلاً على الكلام، والخروج من انغلاقها على ذاتها... حتّى بالنسبة لعقلها سيكون ذلك مثل حافز رائع...

– لكنْ، يا أمّي، أنت تعلمين جيّداً... ذاكرتي ضعيفة جدّاً... ثمّ إنّ مجرّد التفكير في التمثيل... الخوف... لا، لا أريد أنْ أمثّل.

نظرت السيّدة بورجو إلى ابنتها بنظرتها الجامدة.

– لكنْ، يا أمّي، لو كنت قادرة... غير أنّني سأفسد العرض، أنا متأكّدة...

– سوف تمثلين... أريد ذلك يا آنسة. فأحنت نؤيمي رأسها.

بسبب الارتباك، سعت السيّدة موبران من باب تمالك النفس والتكتّم، إلى إلقاء نظرة على مجلة مفتوحة بجانبها، على حافة منضدة شغل نسويّ.

– آه! قالت السيّدة بورجو مستعيدة هدوءها، أنت هنا في بلاد علم ومعرفة... إنّها مقالة ابنك الأخيرة. ومتى تنوون التمثيل؟

– لكن، يا سيّدتي، أنا آسفة لكوني سبب... فرض التمثيل على الآنسة ابنتك...

– أوه! لنكفّ عن الحديث حول ذلك. ابنتي تخاف دائماً من اتّخاذ أيّ قرار.

– مع ذلك، قال السيّد بورجو من الطرف الآخر من القاعة وكان يتحادث مع السيّد موبران وهنري، إذا كانت نؤيمي تعاني من نفور كبير...

– سوف تكون، بالعكس، ممتنّة لك كثيراً، قالت السيّدة بورجو موجّهة كلامها إلى السيّدة موبران، دون أنْ تجيب السيّد بورجو، نحن مجبران دائماً على دفعها إلى المتعة. حسناً، متى يكون موعد هذا العرض؟

– رينيه، سألت السيّدة موبران ابنتها، متى في اعتقادك؟

– لكنْ، يبدو لي... نحتاج إلى شهر من أجل التمارين، مرّتين في الأسبوع... سنستحوذ على أيّام نؤيمي وساعاتها، والتفتت رينيه نحو نؤيمي التي ظلّت صامتة.

– ممتاز، قالت السيّدة بورجو، حسناً، سنتمرّن، إن شئتم، يومي الإثنين والجمعة، مع الساعة الثانية، أليس كذلك يا آنسة غوغوَا، والتفتت السيّدة بورجو صوب المعلّمة: سوف ترافقين

الآنسة. هل تسمع يا سيّد بورجو، عليك إعطاء الأوامر بالنسبة للخيل والعربة، والخادم الذي سيذهب إلى البريش. اتركْ لي تيرور وجان. هوذا... والآن، هل تبقون للعشاء؟

– أوه! نحن نعتذر... هذا مستحيل... لدينا أناس اليوم.

– اسمحي لي بأن ألعن أولئك الناس... أعتقد أنكم لا تعرفون دفيئات نبات السيّد بورجو الجديدة. أريد أن أقطف لك باقة، يا رينيه... لدينا زهرة... لا وجود إلّا لزهرتين مثلها... الثانية في فيريير... إنّها... غاية في البشاعة، مع ذلك...

– ونحن، ماذا لو مررنا من هناك؟ قال السيّد بورجو مشيراً إلى قاعة البليياردو التي تُشاهد من خلال الزجاج غير المدهون، يا سيّد هنري، نتركك مع هؤلاء النسوة... فهنا، نحن سندخّن، قال السيّد بورجو وهو يقدّم سيجار كابانا[37] إلى السيّد موبران.

– نلعب تصادُم الكرتين بواحدة، ما رأيك؟

– نعم، تصادم الكرتين، قال السيّد موبران.

وأغلق السيّد بورجو فتحات البليياردو.

– بأربع وعشرين؟

– بأربع وعشرين.

– أليس لديك بليياردو في منزلك، يا سيّد موبران؟

– كلّا، يا إلهي، كلّا... ابني لا يتعاطاه...

– هل تبحث عن اللّون الأبيض؟

– شكراً... وبما أنّ زوجتي لا تعتبرها لعبة ملائمة لشخص في مقتبل الشباب...

– هو دَورك.

– أوه! لقد فقدت نشاطي... لكنّني عديم المهارة منذ البداية...

– لا تدفعني إلى اللّعب بتاتاً... حسناً! لقد أتممت بطريقتي... أنا بارع في هذه اللعبة، وأطلق السيّد بورجو شتيمة صاخبة، أولئك العمال الأوغاد! لا يتحلون بذرّة ضمير! لم يعد بمقدورنا الحصول على أيّ شيء... جيّد! تحسّن لعبك: ثلاثة، أتصدى لك... صرنا نحن تحت أوامرهم! قبل بضعة أيّام أردت وضع مشكاة خلال النهار... تصوّرْ، يا سيّد موبران، لم أجد عاملاً واحداً... كان يوم عيد، لم أعد أذكر أيّ عيد... لم يرغبوا في المجيء... صاروا أسياداً كباراً حالياً... هل تظنّهم يجلبون لنا ما يقتلون أو ما يصطادون؟ عندما يحصلون على صيد جيّد يأكلونه. في باريس أدرك ما يعني ذلك... أربعة! انتبهْ! ماذا دهاك... كلّ ما يربحونه ينتقل إلى المقهى... يوم الأحد ينفقون قطعاً بعشرين فرنكاً... صانع الأقفال هنا لديه بندقية من طراز لوفوشو! وهو يؤجّرها للصيد!... أخيراً، اثنان لصالحي... ناهيك عمّا يطلبونه الآن مقابل العمل! هنا يأخذون منّي مائة فلس مقابل الحشّ... لديّ كروم عنب في بورغونيا: عرضوا عليّ حراثتها طوال ثلاث سنوات، وفي السنة الثالثة يصيرون مالكين... انظر إلى أين نسير! أنا في نهاية المطاف سعيد لأنّني هرمت كثيراً، ولن أشهد ذلك، لكنْ بعد مائة عام لن يوجد من يحصل على خدمات؛ ولن يبقى هناك خدم... كثيراً ما أقول لزوجتي وابنتي: سوف تريان كيف ستضطرّان ذات يوم إلى ترتيب فراشيكما بنفسيكما!... خمسة... ستة... ها إنك قادر على الإبهار... لقد قتلتنا الثورة، أرأيت. وشرع السيّد بورجو يدندن:

وزنزون، زنزون، زنزون، زنزون، زنزون...[38]

– هذه أفكار لم تكن تراودك في الماضي، قبل قرابة ثلاثين عاماً، عندما التقينا لأول مرة؛ هل تتذكّر؟ قال السيّد موبران مع ابتسامة خفيفة.

– صحيح... كان لي أفكار أفضل... أفكار رائعة في ذلك الوقت، قال السيّد بورجو مستنداً بيده اليسرى على عصا البلياردو، آه! كنّا شبّاناً... أعتقد أنّني أتذكّر جيّداً... كان ذلك في موكب لالمون، قَسماً! كانت تلك أجمل لكمة سدّدتها في حياتي، مع التفادي والانقضاض! ما زلت أرى مسامير حذاء مفوّض الشرطة جانبياً بعد أنْ طرحتُه أرضاً من أجل اجتياز الشارع! وفي زاوية شارع البواسونيير وجدتني في حضور دورية... فأوسعوني ضرباً مبرحاً منذ البداية... كنت مع كاميناد... أتعرف كاميناد؟ كان طيّباً... وهو ذلك الذي كان يذهب للتدخين في إرساليات كنيسة «البتي بير» بغليونه الحجريّ الذي يباع بألف وخمسمائة فرنك وفتاة من «الباليه روايال»،.. هو كان محظوظاً في الإفلات، وساقوني إلى المركز ضرباً بأخمص البنادق... من حسن الحظ أنّ دولوران لمحني...

– عجباً! دولوران، قال السيّد موبران، كنّا في اجتماع الكاربونيريّا نفسه. كان له دكّان أوشحة، كما أذكر...

– نعم، وهل تعلم كيف كانت نهايته؟

– كلّا، لم أعد إلى رؤيته.

– حسناً، ذات يوم، وكان ذلك بعد كلّ هذه المشاكل، هرب شريكه إلى بلجيكا ناهباً معه مائتي ألف فرنك. أُرسل عملاء لتقصي أثره... ما من أخبار. أمّا الصديق دولوران فقد دخل إلى إحدى الكنائس ووعد بالهداية إذا استعاد أمواله. فاستعادها، وهو الآن في حالة ورع مقرف. لم أعد أراه... لكنْ في ذلك الزمن كان شخصا متحمّساً، كما تعلم. كنت أغمزه لدى مروري... كانت لديّ في المنزل خمس وعشرون بندقية وخمسمائة طلقة... عندما جاءت الشرطة كان قد أخرج كلّ المخبّأ... ولم يمنعني ذلك من قضاء ثلاثة أشهر في سجن لافورس، داخل الجناح الجديد، حيث أوقظت في الليل مرّتين أو ثلاثاً من أجل التحقيق، وكنت أذهب إليه مسكوناً بفكرة غامضة حول إمكانية إعدامي... لقد مررتَ بذلك، أنت أيضاً؛ وتعرف ماذا يعني... وكلّ ذلك من أجل الوصول إلى الاشتراكية! غير أنّ هناك كلمة كان من شأنها تنويري جيّداً... لدى خروجي جاء أحد رفاق السجن لزيارتي في بيتي في سيّدان؛ قال لي: «يا ترى ما الذي قالوه لي في النزل: يبدو أنّ والدك يملك أراضيَ، ومالاً... وأنت تلتزم معنا؟ أنا كنت أظنّ أنك لا تملك شيئاً...» هل انتبهت يا سيّد موبران، أستغرب كيف لم يوقظ كلامه ذهني!... ذلك أنّني في ذلك الوقت كنت مقتنعاً أنّ كلّ الذين أسير معهم يريدون بكلّ بساطة ما أريد: المساواة أمام القانون، إلغاء الامتيازات، نهاية ثورة 89 ضدّ النبلاء... كنت أعتقد أنّ الأمور ستتوقف عند ذلك الحدّ... إحدى عشرة... هل كنتُ أنا آخر من سجّل؟ لا أعتقد؛ لنقل: اثنتا عشرة... لكنْ، فلتحلّ بهم اللعنة! عندما شاهدت جمهوريتي، شعرت بالقرف. وعندما سمعت، في شهر فبراير، رجلين ينزلان من المتاريس ويقولان: «كان علينا ألا نغادر إلّا بالحصول على إيراد بخمسة آلاف ليرة...» ثمّ الحقّ في العمل، ثمّ الضريبة التدريجية، هذا تعسف، نفاق الشيوعية! لكن مع الضريبة المتدرجة، قال السيّد بورجو بنبرة خطابية مقاطعاً جملته، أتحداهم أن يجدوا شخصاً يريد أن يرهق نفسه بتجميع ثروة طائلة... ثلاث عشرة، أربع عشرة، خمس عشرة، ممتاز! أوه! أنت قوي جدّاً... كلّ ذلك هزّ مشاعري، هل فهمت؟

– أوافقك الرأي تماماً، قال السيّد موبران.

– أين كرتي؟ هناك؟... لكن فعلاً كلّ ذلك هزّ مشاعري تماماً... جعلني أتحول إلى ملكي متحزب إيجابياً. تسديدة أخرى خطأ!... لكنْ...

– لكنْ؟

– لكنْ هناك شيء... آه! بهذا الخصوص مثلاً... ما زالتْ لي نفس الآراء... أقول مثل هذا الكلام لك أنت... أمّا كلّ ما يتعلق بالقس، بالنسبة لي... ثماني عشرة... هيّا لقد هزمتُ... فنحن نستقبل الموجود هنا، لأنّه شيطان طيب؛ ماذا لو أنّ القساوسة يتعرفون على واحد، مثلي أنا، كُسرتْ فخذه أثناء القفز ليلاً فوق جدار المدرسة الإكليريكية! جمهرة من اليسوعيّين، كما تعلم، يا سيّد موبران!

«أيّها الرجال السود، من أين تخرجون؟

نحن نخرج من باطن الأرض.»

آه! هوذا رجُلي[39]! «ربّ الناس الطيّبين»![40] وكلّ الأغاني الأخرى! و«يهوذا»:

«لنتكلّمْ يا أصدقائي بصوت خفيض:

إنّي أرى يهوذا، أرى يهوذا!»

إحدى وعشرون... لم يتبقّ لك إلّا ثلاث... اسمعْ، في البلد الذي أملك فيه مصهر الحديد، يوجد مطران طيّب الخلق... والنتيجة أنّ كلّ المتظاهرين بالتقوى يكرهونه... آه! كم كان يدعو إلى التعصّب، والنفاق الدينيّ، كم كان يذهب إلى القدّاس...

– لم تسبق لي رؤية السيّدة بوجو بتلك الدرجة من الدماثة، قالت السيّدة موبران لدى صعودهم إلى العربة.

– هذا السيّد بورجو مدنيّ غريب الأطوار! قال السيّد موبران، كنت سأتمكّن من التفوق عليه باثنتي عشرة نقطة لو كنت أمتلك لعبة بلياردو...

– أمّا أنا، قالت رينيه، فقد وجدت نؤيمي في منتهى الطرافة... أرأيت يا هنري كيف كانت لا ترغب في التمثيل؟

لم يجبْ هنري.

دخلت نؤيمي للتو إلى صالون آل موبران، تتبعها معلمتها، مع هيئة يشوبها بعض الانزعاج، والقلق، والخجل تقريباً. عند العتبة عاينت القاعة؛ وكما لو اطمأنت وارتاحت أكثر فقدّمت جبينها لقبلة السيّدة موبران، والخدين معاً لتبادل القبلات مع رينيه. كانت رينيه تجمع بين المرح والضحك مع حركات مزاح ومداعبة، وخلعت لها معطفها عن كتفيها، وحلّت أشرطتها، ونزعت قبعتها.

– في الواقع، قالت وهي تُدير حول قبضتها الصغيرة القبعة الجميلة الصغيرة من الدانتيلا البيضاء المزينة بزنابق وردية، أقدّم لك السيّد دونوازال... وأظنّ أنك رأيته منذ زمن... وهذا أمر يكشف تقدّمنا في السنّ... أقدّمه باعتباره مديرنا، وأستاذنا في الأداء، ملقّننا والمشرف على إنارة أضواء المسرح... كلّ ذلك!

– لم أنسَ كم كان سيّدي طيباً معي عندما كنت صغيرة.

احمرّت نؤيمي نتيجة التأثر بذكرى الطفولة، ومدّت نحو دونوازال، بحركة خرقاء لكنّها جذابة، يداً خجولاً مرصوصة الأصابع.

– أوه! لكنْ، يا لها من زينة تابعت رينيه وهي تلف حولها. أنت في غاية الجمال! ثمّ شرعت تسدّد ضربات صغيرة إلى فستان قماش التفتا عند طيات الحرير، وسحبت لها تنّورتها منحنية حتّى الأرض: «ستقدّمين لنا ماتيلدا جميلة بعض الشيء... أنا التي سأشعر بالغيرة، أتعلمين؟» ثمّ نهضت: «لكن، انظري إذنْ، يا أمّي، قلت لك إنّها تغلبني...»، وانتقلت إلى جانب نؤيمي وأمسكت بها من خصرها: «انظري، ألا ترين أنك أطول منّي...» وظلّت تمسك بها محتضنةً، وجرّتها إلى المرآة، والتصقت بها، وقارنت ارتفاع كتفيهما: «أرأيت!» قالت لها.

انسحبت المعلّمة إلى ركن في القاعة. ومكثت تطلّع على صور كتاب لم تكن لتفتحه، بتذلّل، إلّا جزئيّاً.

– ما رأيكما، يا بنتيّ العزيزتين لو نبدأ بقراءة المسرحية؟ قالت السيّدة موبران. ليس واجباً انتظار هنري... فهو لن يحضر إلّا في التمارين الأخيرة عندما تكون الممثّلات جاهزات.

– أوه! بعد قليل، يا أمّي، اتركيني نتبادل الحديث قليلاً... تعالي للجلوس هنا يا نؤيمي... نعم هنا. لدينا الكثير من الأسرار الصغيرة، والكثير من الأشياء التي سنتبادل الحديث عنها منذ أن تقابلنا! قبل قرون...

وبدأت رينيه مع نؤيمي واحدة من تلك المحادثات المزقزقة ذات الصخب الشبيه بتدفّق ينبوع، ذلك الهذر النديّ، الصافي، الذي لا يجفّ، والذي يتكسر في قهقهة ويتلاشى في همسة. كانت نؤيمي حذرة في البداية، وسرعان ما استسلمت لعذوبة ذلك البوح، وإلى كلّ ما يعيده إليها ذلك الصوت من ماضيها. كانت كلّ واحدة، كما بعد فراق، تسأل الأخرى عن كلّ ما جرى لها، وكيف صارت. وبعد نصف ساعة، صار الاستماع إليهما يشبه قلبيْ فتاتين تستعيدان معاً روح الطفولة.

– أنا أرسم، قالت رينيه؛ وأنت؟ كان صوتك جميلاً...

– أوه! لا تذكّريني بذلك، قالت نؤيمي. يطلبون منّي الغناء... تريد منّي أمّي أنْ أغني في سهراتها الكبيرة... وليست لديك فكرة... عندما أرى جميع الحضور ينظرون إليَّ... تأخذني قشعريرة... أوه! كنت أشعر بالخوف... وفي المرّات الأولى كنت أنفجر بالبكاء...

– لكنْ، أخبريني متى ستتذوقين القليل... لقد حرمت نفسي من تفاحة خضراء من أجلك! أما زلت تحبين التفاح الأخضر، أتمنى ذلك؟

– كلّا، شكراً، يا صغيرتي رينيه، لا أشعر بالجوع... حقّاً.

– أخبرنا يا دونوازال، ما الشيء المهم جدّاً الذي تنظر إليه عبر النافذة؟

كان دونوازال ينظر إلى خادم آل بورجو في الحديقة. رآه ينفض غبار الدكة بمنديل قطني ناعم من نوع الباتيسته، ويبسط المنديل فوق عوارض الدكة الخضراء، ثمّ يضع بحذر سرواله المخملي الأحمر، ويضع ساقاً على ساق، ويسحب سيجاراً من جيبه، ويشعله. صار يتملاّه بينما هو يدخّن بتكاسل وعظمة، تاركاً حوله وفي ضآلة هذا المسكن، نظرة ازدراء من رجل يخدم في قصر ولأسياده منتزه كامل.

– أنا، لا، لا شيء... قال دونوازال مبتعداً عن النافذة، خشيت أنْ أكون فضولياً.

– أوه! الآن، تبادلنا كلّ حكاياتنا الصغيرة!... تستطيع المجيء للحديث معنا.

– هل تعلمين كم الساعة الآن يا رينيه؟ إذا كنت ترغبين في التدرّب اليوم...

– آه! يا أمّي، أترين، الطقس حار جدّاً اليوم... ثمّ إنّه يوم جمعة...

– والسنة بدأت بيوم 13، قال دونوازال بنبرة جادة.

– آه! قالت نؤيمي وهي تلتفت نحوه بعينين يملؤهما الإيمان.

– لا تنصتي إليه، إنّه يمزح معك. دونوازال يقوم بمثل هذا المقلب طيلة النهار.. أليس كذلك، سوف نتدرّب للمرة الأولى؟ ما زال أمامنا متسع من الوقت.

– كما تشائين، قالت نؤيمي.

– إذن، لنأخذ استراحة... يا دونوازال عليك أن تصير طريفاً في الحال... وإذا استطعت أن تكون مضحكاً حقّاً، فسأعطيك لوحة... من لوحاتي...

– مرّة أخرى؟

– حسناً أنت مهذّب... أنا أرهق نفسي...

– يا آنسة، قال دونوازال موجّهاً كلامه إلى نؤيمي، ستحكمين على وضعي... تصوري أنّني سبق أن حصلت من الآنسة على باذنجانة وجزرة بيضاء... وعلى قطعة يقطين مع قطعة جبن من نوع «بْري»... كلّها متأتية من القلب، أعلم جيّداً... لكنّني في غرفتي صرت أشبه بائع فواكه...

– هؤلاء هم الرجال، أرأيت؟ قالت رينيه بمرح مخاطبةً نؤيمي، كلّهم ناكرو جميل يا عزيزتي! تصوري أنّنا سنتزوّج ذات يوم! هل تعلمين أنّنا بلغنا مرحلة العنوسة، ما رأيك؟ عشرون عاماً! عجباً، لقد انقضت على أية حال! أليس كذلك؟، كنّا نظنّ أنّنا لن نبلغ الثامنة عشرة أبداً؟ وبعد ذلك، عندما نبلغها نكون قد فقدناها!... ماذا عسانا نفعل! آه! اجلبي معك بعض الموسيقى في المرة القادمة... سوف نعزف بأربع أيادٍ؛ لست أدري إنْ كنت ما زلت أتذكّر ذلك...

– ومتى نتدرّب؟ سأل دونوازال.

– في منطقة النورماندي! أجابت رينيه، مقلّدةً هذا النوع من المزاح الذي انتشر منذ بضعة أعوام من المسارح والمحترفات إلى أفواه الناس.

ظلت نؤيمي حائرة مثل شخص فاته معنى كلمة سمعها.

– نعم! قالت لها رينيه، «كَون»[41] توجد في النورماندي! آه! ألا تعرفين أذناب الكلمات؟ أدمنت تلك البدعة فترة من الزمن... وكنت لا أطاق، أليس كذلك يا دونوازال؟ وهل تزورين الناس كثيراً؟ أخبريني أين ذهبت خلال هذا الشتاء... احكي لي عن حفلاتك الراقصة...

وأجابتها نؤيمي، وصارت تتدفق بالكلام، وتزداد حيوية بالتدريج. حلت الابتسامة على وجهها، والعفوية على لطفها. بدت تتفتح كما لوكان ذلك بنغمة حرية وتحت نفس دافئ، قرب رينيه، في ذلك الصالون البهيج، والسعيد والمفعم بالشباب.

كانت الساعة الرابعة. وقفت المعلمة مثل نابض:

– يا آنسة، لقد حانت الساعة. تعلمين أنّ هناك عشاء في سانوَا... وتحتاجين أيضاً إلى وقت لتبديل ثيابك...

– هذه المرة لا مجال للمزاح... سنتدرب بجد، قال دونوازال. يا آنسة نؤيمي، تعالي اجلسي هنا. هكذا، نحن جاهزون، اليس كذلك؟ واحد... اثنان... ثلاثة...

صفق بيديه: لنبدأ!

– بالنسبة للمشهد الأوّل، قالت نؤيمي مترددة، لست متأكّدة... أحفظ الآخر بطريقة أفضل.

– المشهد الثاني إذن؟ لننتقل إلى الثاني. سأقوم بدور هنري: مساء الخير يا عزيزتي.

قوطع دونوازال بضحكة مجلجلة من رينيه:

– آه! يا إلهي، قالت لنؤيمي، أنت جالسة بطريقة غريبة! تشبهين قطعة سكّر في كماشة سكّر!

– أنا! قالت نؤيمي منزعجة وهي تحاول إيجاد طريقة جلوس.

– أرجو ألا تزعجي الممثّلين، يا رينيه، قال دونوازال. ثمّ عاد إلى أداء دوره: مساء الخير، يا عزيزتي، هل أزعجك؟

– آه! وأكياس النقود؟ هتفت رينيه.

– لكنّي كنت أعتقد أنك أنت المكلفة بها.

– أنا؟ أبداً... بل أنت، لأنك مسؤول أكسسوارات رائع! أخبريني يا نؤيمي، لو كنت متزوّجة هل كانت ستخامرك فكرة إعطاء كيس نقود لزوجك؟ هو صاحب دكان، أليس كذلك؟ لمَ لا تعطينه قلنسوة يونانية فوراً؟

– هل نتدرب؟ قال دونوازال.

– انتبه يا دونوازال، أنت تقول ذلك بنبرة إنسان يريد الذهاب للتدخين.

– أنا أرغب في التدخين دائماً، يا رينيه، قال دونوازال، خصوصاً عندما لا أشعر بحاجة إلى ذلك.

– لكنّك تعاني من علّة في هذه الحال!

– أعتقد ذلك بدوري، وأحافظ عليها.

– يا ترى ما المتعة التي تجدها في التدخين؟

– متعة عادة سيئة: وهذا ما يفسّر الكثير من الأهواء، وعاد إلى تكرار مدخل السيّد دو شافينييه: «مساء الخير، يا عزيزتي، هل أزعجك؟»

– أنا؟ يا له من سؤال، يا هنري! قالت نؤيمي.

وبدأ التدرّب.

– إنّها الساعة الثالثة، قالت رينيه رافعةً عينيها عن الجورب الصغير الذي كانت تزرده، وناظرة إلى ساعة الحائط. –من المؤكّد أنّني بدأت أعتقد أنّ نؤيمي لن تأتي اليوم... سيفوتها التمرين... يجب تغريمها.

– نؤيمي؟ قالت السيّدة موبران وهي تبدو مستيقظة من النوم. لكنّها لن تأتي... آه! لم أخبرك... فقدت صوابي، صرت أنسى كلّ شيء حالياً... أخبرتني آخر مرّة أنّها من دون شك لن تتمكن من الحضور اليوم... لديهم ضيوف... أظنّ... لم أعد أذكر.

– شيء ممتع! لا يوجد ما يضجر عندما ننتظر الناس بهذه الطريقة، ولا يقبلون. وأنا التي قلت لنفسي هذا الصباح لدى استيقاظي: إنّه يوم نؤيمي... كنت معوّلة عليها... أوه! من المؤكّد أنّها لن تأتي الآن... أمر طريف، بدأت أشتاق إليها، نؤيمي، منذ أنْ عادت إلى التعلق بي... أشتاق إليها مثل أحد أفراد العائلة... لا أجدها ظريفة... تفتقر إلى الحيوية... ليست مرحة... وبخصوص الذكاء هي ضعيفة... ويمكن الهزء بها بمنتهى السهولة! وليكنْ! سنتدبّر ذلك، أجد فيها بعض الجاذبية رغم كلّ شيء... لديها شيء ما في منتهى العذوبة، في غاية العذوبة... يخترقك... هي تريح الأعصاب إيجابياً... وما تفعله هو إبهاج القلب أليس كذلك؟ ببساطة وبمجرد وجودها قربك. لقد تعرفت على عدد كبير من الفتيات، وكن متفوقات عليها كثيراً؛ مع ذلك لم يكن ليمتلكن ما تمتلكه؛ كانت العلاقة معهنّ جافة بلا حياة.

– يا إلهي! الأمر في منتهى البساطة، قال دونوازال، الآنسة بورجو من طبيعة رقيقة جدّاً، محبّة جدّاً... يوجد لدى تلك المخلوقات ما يشبه تيار محبّة تجاه الآخرين...

– أتذكّر منذ صغري أنّها كانت مثل الآن... شديدة الحساسية! كم كانت تبكي وكم كانت تقبّل، كان ذلك مذهلاً! لم تكن تفعل شيئاً آخر غير ذلك... كم أنّ وجهها يعكس دواخلها، أليس كذلك؟ كأنّ جمالها جُبل بكلّ ما عندها من حنان وبكلّ ما تبقى لها من الطفولة... تتميز بالخصوص بتلك النظرة... كثيراً ما يكون لنا في داخلنا بعض المكر وبعض الخبث: فنشعر بهما

يتبددان بسبب تلك النظرة التي تشبه شيئاً سيذوب... هل ستصدقني لو قلت لك إنّني لم أجرؤ قط على الإساءة إليها؟ مع أنّني كنت منكّدة وأفتخر بذلك... في الماضي!

– رائع جدّاً أن يكون المرء متحلّياً بكلّ تلك الرقة، قالت السيّدة موبران.

– كلّا، فالأمر قابل للتفسير، أجاب دونوازال. يمكنكما أنْ تتصورَا شابّة تقبل منذ ولادتها بغريزة المحبّة مثل غريزة التنفس، وتُكبَت ببرودة أمّ تهينها وتخجل بسببها، كما تُكبت بأنانية أب لا يملك أيّ كبرياء أخرى، أو حبّ آخر، أو ابن آخر، غير ثروته! إذن فتلك الشابّة سوف تكون مثل الآنسة بورجو: يكفي الاهتمام القليل بها، حتّى تتدفق منها تلك المحبّة وذلك الفيض من الحنان اللذيْن تحدّثتِ عنهما. يفيض قلبها من تلقاء ذاته...

– يا إلهي! عرفتُ الكثير من الفتيات المكبوتات، كما تقول... ولم يوصلهنّ ذلك إلى هذا التأثير... بل بالعكس[42].

– لا شكّ أنّ اللواتي تعرّفتِ عليهنّ، يا رينيه، كنّ يتمتّعن بتسليات ذهنية، وبالذكاء، وبمخالطة المجتمع الرّاقي، للخلاص ممّا تبقّى، والتناسي، وعدم الاختناق. أمّا الآنسة بورجو فقد جاءت إلى العالم، كما تعلمين، بملقط الجنين...

– نعم، ولادة فظيعة، قالت السيدة موبران، كادت السيّدة بورجو أنْ تفقد حياتها خلالها.. وظلّ الجميع متخوّفين وقتاً طويلاً على مدارك الطفلة... ولم تتكلّم إلّا متأخّرة جدّاً... في سنّ الثالثة.

– ولقد لاحظتُ، تابع دونوازال مواصلاً فكرته وجملته، شيئاً لا يخلو من الغرابة لدى طفلين أو ثلاثة ممّن تمكّنتُ من رؤيتهم خلال مسيرة حياتي، وكانوا قد جاؤوا إلى الحياة، بهذه الطريقة، أي بعد أنْ لامس الحديد دماغهم، وتأثّر الفكر بالجراح... وهذا قد يؤكد نظرية لا تخلو من ألم... ومفادها أنّ غريزتَي الحنان والمحبّة متضادّتان مع غرائز التخيّل والتعقّل والذكاء. يبدو أنّ الحياة تتدفّق إلى القلب لدى تلك الكائنات المسكينة التي تلوح رعناء من جرّاء عنف الولادة. وكانت لهم ملامسات للناس، ليست ملامسات أطفال، بل ملامسات مرضى. ويتميّزون، هم أيضاً، قرب الناس الذين يحبّونهم، بتلك النظرة التي لاحظتِها لدى الآنسة بورجو، تلك النظرة التي تبدو كأنّها تلمع

داخل دمعة. ولا يبدو أنّ هناك ما يأتيهم إلّا الانطباعات الرقيقة، ولا شيء يحدّثهم بلغتهم، إنْ صحّ التعبير، إلّا فنّ الروح وصوت الحبّ: الموسيقى.

– آه! حقّاً ما تقوله عن نؤيمي صحيح... فهي منخرطة في منظّمة موسيقية... وتحضر كلّ عروض الأوبرا... هل سبق لك رؤيتها تستمع إلى الموسيقى؟

– كلّا، لكنّي لا أحتاج لرؤيتها تفعل ذلك حتّى أرثي لحالها. يضاف إلى كلّ ذلك أنّ هذه الفتاة المسكينة غنيّة، غنيّة جدّاً...

– تعاسة جميلة! قالت السيدة موبران.

– نعم، يا سيّدتي، تابع دونوازال، لن يفوتها أنْ تكون تعِسة بسبب ما تملك من مال.

16

مرّ خمسة عشر يوماً في التمارين المسرحيّة عندما اقتادت السيّدة بورجو ابنتها إلى منزل آل موبران بنفسها. وبعد المجاملات الأولى، استغربت عدم رؤية الممثّل الرئيسيّ.

– آه! هنري لديه ذاكرة استثنائية، قالت السيّدة موبران، ويكفي أن يحضر التمارين مرّتين لكي يكون جاهزاً.

– وكيف تجري الأمور؟ سألت السيّدة بورجو. أنا مضطربة بخصوص ابنتي نؤيمي المسكينة... هل أنتم راضون عليها قليلاً؟ جئت لأفرح برؤيتكم أولاً، يضاف إلى ذلك أنّني لن أستاء إذا حكمت بنفسي..

– حسناً، سيّدتي العزيزة، قالت السيّدة موبران، ستتأكّدين... وسوف تجدين في ابنتك، كما أعتقد، سجية رائعة... وسلوكاً طيباً... حقّاً إنّها لطيفة...

تهيّأوا وبدأوا تمثيل مسرحية «نزوة».

– لقد بالغتِ في الإطراء عليها، قالت السيّدة بورجو للسيّدة موبران، خلال المشاهد الأولى؛ والتفتت نحو ابنتها قائلة: أنت لا تحسّين بما تقولين، يا عزيزتي... أنت تكتفين بالاستظهار... مع أنّني اصطحبتك لمشاهدة المسرحية في «أو فرانسيه». لكنْ، أكملي، أرجوك.

– آه! سيّدتي، قالت رينيه، ستخيفين الفرقة كلّها... نحن في حاجة إلى قليل من التسامح.

– ما كنت سقولين ذلك، يا آنسة، أجابت السيّدة بورجو، لو كانت ابنتي المسكينة تمثّل مثلك...

– حسناً! قال دونوازال مخاطباً الآنسة بورجو، لننتقل إلى المشهد السادس، يا آنسة. وليكنْ الحكم علينا من خلاله... لأنّني أجد أنك تؤدّينه بطريقة جيّدة جدّاً، وبما أنّ كبرياء الأستاذ لديّ في خطر نوعاً ما... فسوف تسمح لي السيّدة والدتك...

– أوه! يا سيّدي، قالت السيّدة بورجو، أنا في هذه الأمور أفصل الأستاذ عن التلميذ تماماً؛ أنت لست المسؤول...

وبعد الانتهاء من تمثيل المشهد:

– نعم، يا إلهي!، نعم، قالت، ليس الأداء سيئاً جدّاً... يمكن أن يُقبَل... هو مشهد بطيء، يناسبها، ثمّ إنّها تقدّم كلّ ما تستطيع... ولا يمكن مؤاخذتها هنا..

– أوه! أنتِ في منتهى الصرامة، قالت السيّدة موبران.

– هي صرامة أمّ، ردت السيّدة بورجو، بنوع من التنهّد، وهل سيحضر عرضكم عدد غفير؟

– أوه! أنت تعلمين، أجابت السيّدة موبران، دائماً يكون الناس أكثر ممّا نتوقّع هذه الأيّام. دائماً هناك فضول... أعتقد أنّنا سنحظى بمائة وخمسين شخصاً على الأقلّ.

– أخبريني يا أمّي، ماذا لو أنّني أعدُّ القائمة؟ قالت رينيه، محاولة جعل نؤيمي تتفادى بقية التمرين بعد أن رأت ارتباكها. وسوف يكون إعدادها وسيلة لتقديم مدعوّينا إلى السيّدة بورجو. سأتولّى تعريفك بمعارفنا، يا سيّدتي.

– بكلّ سرور، قالت السيّدة بورجو.

– أنبهك إلى أنهم مثل صحن مشكل من كلّ الأصناف تقريباً. أرى أنّ العلاقات تشبه أناساً التقينا بهم في عربة مسافرين...

– أوه! جميل... وصحيح حقّاً، قالت السيّدة بورجو.

جلست رينيه إلى الطاولة، وشرعت تتكلّم وتكتب بالقلم أسماء الناس، وبدأت:

– أوّلاً عائلة... لنتركها... والآن، مَنْ يا ترى؟ السيّدة والآنسة شانو، شابّة لها أسنان مثل شظايا الزجاج المكسور على الجدران، أتعرفين؟... السيّد والسيّدة بيليزار: سأخبرك بأنهما معروفان بإطعام خيولهما بطاقات زيارة...

– رينيه! رينيه! هيّا... ستقدّمين عن نفسك فكرة... حاولت السيّدة موبران القول.

– أوه! صيتي صار معروفاً... وليس لديّ ما أخسره من هذا الجانب... ولا أظنّك تجهلين أني أتلقى منهم المقابل أيضاً!

– دعيها، دعيها، أرجوك، قالت السيّدة بورجو للسيّدة موبران. ثمّ التفتت نحو رينيه مبتسمة: وبعد ذلك؟

– السيّدة جوبلو... آه! ها هي ذي واحدة مضجرة بحكاية عرضها في التويليري، للويس فيليب: «بلى سيّدي، بلى سيّدي، بلى سيّدي!» ولم تجد غير ذلك... السيّد هارامبورغ، الذي يصيبه الغبار بالاعتلال... في الصيف يترك خادمه في باريس من أجل تنظيف حزوز أرضية البيت!... الآنسة دو لابواز أو دركيّة اسمَي الفاعل والمفعول! معلّمة قديمة تعيدكم في حوارها إلى صيغ تصريف الأفعال... السيّد لوريو، رئيس جمعية إبادة الأفاعي... آل كلوكمان، الأب، والأمّ والأبناء، عائلة تتصاعد مثل قصبات مزمار مختلفة الأطوال!... آه! في الواقع آل فينو في باريس؛ لكن لا جدوى من دعوتهم: لا يذهبون إلّا إلى الناس الذين يسكنون بمحاذاة خط العربات العامة. لقد نسيت الثلاثيّ ميشين... ثلاث أخوات... إلهات البركة الثلاث في حارة باتينيول. إحداهنّ حمقاء، والثانية...

وتوقّفت رينيه لدى رؤيتها عين نؤيمي الخائفة ونظرتها المذعورة إليها مثل كائن مسكين، محبّ ووديع، أصيب فجأة بالارتباك والقلق حتّى أعماق روحه بسبب عمليات الاغتياب التي تجري بقربه. نهضت رينيه وأسرعت تقبّلها:

– يا بلهاء! قالت لها بهدوء، لكن كلّ هؤلاء الناس ليسوا ممّن أحبهم!

لم يأتِ هنري إلّا في التمارين الأخيرة. كان ملمّاً بالمسرحية: وفي ثمانية أيّام، كان جاهزاً. غير أنّ مسرحية «نزوة» كانت أقصر من أنْ تملأ السهرة. جرى التفكير في إنهاء العرض بالهزل. وتم تجريب مسرحيتين قصيرتين أو ثلاث من مسرحيات الباليه روايال، ثمّ جرى التخلي عنها، لأن الفرقة ليست كثيرة العدد، وارتدّوا إلى عرض تهريجي يُعرض حالياً بنجاح في أحد مسارح الشارع، وقد تبنّاها هنري رغم الاعتراض غير المبرر من قبل الآنسة بورجو، ومقاومة غير متوقّعة من خجلها.

أما في ما عدا ذلك، فقد تغيّر طبع الانسة بورجو، منذ حضور هنري. وللحظات لم تعد رينيه تعثر لديها على الحنوّ نفسه. أحسّت ببرود في صداقة صاحبتها. واندهشت لرؤيتها تبدو بروح متناقضة لم تعهدها فيها من قبل. كما إنّها تألمت من طريقة تعاطي نؤيمي مع أخيها، أي بجمود يشوبه نوع من الازدراء ليصير أقرب إلى الاحتقار تقريباً. مع أنّ أخاها كان يتصرف معها بتهذيب، ومبادرة، وانتباه، وليس أكثر. وحتى في كلّ المشاهد التي مثّلها مع نؤيمي كان يتصرف بكثير من التحفظ، والتأدب والاحتراس، إلى درجة أنّ رينيه، خافت على العرض، وخشيت برودة أدائه، وسخرت منهنّ فردّ عليها قائلاً: ما من مشكلة! أنا مثل الممثلين الكبار: أحتفظ بقدرتي على الإبهار ليوم العرض الأوّل.

أُعِدَّ مسرح صغير في آخر صالون آل موبران. وكان هناك ستارة من الأوراق وأغصان الصنوبر، وأجمات مزهرة، تغطي مقدّمة المسرح. وكانت رينيه، بمساعدة مدرّس التصوير، قد رسمت اللوحة التي تمثّل تقريباً ضفتيء نهر السين. وعند جانبيْ المسرح، يمكن قراءة ما كُتب على لافتة بخط اليد:

عروض لابريش

اليوم

نزوة

ويكون الاختتام بعرض «بييرو ذي الزوجتين»

ثمّ تتوالى أسماء الممثّلين.

على كلّ مقاعد المنزل، وفي صفوف مضغوطة أمام المسرح، كانت نساء بثياب مقوّرة يتزاحمن، فتختلط تنانيرهنّ، والدانتيلا، وبريق ألماسهنّ، وبياض أكتافهنّ. وبعد الصالون، يظهر البابان المنزوعان، يؤديان إلى قاعة الأكل وإلى قاعة الجلوس الصغيرة، ومنهما يظهر جمهور من الرجال ذوي ربطات العنق البيضاء، وقد وقفوا على أطراف أصابعهم. رُفع الستار عن مسرحية «نزوة». أدّت رينيه دور السيّدة دو ليري أداء مفعماً بالحيوية. وكشف هنري، مؤدياً دور الزوج، عن واحدة من تلك المواهب الكبيرة للممثّلين البارعين في أوساط المجتمع الرّاقي، والتي يمكن رؤيتهم كثيراً لدى الشبّان الهادئين ورجال الصالونات الوقورين. وحتّى نؤيمي نفسها، مدعومة بأداء هنري وبتلقينٍ من الكواليس من قبل دونوازال، ورغم بعض خجلها من كثرة الجمهور، استطاعت أنْ تؤدي دورها الصغير المؤثر، لشخصية امرأة مهملة، أداء متوسطاً جدّاً. وشكل ذلك ارتياحاً كبيراً لدى السيّدة بورجو. كانت تجلس في الصفّ الأماميّ، وتابعت بقلق تمثيل ابنتها. وكان كبرياؤها يخشى الإخفاق التامّ. نزل الستار، وانطلق التصفيق، وتعالى الهتاف للجميع... لم تكن ابنتها مثيرة للسخرية؛ فكانت سعيدة بهذا النجاح الكبير، واستسلمت مجاملةً لذلك الضجيج وتبادل الآراء والاستحسان، وهي أشياء ملازمة لعروض المجتمع الرّاقي، تعقب التصفيق وتتابعه بالهمس. وفي وسط كلّ ما كانت تسمعه بتشويش، بلغتْها جملة قيلت قربها، وكانت واضحة ومنفصلة عن الضجيج العامّ: «نعم هي أخته، أعرف ذلك جيّداً... لكنّني أرى بالنسبة للدور أنّه لم يظهر محبّاً لها بشكل كافٍ... شديد التعلّق بزوجته؛ هل لاحظت ذلك؟». وشعرت المرأة التي كانت تتكلّم أنّها مسموعة من السيّدة بورجو، فانحنت على أذن جارتها. واستعادت السيّدة بورجو رصانتها.

بعد انتهاء الاستراحة، رفع الستار، وظهر هنري موبران في دور بييرو[43]، ولم يكن في كيسه المنقّط بالألوان وعصابة الرأس التقليديّين، بل في هيأة بييرو إيطاليّ، بقبعة لبديّة وثياب من

الساتان الأبيض، ومعطف يصل إلى حذائه. وسرت حركة بين النساء تعلن أنّ بذلة الرجل نالت الإعجاب، وبدأت المسرحية الهزلية.

كانت حكاية جنونية عن بييرو المتزوّج بامرأة، ويريد الزواج بأخرى، مقْلب ممتزج بالهوى، وجده مؤلف هزليّ بمساعدة شاعر، في مصنّفات المسرح الغنائيّ القديم. في هذه المرة مثّلت رينيه دور المرأة المهملة متتبعة حكايات حبّ زوجها بكلّ أشكالها، وأدّت نؤيمي دور المرأة المحبوبة. وقد حذف هنري مشاهد الحبّ التي يشاركها فيها. ومثّل بفتوة وحمى ومهارة. وفي مشهد الاعتراف نال الاستحسان وصيحات الإعجاب الطافحة. وفوق ذلك فقد كان في مواجهة أجمل شخصية تمثيلية في العالم: إذْ كانت نؤيمي لطيفة في تلك السهرة في فستان العرس من طراز لويس السادس عشر، كما رسم بدقة عن ثلاثية العروس، وهي حفرية رشم لدوبوكور، أعارها باروس للفرقة.

وحول السيّدة بورجو كان هناك ما يشبه سحراً منتشراً في القاعة، مثل تواطؤ ودّي من الجمهور تشجيعاً للثنائي الشابّ على تبادل الحبّ. كانت المسرحية تتقدّم بينما تبدو عينا هنري للحظات كأنّهما تبحثان، في ما وراء درابزين المسرح، عن عينيْ السيّدة بورجو. وفي تلك الأثناء تصل رينيه متنكرة في ثوب قاضٍ قرويّ؛ ولم يبقَ إلّا توقيع العقد: فيمسك بييرو بيد التي يحبّها، ويشرع في الكلام عن كلّ السعادة التي سيحصل عليها معها...

أحسّت المرأة التي تجلس بجانب السيّدة بورجو بأنّها تثقل الضغط على كتفها قليلاً. أنهى هنري مقطعه المسرحيّ الطويل، وانحلّت عقدة المسرحية وانتهت. فجأة رأت جارة السيّدة بورجو شيئاً ما ينزلق على ذراعها: كانت تلك السيّدة بورجو وقد فقدت وعيها للتو.

– أوه! عليكم بالدخول، رجاء، قالت السيّدة بورجو للأشخاص المحيطين بها. كانت قد نُقلتْ إلى الهواء الطلق في الحديقة. «انتهى ذلك، لا أشكو من شيء الآن؛ إنّها الحرارة...»، قالتْ. كانت في منتهى الشحوب وهي تبتسم. «لا أحتاج إلّا إلى قليل من الهواء... فلأُترَك هنا يا سيّد هنري...»

ابتعد الجميع. ولم يكد وقع الخطى يتلاشى حتّى قالت السيّدة بورجو لهنري: «أنت تحبّها!» وكانت ممسكةً بذراعه في حركة شدّ وأصابع محمومة: «أنت تحبّها!»

– سيّدتي... قال هنري.

– اسكتْ! أنت تكذب! ودفعت ذراعه. انحنى هنري. أعرف كلّ شيء... رأيت كلّ شيء... لكنْ أنظرْ إليّ جيّداً! وشرعت تتفرّس عينيه بنظرتها. وظلّ هنري يطأطئ رأسه أمامها. قلْ شيئاً على الأقلّ!... لا بدّ من الكلام!... يبدو أنّك لا تجيد التمثيل إلّا معها!

– ليس لديّ ما أقوله لك، يا لور، قال هنري بصوت أعذب ما يكون وأصفى ما يكون. تراجعت السيّدة بورجو لدى سماعها اسم لور، كما لو أنّها تأثرت به. أكافح منذ عام يا سيّدتي، تابع هنري، أنا لا أعتذر... لكنّ كلّ شيء أَسِر قلبي... تعارفنا منذ الطفولة... ونضجت الجاذبية مع مرور الأيّام... وأنا بائس جدّاً، يا سيّدتي، لأني مدين لك بالحقيقة: أحبّ ابنتك، هذا صحيح...

– لكنّك لم تتحدّث معها قطّ؟ أنا أخجل من ذلك في حضور الناس! لكنْ ألم تنظر إليها على الأقلّ؟ ما الذي أصابكم، قل لي؟ هل تجدها جميلة؟ هيّا! أنا أفضل منها!... أنتم الرجال أغبياء! ثمّ إنّني دلّلتك يا عزيزي... اذهبْ إذن واطلبْ منها أنْ تلاطف كبرياءك، وأنْ تمتّع غرورك، وأنْ تطري على طموحاتك وتخدمها... آه! يا سيّد موبران، لا يمكن للمرء أنْ يعثر على هذا إلّا مرّة في حياته! وليس غير النساء اللائي في عمري، النساء المسنّات، مثلي، هل تسمعني؟ هنّ اللائي يحببن مستقبل الناس الذين يحببنهن!... لم تكن عشيقي، كنت ابني الصغير! وبدا صوتها مع الكلمة الأخيرة كأنّه يخرج من الأحشاء. وسرعان ما غيّرت من نبرتها: عليك تركها إذن! أقول لك إنك لا تحبّ ابنتي أصلاً،، ليس صحيحاً: إنّها غنية!

– أوه! يا سيّدتي!

– يا إلهي! هناك أناس.. قُدِّم لي الكثير منهم... نعم، قد ينجح البدء بالاحتكاك بالأمّ أحياناً للوصول إلى المهر... ومبلغ المليون، كما تعلم، يشجع تجاوز كلّ الصعوبات.

– اخفضي صوتك، أتوسّل إليك... من أجلك أنت نفسك... هناك من يفتح نافذة.

– جميل جدّاً هو الدم البارد، يا سيّد موبران، جميل جدّاً... جميل جدّاً، كرّرت السيدو بورجو. واختنق صوتها الخفيض والمصقّر في حنجرتها.

كانت غمامات تركض في السماء وتمرّ مثل أجنحة طيور ليلية على القمر. وكانت السيّدة بورجو تنظر أمامها سادرة في الظلام. مرفقاها على ركبتيها، وهي تستند إلى كعبيها، من دون كلام، فيما تخبط بطرفي حذائها الساتان رمل الممشى. بعد بضع لحظات، وقفت، وأدّت بذراعيها حركتين عشوائيتين أو ثلاثاً، وكأنّها استيقظت من النوم، ثمّ مرّرتْ يدها بحيوية وارتجاج بين فستانها وحزامها، ضاغطةً بظاهر يدها على الشريط حتّى لتكاد تمزقه. وأخيراً استقامت وشرعت تمشي. وتبعها هنري.

– أحسب، يا سيّدي، أنّنا لن نلتقي أبداً، قالت له من دون أنْ تلتفت. ولدى مرورها قرب الحوض، ناولته منديلها: بلّل لي هذا.

ركع هنري على مثابة الحوض ثمّ أعاد لها المنديل مبلولاً. فكمدت جبينها وعينيها.

– والآن لنعدْ، قالت، ناولني ذراعك...

– أوه! يا سيّدتي العزيزة، يا لها من شجاعة! قالت السيّدة موبران وهي تتقدّم نحو السيّدة بورجو العائدة، هذا ليس معقولاً... سأسعى إلى طلب عربتك...

– أبداً، قالت السيّدة بورجو بحماس، أشكرك... لقد وعدتكم بالغناء، أظنّ... وأريد أنْ أغنّي...

وتقدّمت السيّدة بورجو نحو البيانو، برشاقة وبسالة، مع تلك الابتسامة البطولية التي يخفي خلفها ممثّلو العالم عن الجمهور تلك الدموع التي تذرف في الداخل والجراح التي تنزف في القلب.

تزوّجت السيّدة بورجو بسبب لقاء مصالح بين محلّيْن تجاريّين، وارتبطت برجل لا تعرفه خدمة لاندماج المصالح، وخلال ثمانية أيّام كان للسيّدة بورجو تجاه ذلك الرجل كلّ ما يمكن لامرأة أن تكنّه من حقد تجاه زوجها. ولا يعود ذلك إلى كونها كانت ذات مطالب مثالية كبيرة، أو لأنّها جلبت إلى الزواج أخيلةَ فتاة. كانت ذكيّة بشكل متفرّد، وذات عقل راجح، تكوّنتْ وتغذّت بفضل قراءات ودراسات ومعارف تكاد تكون ذكورية، وهذه المرأة ما كانت لتطلب من شريك حياتها إلّا الذكاء، أنْ يكون كائناً تستطيع أنْ تملأ رأسه بطموحاتها وكبرياء الأنثى المتزوّجة، رجل مستقبل في نهاية المطاف، قادراً على اكتساب واحدة من تلك الثروات التي تتوّج المال اليوم، ويمكنها، عبر ثغرات المجتمع الحديث، أن تقفز نحو إحدى الوزارات، مثل الأشغال العامة أو المالية: كلّ ذلك كان يتصدّع بين يديها مع هذا الزوج الذي تكتشف كلّ يوم أنّه ذو خواء أكثر ايئاساً، ونقص أكثر اكتمالاً، أكثر افتقاراً إلى كلّ ما كان ينبغي أنْ يكون لديه وما كان لديها، روحه محدودة أكثر، وطبعه دنيء أكثر، وكلّ ذلك في مزيج تناقض من العنف والضعف في مزاج طفوليّ.

كان للكبرياء فضل في حماية السيّدة بورجو من الفجور، يضاف إلى ذلك أنّه كبرياء خدمتْه الظروف. خلال مقتبل شبابها كان للسيّدة بورجو، ذات الطبيعة الناشفة، والدم الجنوبي، قسمات بارزة جدّاً تحول دون أنْ يكون لجمالها جاذبية. وعند سن الرابعة والثلاثين، إذْ بدأت تسمن، برزت فيها امرأة أخرى منبثقة من الأولى: اكتسبت قسماتها نعومة وجاذبية مع المحافظة على بروزها؛ وبدت قسوة مظهرها كأنّها تلين، ووجهها يبشّ. هكذا لاحت من ذلك النوع من الجمال المنتمي إلى نهاية الخريف، كما يشكّله العمر لدى بعض النساء ممّن نتمنى العودة إلى رؤية وجوههنّ في سن العشرين، جمال يحيل على مرحلة شباب لم تمرّ بها. يضاف إلى ذلك أنّ السيّدة بورجو لم تتعرض، حتّى ذلك الوقت، إلى مخاطر حقيقية، ولا إلى إغواءات كبيرة جدّاً. فالمجتمع الذي قادها إليه ذوقها، ومحيطها ورجال صالونها والمقرّبون منها، لم يعرضوها إلى إحراج يتطلّب منها دفاعاً جادّاً. كانوا في غالبيتهم أعضاء في المعهد، وعلماء، وأدباء مسنّين، وسياسيّين، وكلّهم متواضعون، هادئون ويبدون هرمين، بعضهم تحت وطأة الماضي، وبعضهم الآخر بفعل الحاضر الذي يزعزعونه. ولأنهم راضون بالقليل، فهم سعداء بما لا يعادل شيئاً، مثل هسهسة فستان، وكلمة مداعبة، ونظرة

منصتة. ولأنّ السيّدة بورجو كانت محاطة بولعهم الأكاديميّ فقد تركته، ومن دون خطر كبير، يتصاعد حولها بدعابات ملهمة: وكان ذلك بالنسبة لها شعلة يمكن اللعب بها دون الاحتراق.

غير أنّ السيّدة بورجو بلغت مرحلة النضج. وانتهى التغيير الكبير في مظهرها وشكلها بالاكتمال. وبدتْ كأنّها معذبة بفائض من الصحة، وإسراف في الحياة، حتّى صار كيانها المعنويّ يفقد القوى التي يكتسبها كيانها الجسديّ. ومع إعجاب شديد بماضيها، باتت تشعر بتراجع في صلابة روحها وطمأنينة كبريائها. في هذه المرحلة تحديداً دخل السيّد هنري موبران إلى صالونها. فبدا لها فتيّاً، ذكيّاً، جاداً، عميقاً، مسلَّحاً من أجل انتصارات الحياة، بكلّ الخصال الباردة والثابتة التي حلمتْ، قبل زواجها، بأنْ تجدها لدى الزوج. وللوهلة الأولى، بدا أنّ هنري أدرك الموقف وتنبأ بحظوظه: فانقضّتْ مشاريعه، دفعة واحدة، على هذه المرأة، انقضاضها على فريسة.

بدأ بمغازلتها؛ وما كان من هذه المرأة التي لها زوج وابنة، وعشرون عاماً من الفضيلة، ومنزلة من أكبر ما يوجد في باريس، إلّا أنْ وفّرتْ عليه الهجوم تقريباً واستسلمت له في أوّل لقاء، ومنحت نفسها مثل فتاة في مطعم خلوة، بطريقة جنونية، غبية، وفظة تقريباً، وسط سخرية الندّل الذين بدأوا بفتح باب قاعة مشتركة أمام أعوامها الأربعين.

ومنذ ذلك الوقت صار حباً يشتد شراسة كلّما ارتوى، واحداً من تلك الأهواء التي تتغلغل في لحم نساء هذا العمر وتبلغ الدم. أمّا هنري، فقد بذل عبقريته في فنّ جذبها وربطها بخطيئتها. لم يخذله شيء، ولم يفلت منه شيء من شأنه أنْ يكشف لديه لحظة تعب واحدة، أو اللامبالاة، أو ثمالة الازدراء التي تظلّ لدى الرجل بعد انتصار مفرط في سهولته، أو نوع الاشمئزاز الذي تخلّفه بعض المواقف السخيفة لدى المرأة العاشقة. كان مداعِباً دوماً ويبدو متأثراً دائماً. وكان له تجاه السيّدة بورجو تحفّزات الحنان والغيرة، وتخوّفات القلب، وكل أشكال الاهتمام، والمبادرة في الخدمة، وكل ما لم تعد المرأة تنتظره من الحبّ وتأمله من العاشق، بعد بلوغ عمر معيّن. ولقد عاملها كفتاة. وطلب منها خاتم اقترانها الأوّل الذي كانت تضعه. وتحمّل هنري الصبيانيات والغنج والدلال وكلّ ما يكشر في شغف هذه الأمّ وربة البيت، وداعب كلّ ذلك من دون طية نفاد صبر واحدة على وجهه، ومن دون أيّ سخرية ضمنية في النبرة. وكان في الوقت نفسه، يستولي على المرأة كاملةً مبدياً لها الامتثال، كاشفاً عن ثمالات ظلت السيّدة بورجو مدينة له بها ومعتزّة بها في آن كما في انتصار حقّقه شخصها على هذا الشابّ ذي المظهر البارد. وهكذا تحوّل هنري إلى سيّد لهذه المرأة،

صار يمتلكها بالكامل، ويسحرها أكثر بالمغامرة المكشوفة للقاءاتهما، وبالمخاطر التي يكشفها لها في علاقتهما، وبكلّ الانفعالات الجديرة برواية إجرامية، والتي يثير بها المخيلة بالخوف وبالخطر، مخيّلة هذه البرجوازية المتحمسة في حبّها أكثر بفكرة كلّ ما يمكن أن تخسره.

وصلت إلى حدّ أنّها لم تعد تعيش إلّا به وله، من حضوره، من فكره، من مستقبله، من صورته، من كلّ ما حصلت عليه عندما رأته. عند مغادرته كانت تمرّر يديها في شعره وتعيد تمريرها، ثمّ تضع قفازيها بسرعة. وأثناء اليوم كلّه وحتّى الغد، تكون بقرب زوجها، وبقرب ابنتها، وهي في داخلها تشمّ كفّيها اللتين لم تغسلهما، وتتنفس عشيقها مقبّلةً رائحة شعره!

وما لبثت تلك السهرة، وتلك الخيانة، وتلك القطيعة التي حصلت بعد عام، أنْ حطّمت السيّدة بورجو. أحست في البداية بما يشبه ضربة تفلت منها بسببها الحياة. وظنّت في اللحظة الأولى أنّها مقبلة على الموت، وشعرت ببعض السكينة في هذه الفكرة. وفي الغد انتظرت هنري. لقد هُزمتْ، وهي جاهزة إذا جاء، كي تعتذر له، كي تقول له إنّها أخطأت، كي تتوسل إليه أنْ ينسى، أنْ يظلّ طيّباً ويسمح لها بالتقاط صدقات حبّه. انتظرتْ ثمانية أيّام: لم يأتِ هنري. طلبت مقابلته كي يُعيد إليها رسائلها: فقام هنري بإرسالها إليها. كتبت تطلب رؤيته لمرة أخيرة، لتودّعه لمرة أخيرة وداعاً سامياً: لم يردّ هنري؛ لكنّه، عبر أصدقائه، وعبر شائعات الجرائد والمجتمع الرّاقي، أحاط السيّدة بورجو بشائعة تتعلّق بملاحقة ضدّ إحدى مقالاته الأخيرة حول بؤس الطبقات الفقيرة. وملأ رأسها وأحلامها، مدة أسبوع، بشرطة الجنَح، والدرك، والسجن، وكلّ ما تراه مخيلة النساء الدرامية في المحاكمات. وعندما طمأن النائب العام السيّدة بورجو بأنّ المحاكمة لن تتمّ، لم تتمالك نفسها بسبب قوة تأثير المخاوف التي انتابتها، وانهيار قواها ومشاعرها، فكتبت إلى هنري:

«غداً، في الساعة الثانية. إذا لم تكن موجوداً، فسأنتظرك عند دَرج السُّلّم. وسوف أجلس على درجة».

كان هنري جاهزاً ومرتدياً زيّه. تزيّن بطريقة متحذلقة وغير أنيقة، ببساطة مقصودة، وفوضى مرغوبة، طريقة من طرق الزينة الصباحية التي يكاد شباب الرجل يظهر فيها جذاباً دائماً.

في الساعة المحدّدة في الرسالة، دقّ الجرس. ذهب هنري يفتح؛ دخلت السيّدة بورجو، ومرّت أمامه بتلك الهيئة وتلك الخطوة المألوفتين لدى نساء يتحرّكن في شقة يعرفنها، ذهبت للجلوس في آخر المكتب على الأريكة.

في البداية لم يتبادلا الحديث مطلقاً. كان هناك مكان شاغر بجانبها على الأريكة؛ جلب هنري منضدة تدخين خفيضة، قلب اتجاهها، وجلس عليها كأنّه يمتطيها مكتوف الذراعين حول ظهرها.

نزعت السيّدة بورجو برقعها ذا الطبقتين من الدانتيلا ووضعته على قبعتها. كان رأسها منحنياً قليلاً، بينما إحدى يديها منشغلة بتكاسل في نزع قفاز اليد الأخرى، كانت تنظر إلى ما يوجد حولها، ما عُلِّق على الجدار، وما وُضع فوق المدفأة. تنهدّت قليلاً، كما لو كانت بمفردها، ثمّ عادت بنظرتها إلى هنري، وقالت له:

– يوجد شيء من حياتي هنا... كلّ هذا هو أنا قليلاً!

ومدّت إليه يدها المنزوعة القفاز، فقبّل هنري أطراف أصابعها باحترام.

– اعذرني، تابعت تقول، لم أكن أرغب في الحديث عنّي... لم أجئ إلى هنا من أجل ذلك... أوه! لا تخشَ شيئاً... أنا متعقّلة اليوم، أعدك بذلك. اللحظة الأولى... أوه! اللحظة الأولى كانت قاسية، لا أخفي عنك ذلك، يا صاحبي... كان هناك مصاعب، قالت بابتسامة رطبة. لكنّ ذلك انتهى حالياً... لم أعد أتالم تقريباً... أوه! لا شكّ أنّ كلّ شيء لا يُمحى في يوم واحد، ولا أريد مطلقاً أن أقول لك إنك لم تعد تعني لي شيئاً، لن تصدقني... غير أنّ ما أستطيع أنْ أقسم لك عليه، وهذا ما ينبغي عليك تصديقه يا هنري، أنّ قلبي لم يعد فيه شغف... لم يعد هناك ضعف... ماتت المرأة، ماتت حقّاً... وما أكنّه لك الآن هو في منتهى الصفاء، نعم...

كان ضوء النهار يزعجها وهي تتحدّث مثل من يحدق فيه:

– هلّا أنزلت الستارة، يا صاحبي؟ قالت. هذه الشمس... عيناي ملتهبتان جدّاً منذ بضعة أيّام...

وبينما كان هنري يتّجه نحو النافذة فكّت أشرطة قبعتها، وتركت الشال الكبير الذي كان يغطيها ينساب قليلاً عن كتفيها. وتابعت تقول، في ضوء الغرفة المحجوب باعتدال:

– نعم، يا هنري، بعد صراعات كثيرة... وتمزّقات عديدة... لن تدركها أبداً... بعد ليالٍ... لا أتمنّى لك مثلها!... ومن شدة البكاء والصلاة، تغلبتُ على نفسي، انتصرت على ذاتي، فكرتُ في سعادة ابنتي، من دون غيرة... وسعادتك أنت أيضاً، كما لو كانت الوحيدة المسموحة لي على وجه الأرض!

– أنت ملاك، يا لور! قال هنري؛ وقد وقف وشرع يمشي على السجادة ويتظاهر بالارتباك، لكن يجب رؤية الأشياء كما هي... اسمعي! كنت على حقّ في تلك المرة، عندما قلت إنّنا يجب أنْ نفترق نهائياً... ونكف عن التلاقي... كيف عسانا نعيش قريبين! لا أعتقد أنك تفكرين في ذلك!... يكفي القليل لإعادة فتح الجراح التي لم تندمل جيّداً مثلما هي حال جراحنا! ثمّ إذا كنت واثقة من نفسك، فمن يضمن لك أنّني واثق من نفسي أيضاً؟ من يضمن لي أن في هذا الاقتراب الدائم وهذا الإغواء المتواصل مدى الحياة... قربك أنت، قال بنعومة، يكفي مناسبة، مفاجأة، وما أدراني أيضاً! وأنا رجل شريف.

– كلّا يا هنري، قالت وهي تمسك بيديه وتجلسه قربها، لا أخشى شيئاً منك... ولا أخاف من نفسي. انتهى كلّ شيء... بمَ تريدني أنْ أقسم لك؟ ولن ترفض... كلّا لن ترضى برفض السعادة الوحيدة التي بقيت لي... الوحيدة، أؤكّد لك... لم يعد لديّ في الدنيا غير ذلك الآن! أنْ أراك، أنْ أراك فقط!

ومرّرت ذراعيها حول رقبة الشابّ، ومن عناقها شعر هنري أنّها لا تضع مشدّاً.

وبعد عناق دام بضع ثوانٍ:

– آه! انتبهي، مستحيل!... لنكفّ عن الحديث حول هذا الأمر، قال هنري بغتة وهو يقف.

– سوف أكون قوية، أنا، قالت السيّدة بورجو بنبرة رصينة.

بعد تمثيل هذه الكوميديا المتعلقة بالتخلّي وجد كلاهما راحة أكثر.

– والآن، تابعت السيّدة بورجو، أنصتْ إليّ... السيّد بورجو سيزوجّك ابنته.

– حقّاً، أنت مجنونة، يا لور...

– لا تقاطعني... السيّد بورجو سيزوّجك ابنته... أظنّ أنّه ينوي الطلب من صهره أنْ يسكن عنده... وفوق ذلك، كلّ الحرية: الشقة، العربة، الطباخ على حدة... أمّا يوميات حياتنا فأنت تعرفها... إلّا إذا غيّر السيّد بورجو فكرته، سوف يكون مهرها مليوناً؛ وإذا لم يفلس، وهذا أمر غير متوقع، سوف تحصل، عندما نكفّ عن الوجود، على مبلغ يتراوح بين أربعة وخمسة ملايين..

– وكيف تريدين بجدّ من الآنسة بورجو، التي تملك مليوناً، وسوف تحصل على خمسة، أنْ تتزوّج...؟

– أنا أمّها، أجابت السيّدة بورجو بنبرة حاسمة، ثمّ، ألا تحبّها؟ يا إلهي! إنّها علاقة منفعة مثل غيرها... وابتسمت السيّدة بورجو. أمّا أنت فسوف تجلب لها السّعادة..

– لكن، والمجتمع!

– المجتمع؟... يا ولد!

هزّت كتفيها قليلاً، وأضافت:

– نغلق له فمه بأطايب الطّعام.

– والسيّد بورجو؟...

– هذا يخصّني... سوف يحبّك قبل مرور شهرين... لكنّك تعرفه: سوف يطلب لقباً؛ وكان يفكر دائماً في تزويج ابنته من كونت... كلّ ما أستطيعه هو أنْ أجعله يكتفي بإضافة علامة نبالة إلى اسمك العائليّ، من طراز «آل» فلان... لا شيء أسهل اليوم من الحصول على ترخيص يسمح للمرء بأن يضيف إلى اسمه اسمَ ممتلكات من الأراضي، أو غابة، أو حقل، أو أيّ قطعة أرض

مهما كانت... ألم أسمع أمّك تتحدّث عن مزرعة دو فيلاكور تمتلكونها في منطقة الهوتمارن؟ موبران دو فيلاكور... هذا كافٍ... أنت تعرف، بالنسبة لي، كم أنّني لا أصرّ كثيراً على هذه الأشياء...

– أوه! سيكون ذلك سخيفاً... مع مبادئي... وليبراليّتي... والتزامي... وبالنسبة لشخصي أيضاً...

– لا شيء! تستطيع تبرير ذلك بأنّها مجرد نزوة من زوجتك... وأنا أرى أنّ كلّ الناس صاروا يحملون مثل هذه الألقاب، حتّى باتت مثل الصليب! هل ترغب في أنْ أكلّم وزير العدل؟

– لا، ابداً... لا أرجوك... لا أعتقد أنّني لمحت إلى استعدادي للقبول... لست أدري حقّاً، وهنا أحتاج بصدق إلى التفكير، الى العودة إلى ذاتي، وتقدير واجبي... إلى أنْ أكون لذاتي أكثر، ولك أنتِ أقلّ، قبل أنْ أعطيك جواباً.

– سوف أذهب لرؤية أمّك هذا الأسبوع، يا صاحبي، قالت السيّدة بورجو وهي تقف، وتصافحه: وداعاً، قالت بنبرة حزينة، الحياة تضحية!

– رينيه، قالت السيّدة موبران ذات مساء لابنتها، هل تريدين المجيء غداً لمشاهدة معرض اللورد مانسبوري؟ يبدو أنّه مثير للفضول، يقال إنّ هناك لوحة تباع بأكثر من مائة ألف فرنك... والسيّد باروس فكّر أنّ الأمر قد يهمك. وقد أرسل لي الكاتالوغ وبطاقة دخول. هل يناسبك ذلك؟

– أعتقد أنّه يناسبني، قالت رينيه، يناسبني تماماً.

وفي الغد، استغربت رينيه مجيء أمها لمساعدتها في زينتها والاهتمام بها وجعلها تعتمر قبعتها الأجدّ.

– ذلك، كما ترين، أنّ هذه المعارض يؤمّها الآن الكثيرون، قالت لها السيّدة موبران وهي تربط عقدة قبعتها، ينبغي أنْ تكوني لابسة مثل الجميع.

وبالرّغم من أنّ المعرض كان خاصّاً، فقد غصّت قاعة عرض مجموعة اللورد مانسبوري بالحضور، في الطابق الأوّل من دارة الدلّالين. ذلك أنّ شهرة اللّوحات، وحتّى فضيحة البيع الاضطراريّ، على ما يقال، والمتأتّي من هوَس اللورد مانسبوري وبذخه إزاء ممثّلة في الباليه روايال، لعبت دوراً في جلب مرتادي صالة درُووُو للمزادات، والناس الذين تجلبهم إليه الموضة منذ بضعة أعوام، وكلّ جمهور السلع المتنوّعة الرخيصة الثمن، ومتسكّعي الفنّ، والهواة المعروفين وكلّ فضوليّي باريس تقريباً.

تسبّب ذلك في الاضطرار إلى رفع اللوحات الثلاث أو الأربع الثمينة المعروضة للبيع إلى أعلى الجدران، بعيداً عن متناول الجمهور. وفي القاعة، كانت تُسمع تلك الضجة المكتومة، الملازمة لعمليات البيع لدى الأغنياء، ذلك الطنين للأسعار المتزايدة، والنزوات المشتعلة، والجنون المنتشر، ومنافسات أصحاب البنوك وغرور المال وهو يلتهب. جلبة مزادات خفيضة تنتقل من مجموعة إلى أخرى. «الحركة تزداد» كما يقول التجّار.

وجدت السيّدة موبران وابنتها، في مدخل القاعة، باروس يمسك به من ذراعه رجل في حوالى الثلاثين من عمره. كان للشابّ عينان واسعتان وديعتان وكان يمكنهما أنْ تكونا جميلتين لو لم تكونا

على قدر من الغباء. كانت هيئته المتضخمة ببدانة تجعله من الوجوه السائدة.

– أخيراً، يا سيّدتي، قال باروس مخاطباً السيّدة موبران: اسمحا لي بتقديم صديقي الشابّ، السيّد لومونييه... وهو يعرف التشكيلة الفنية جيّداً، وإذا احتجتما إلى دليل، فسوف يرافقكما إلى الأماكن المناسبة... أمّا أنا فأستأذن منكما كي أذهب لدفع شيء ما في القاعة رقم 3.

وقاموا بجولة في القاعة. قاد السيّد لومونييه السيّدة موبران وابنتها إلى لوحات أشهر الفنانين، وفسّر مضامين اللوحات دون أنْ يخوض في فن الرسم. وشعرت رينيه في داخلها بالامتنان نحوه من دون معرفة السبب. وبعد استكمال مشاهدة المعرض، تخلت السيّدة موبران عن ذراع السيّد لومونييه، وشكرته، وأعقب ذلك تبادل السلام.

رغبت رينيه في رؤية قاعة مجاورة. وما شاهدته منذ البداية كان ظَهر السيّد باروس، ظَهر هاوٍ في أوج حماسة البيع. كان جالساً على أقرب كرسي من الدلّال، بجانب تاجرة ذات قلنسوة، لا يكفّ عن دفع مرفقها، والاصطدام بركبتيها، والصراخ المحموم بمزادات يظنّ أنّه يخفيها عن الدلّال، وعن المنادي، وعن الخبير، وعن القاعة.

– هيّا بنا، تعالي، لقد رأيتها كفاية، قالت السيّدة موبران بعد وقت قصير، ثمّ لا تنسي أنّ اليوم هو يوم أختك؛ والوقت ليس متأخراً. لم نزرها هذه السنة. وسوف تكون مسرورة.

كانت أخت رينيه، ابنة السيّدة موبران البكر، وهي السيّدة دافارند، «امرأة مجتمعٍ راقٍ» بأتمّ معنى الكلمة. والمجتمع الرّاقي يملأ حياتها وكامل رأسها. وكانت تحلم بذلك منذ طفولتها. وأثناء تناولها الأوّل للقربان بدأت تطمح إلى ذلك. ولقد تزوّجت في مقتبل شبابها. وتزوّجت أوّل رجل «مناسب» عُرِضَ عليها، من دون تردد، من دون ارتباك، ومن الوهلة الأولى. لم يكن السيّد دافارند هو من تتزوّجه بل الموقع. فالزواج عندها يعني العربة، والألماس، والخدم، والدعوات، والمعارف، والنزهات في الغابة. وبالفعل حصلت على كلّ ذلك، وتغاضت عن الإنجاب، وتعلقت بتبرجها، وكانت سعيدة. ثلاث حفلات راقصة في سهرة واحدة، أربعون بطاقة دعوة للعشاء، والركض على مرّ الأيّام؛ لم تكن لتتصوّر وجود سعادة بتاتاً خارج ذلك الإيقاع.

ولأنّ السيّدة دافارند تعطي كلّ شيء للمجتمع الرّاقي، فهي تستدين منه كلّ شيء، أفكاره، أحكامه، أساليب إحسانه، عبارات قلبه، طرق حساسيته. فكانت لها آراء النساء اللواتي يذهبن

لتصفيف شعرهنّ عند لور. وهي تفكّر في ما يكون التفكير فيه متميّزاً، كما ترتدي ما يتميز ارتداؤه. كلّ شيء، ابتداء من حركاتها وصولاً إلى أثاث صالونها، من اللعبة التي تلعبها إلى الصدقة التي تقدّمها، من الجريدة التي تقرؤها إلى الطبخة التي تقترحها على طباخها، يهدف إلى تحقيق الطراز الجيد: كان الطراز الجيد هو قانونها ومعتقدها. كانت تقتفي أثر الموضة حيثما ذهبت، وصولاً إلى مسرح «البوف باريزيان». ولقد تعلّمت كيف تتعرّف على بعض الفتيات في نزهات الغابة كي تناديهنّ باسمائهنّ: فذلك شيء ممتع. وكانت تضيف إلى اسم شهرتها حرفَي نبالة[44]، من أجل المزيد من الوجاهة.

كانت السيّدة دافارند ورعة: وكان الرب يبدو لها أنيقاً. واعتبرت أن عدم وضع قفازين يعتبر عملاً غير لائق ويعادل الافتقار إلى خورنية. ولقد اختارت واحدة من تلك الكنائس التي تشهد الأعراس الجميلة، وتتبادل الأسماء الكبيرة التحايا فيها، حيث تكون المقاعد مزيّنة بشعارات النبالة، وخادم الكنيسة يلمع ذهباً، والبخور يعبق بعشب البتشولي العطر، وحيث فناء الكنيسة يوم الأحد، عند الخروج من القداس الكبير، يشبه ردهة الطليان بعد إنشاد ماريو. كانت تحضر مواعظ الواعظين الذين يجب على المرء أنْ يكون قد استمع إليهم. كانت تعترف، ليس على كرسي الكنيسة، لكنْ بين مجموعة من الناس. يلعب اسم الكاهن وشخصيته دوراً كبيراً في مناولة القرابين؛ وكان من شأنها ألا تصدق أنّها متزوّجة لو تم زواجها على يدي كاهن آخر غير القسّ بلومبوَا، وهي تشكّ في نجاح عملية التعميد إذا لم تُرسل ورقة بمائتي ألف فرنك إلى الخوري في علبة حلوى.

هذه المرأة، المنغمسة بكاملها في المجتمع الرّاقي، حتّى في الكنيسة وفي تبادل السلام، كانت تتحلّى بالفضيلة، بطريقة مطلقة، طبيعية، فطرية، من دون أن يخالط فضيلتها جهد أو استحقاق أو وعي. في ذلك الإعصار، وذلك الهواء الزائف، وذلك المناخ الساخن، ومع استسلامها لكلّ مناسبات والتماسات حياة الصالونات، لم تكن تمتلك القلب الضروري للمرأة كي تحلم، ولا العقل الضروري للشعور بالضجر. كانت تعاني من فقدان الشهية والفضول. وتنتمي إلى تلك الطبائع السعيدة ذات الأفق الضيق، ولا تشعر بالخطأ. وتتحلى بحكمة لا يمكن التشكيك فيها كما لدى بعض نساء باريس ممن يخترقهنّ الإغواء ولا يلامسهنّ؛ كانت شريفة مثلما يكون الرخام بارداً. وحتّى على مستوى الجسد نفسه، كان عالَم الصالونات، كما يحدث أحياناً للأمزجة الكسول والهشة، يفصلها عن الشهوة مستخدماً قواها، وكل نشاطها العصبيّ، والنبض القليل الذي تمتلكه من دمها، في اضطرابات

الزيارات والجولات، والأعمال الوديّة، ومتاعب السهرات، وإرهاق الليالي، وانفعال الصباحات. هناك أدوار لنساء المجتمع الرّاقي في باريس تبدو، من خلال استنفاد الحياة والحمّى، ونزاع الطاقة واللطف، أشبه ما تكون بمهن الفوارس وراقصات الحبال اللائي تذوب أمزجتهنّ في تعب التمرينات.

التقت السيّدة موبران وابنتها بالسيّدة دافارند في قاعة أكلها، وكانت ترافق، بمحبّة فائقة، سيّداً أمرد، يضع نظارتين زرقاوين.

– عذراً، قالت وهي تعود لتقبيل أمّها وأختها، إنّه السيّد لوردونو، المهندس المعماري لكنيسة قلب يسوع الأقدس... أعالجه من أجل جمع التبرّعات... لقد جعلني أحظى بألف ومائتي فرنك، هل تعلمين، آخر مرّة... جميل: السيّدة برتيفال لم تتجاوز ثمانمائة... أخيراً أراكما... هذه مبادرة لطيفة. ادخلا إذن، ليس معي أحد اليوم: السيّدة دوتيزينييه، السيّدة دو شامبرومار والسيّدة دو سان سوفور، هؤلاء فقط؛ ويضاف إليهنّ صغيران طيبان، دو لورزاك الصغير، وأنت تعرفينه يا أمّي كما أعتقد، وصديقه دو ميزونسيل... انتظري، قالت لرينيه وهي توجّه ضربة خفيفة إلى شعرها كي تخفضه، بالغت في تمشيط شعرك على جبينك... وفتحت باب الصالون:

– أمّي وأختي، يا سيّداتي...

أعقب ذلك وقوف، وسلام، وعودة إلى الجلوس، وتبادل للنظرات. كانت صديقات السيّدة دافارند الثلاث غاطسات في المقاعد الواسعة المنجّدة، مع الوضعيات الرخوة التي يفرضها الأثاث اللين، فيلحن ظريفات كلّهنّ، نصف مغطّيات بفساتينهنّ الواسعة وتنانيرهنّ العريضة التي ارتفعت إلى ما تحت أذرعتهنّ. لباس جميل، قبّعات صغيرة بديعة، قفازات لتغطية أيدي دمى، مشدّ تفنن فيه فنان، مع الزينة والأشياء العديدة التافهة التي تساهم في زيادة قيمتها، والحركات الجميلة، والوضع المثير، وفنطازيّة الحركة، ونزوة الجسد وحركته، والحفيف، صوت حرير الأناقة، كنّ يتحلين بكلّ ما تصنع به الباريسية فتنتها، ومن دون أنْ يكنّ جميلات، يجدن الوسيلة ليكنّ مليحات تقريباً، مع ابتسامة، ونظرة، وتفاصيل، ومظاهر، ولمَعان، وحيوية، ونوع من الاصطخاب الخفيف في الهيئة.

وكان الصديقان، لورزاك وميزونسال، يجلسان باحترام على طرفي مقعديهما. وهما في زهرة العشرين من العمر، ورديان وأبيضان، لامعان بالصحة، وما زالت عليهما بقايا طفولة، أمردان ومجعدا الشعر، وسعيدان بقبولهما في حضرة سيّدة شابّة. كانا شابّين مهذبين كثيراً. وقد خرجا من

مدرسة داخلية يشرف عليها قسّ يوفّر لهما كلّ مساء سهرة ترأسها أخته، مع كوب من الشاي في قاعة البلياردو.

تواصل الحوار.

– هنرييت، قالت السيّدة دو تيزينييه مخاطبة السيّدة دافارند، هل سنذهب غداً لحضور زواج الآنسة دوبوسان؟ قيل لي إن الجميع ذاهبون للحضور... هذا الزواج يُحدث ضجة!

– إذنْ، ستأتين لأخذي معك... والعريس، كيف هو؟ من يعلم؟ هل تعرفينه يا سيّدة دوسان سوفور؟

– كلّا، أبداً.

– هل هي موفقة في هذا الزواج؟

– شنيع، قالت السيّدة دو شامبرومار، لا يملك شيئاً... دخلُه خمسة عشر ألف ليرة، لا غير.

– لكنْ، جازفت السيّدة موبران بالقول، مع ذلك يبدو لي، يا سيّدتي، أنّ إيراداً بخمسة عشر ألف ليرة...

– أوه! يا سيّدتي، تابعت السيّدة دو شامبرومار، هذا لا يكفي حتّى لتغيير هياكل الحليّ، في هذا الوقت، وبهذا المبلغ...

– سيّد دولورزاك، قالت السيّدة دافارند، هل ستذهب إلى هذا العرس؟

– سوف أذهب إذا رغبتِ في ذلك...

– حسناً! أنا أرغب في ذلك. عليك أنْ تحجز لي مقعدين. من دون ذلك يحلّ ضرر بفستاني. يمكننا ارتداء اللون الرمادي اللؤلؤي، أليس كذلك؟

– أكيد، أجابت السيّدة دو تيزينييه، إنّه زواج من الطراز العتيق. يا سيّد دوميزانسيل، احجزْ مقعدين لي أنا ايضاً، لا تنسَ...

انحنى دوميزانسيل.

– وإذا كنت عاقلة جدّاً، فسوف آخذك يوم الإربعاء إلى حفلتي الراقصة...

احمرّ دولورزاك خجلاً من دوميزانسيل.

– ألا ترتادين الصالونات، يا آنسة؟ سألت السيّدة دو سان سوفور رينيه التي كانت جالسة بقربها.

– كلّا، يا سيّدتي، لا أحبّ ذلك، أجابت الآنسة موبران بنبرة لا تخلو من جفاف.

– يا جولي، قالت السيّدة دوتيزينييه إلى السيّدة دوشامبرومار، أعيدي وصف قاعة زواجك التي ذاع صيتها... فالسيّدة دافارند لم تكن حاضرة... اسمعي قليلاً يا عزيزتي.

– حسناً! كانت غاسلة ملابسي هي التي حكت لي ذلك... وليكنْ في علمك أنّ الجدران كانت مغلفة بالساتان الأبيض، مع إلصاق دانتيلا من الحرير الأشقر وكشكش من الساتان المناسب لرسم إطارات اللوحات... أمّا الملاءات، وقد أروني عينة منها، فكانت من قماش الباتيسته... على شكل نسيج عنكبوت! والحشيات من الساتان الأبيض... ومبطّنة بعقد حرير محلول أزرق سماوي يُشاهد عبر الملاءة... وما سيثير دهشتك أكثر هو أنّ كلّ ذلك إنما كان لامرأة شريفة.

– آه! نعم، قالت السيّدة دو سان سوفور، ذلك هو الأكثر إدهاشاً... فكلّ شيء اليوم صار للمتغنّجات... ألا تعرفن ما يحدث لي في الريف؟ أمر قبيح: لديّ جارة شرّيرة. نتقابل في القدّاس، ولها مقعد، نعم! منذ أنْ وصلت للبلد رفعت سعر كلّ شيء... معنى ذلك أنّه يصعب الحصول على عاملة، في القصر، بأقلّ من خمسة عشر فلساً... المال بالنسبة لتلك المخلوقات، أنتم تفهمون، لا يكلّفها شيئاً... يضاف إلى ذلك أنّ هذه اللئيمة محبوبة أيضاً. فهي تذهب لعلاج الفلاحين، وتشغّل أطفالاً وتعطيهم حتّى العشرين فرنكاً... قبلها، كنّا نقوم ببعض الأشياء المفيدة بسعر زهيد؛ أمّا الآن فلم يعد ذلك ممكناً... أمر لا يصدّق، أخبرت الخوري أنّه وضع مخزٍ... ونحن مدينون بذلك إلى أحد أقاربك، يا سيّد دولورزاك، هو ابن عمك السيّد دورومبو... بلّغه تحياتي عندما تراه...

انقلب الشابّان ضاحكين على مقعديهما، وعضّا في حركة متشابهة على عكازيهما.

– ومن أين جئتما هكذا؟ سألت السيّدة دافارند أمها وأختها.

– من مبنى الدلّالين، أجابت السيّدة موبران، جرّنا السيّد باروس إلى معرض لوحات...

– معرض اللورد مانسبوري، قالت رينيه.

– حسناً، يجب أنْ نذهب إلى سوق المزاد، يا هنرييت، قالت السيّدة دو تيزينييه؛ نذهب لجمع بعض الأشياء العتيقة... وفي ذلك تسلية.

– هل رأيت معرض السيّدة بتروشي، يا عزيزتي؟ قالت السيّدة دوسان سوفور.

– وهل هي تتوصّل إلى البيع؟ سألت السيّدة دو تيزينييه.

– كنت أرغب في الذهاب للمعرض... قالت السيّدة دافارند. لو علمت أنك كنت ذاهبة...

– ذهبنا كلّنا، قاطعتها السيّدة دوسان سوفور... كان مثيراً للفضول... وكان هناك واجهة للمجوهرات... من بينها قلادة من اللآلي السوداء... وأشياء أخرى... لو أنك رأيتها!... كانت مرتّبة في صفوف ثلاثة... لا يوجد زوج في العالم يمكن أن يهدي ذلك: لا بد من اكتتاب يشمل البلد كلّه...

– ألن نرى زوجك؟ سألت السيّدة موبران السيّدة دافارند.

– أوه! زوجي لا يحضر جلساتي أبداً، والشكر للرب! قالت السيّدة دفارند والتفتت لسماعها أثر دخول خلفها: كان ذلك باروس، يتبعه الشابّ الذي التقى به في قصر الدلّالين مع السيّدة موبران.

– آه! نلتقي من جديد، قال وهو يضع علبة الكرتون التي لا تفارقه على مقعد.

ابتسمت رينيه.

وعادت الثرثرة:

– هل قرأتم هذه الرواية... هذه الرواية؟

– في جريدة «لوكونستيتوسيونيل»؟

– كلّا.

– جريدة... آه! لم أعد أتذكّر الاسم... اسمها... انتظروا...

– الجميع يتحدّثون عنها...

– اقرؤوها...

– سوف يأخذها منّي زوجي للجمعية...

– وتلك المسرحية هل هي مسلية؟

– لا أحب إلّا الدراما.

– هل نذهب لمشاهدتها؟

– نحجز مقصورة.

– يوم الجمعة؟

– كلّا، يوم السبت.

– ماذا لو تناولنا العشاء بعد ذلك.

– هذا ما سيكون.

– في مطعم البروفنسو؟

– أوه! هذا يطبخ ما نطبخه نحن...

وكان هناك كلام، وإجابات وعدم إنصات. كلّهنّ يقوقئن معاً. وتتقاطع الكلمات والأسئلة والأصوات في الثرثرة: كان تلك زقزقات في مبنى لتربية الطيور. فُتح الباب.

– لا تزعجوا أنفسكم، لا أحد، قالت امرأة شابّة أثناء دخولها، وكانت طويلة، نحيلة، ترتدي الأسود، صعدت لدى مروري، لن أبقى أكثر من دقيقة...

سلمت على السيّدات، ووقفت أمام المدفأة، ومرفقها على رخامها، ويداها في غطاء فراء لتدفئَة اليدين، ألقت نظرة على المرآة، ومدت باتجاه النار، رافعةً تنورتها قليلاً، النعالَ الناعم لحذائها النصفي، وتابعت:

– هنرييت، لقد جئت طلباً لخدمة، خدمة كبيرة... يجب عليك مطلقاً أنْ تتكفّلي بدعوات الحفل الراقص الذي يقدّمه آل برودمر، تعلمين، هم أولئك الأميركيّون الذين جاؤوا مؤخّراً، ويمتلكون شقة قيمتها أربعون ألف فرنك في شارع السلام.

– آه! آل برودمير، قالت السيّدة دو تيزينييه، نعم... نعم...

– لكنْ، يا عزيزتي، قالت السيّدة دافارند، الأمر محرج. أنا لا أعرفهم... هل تعرفين شيئاً عنهم على الأقلّ؟

– حسناً! هم أميركيون... جمعوا ثروتهم من تجارة القطن، والشمع، وصبغة النيلة، والعبيد، ولا أعلم ماذا أيضاً... لكنّي أطلب منك ذلك لأنّ فيه خيراً لنا! ثمّ إنّ الأمريكي، حاليّاً، مقبول... أنا، منذ البداية، بالنسبة للناس الذين يُعدون حفلات راقصة، لا أطلب منهم إلّا شيئاً واحداً، ألا يكونوا منتمين إلى البوليس وأنْ يقدّموا عشاء فاخراً... سوف تكون الأجواء رائعة عندهم كما يبدو... المرأة مدهشة... تتكلّم فرنسية الغابات البكر... يقال إنّها تحمل وشماً منذ طفولتها... ولا يمنعها ذلك من ارتداء الثياب المقوّرة... هذا أمر طريف! سوف تسلّيك... يريدون حضور أناس راقين، فهمتِ... افعلي ذلك من أجلي، أليس كذلك؟ أؤكّد لك، لو لم أكن في حداد، لكنت أنا التي تضع في أسفل الدعوة: «من طرف البارونة دو ليرمون...» ثمّ إنّهم أناس يجيدون فعل الأشياء... أوه! هذا الأمر أنا متأكّدة منه... من المستحيل ألا يعطوك شيئاً.

– أوه! مثلاً، حتّى إذا تكفّلت ببطاقات الدعوة لا أريد هدايا...

– ما أظرفك! إنّه شيء يتمّ يومياً... وصار جزءاً من الأعراف... هذا يشبه رفضك منهم كيس كستناء مثلّجة في رأس السنة! وهنا يجب أنْ أغادر... سوف آتيك غداً بأصدقائي

المتوحّشين... وداعاً، وداعاً... وبالمناسبة، أنا أحتضر...

وغادرت بعد هذه الكلمات.

– هل هذا صحيح؟ سألت رينيه أختها.

– ماذا؟

– تزويد الناس بالهدايا أثناء الحفلات؟

– ماذا، ألا تعلمين؟

– كنت أجهل ذلك أنا أيضاً، قال الشابّ الذي جلبه باروس.

– إنّها خدمة ملائمة جدّاً للأجانب، تابعت السيّدة دافارند.

– نعم، لكن هذا لا يخلو من إهانة للباريسيين، كما يبدو لي؛ أليس كذلك، يا آنسة؟ والتفت الشابّ ناحية الآنسة موبران.

– آه! لقد تمّ قبول ذلك، قالت السيّدة دافارند.

23

وصلت السيّدة بورجو مع ابنتها للتو إلى منزل آل موبران. قبّلت رينيه على جبينها وجلست بجانب السيّدة موبران على الكنبة، قرب المدفأة.

– يا آنستيّ، قالت ملتفتة صوب الفتاتين اللتين كانتا تهذران عند الركن، ماذا لو تركتما والدتيكما تتحدّثان قليلاً؟ تنزّهي قليلاً بنؤيمي يا رينيه، أعهد بها إليك.

أمسكت رينيه نؤيمي من خصرها، وجرّتها معها واثبةً، وتناولت من مقعد في غرفة الانتظار قبعة عريضة الحافة من البيرينيه وضعتها على رأسها، وانتعلت قبقاباً صغيراً وشرعت تركض في الحديقة، مبتهجة، مع تحليقات بنية صغيرة، دون أنْ تترك صديقتها. ثمّ توقفت بغتة، لاهثة: يوجد سرّ! يوجد سرّ! هل تعرفين السرّ؟ نظرت إليها نؤيمي بعينين واسعتين حزينتين ولم تجبْ.

– مؤسف! قالت رينيه وهي تقبّلها. أنا أحزر... التقطتُ كلمات... أمّي لا تحكي شيئاً! الأمر يتعلّق بالسيّد شقيقي، نعم...

– لنجلس؛ لو سمحت؟ أنا متعبة.

وجلست نؤيمي على المقعد، في المكان الذي كانت أمها قد جلست فيه ليلة العرض.

– لكنّك تبكين؟ ماذا أصابك؟ قالت رينيه. والتصقت بها. تركت نؤيمي رأسها ينساب على كتفها، وانفجرت بالبكاء، بدموع حرّى أحستْ بها رينيه تنهمر ساخنة على يدها.

– ماذا؟ قولي! أجيبيني، كلميني!... نؤيمي... هيّا، يا صغيرتي نؤيمي؟

– أوه! أنت لا تدرين... أجابت نؤيمي بكلمات متقطّعة وكأنّها تختنق. لا أريد... اتركيني... أنقذيني إنْ كنت تعلمين! وارتمت بيأس على رقبة رينيه: مع أني أحبّك كثيراً، أنت!

– مهلاً يا نؤيمي، لست أفهم شيئاً في ما تقولين... هل هو هذا الزواج؟ هل هو أخي؟ أريدك أنْ تجيبيني، هل تسمعين؟

– آه! صحيح، أنت أخته... عجباً! لم أعد أفكر في ذلك... لستِ على علم؟ أرغب في الموت...

– الموت!... لماذا؟

– حسناً! لأنّ أخاك...

وتوقفت أمام هول أنْ تقول ما ستقوله بصوت عالٍ، وأنهت جملتها بهمس في أذن رينيه، وتركت رأسها يسقط على صدر صديقتها، حيث أخفتْ خزي روحها وحمرة خديها.

– أخي؟... تقولين؟... أنت تكذبين!

ودفعتها، وانتصبت واثبةً قبالتها.

– أنا؟ واكتفت نؤيمي برفع عينين نحو رينيه، حيث كانت الحقيقة تسطع مثل النور.

وأمام تلك النظرة كتّفت رينيه ذراعيها. وظلت لحظات منتصبة القامة، صامتة، في هيئة حازمة، حيّة ومتأمّلة. أحست في داخلها بقوّة امرأة وبما يكاد يشكّل واجبات أمّ تجاه هذه الطفلة. فتابعت:

– لكنْ، أبوكِ كيف؟... أخي لا يتحلى بلقب...

– يجب أنْ يحصل على واحد..

– آه! سيتخلّى عن لقبنا؟ حسناً يفعل!

– ماذا! هذه أنت؟ لم تنامي بعد؟ قال هنري مخاطباً رينيه، وهي تدخل ليلاً إلى غرفته. كان يدخّن. كان في تلك اللحظة السعيدة التي يكون فيها الرجل، بخفّ في قدميه، وقدماه على رخام المدفأة، وهو غاطس في مقعد مريح، يجترّ أحلامه، نافثاً بكسلٍ دخانَ آخر سيجار نحو السقف.

كان يفكر في كلّ ما حدث له منذ أشهر. ويهنئ نفسه على براعته في المناورة. واستعاد في ذهنه تلك الفكرة المتعلّقة بالمسرحية التي أطلقها في هواء الحديقة مساء، وغيابه عن التمارين الأولى، ولامبالاته الباردة نحو نؤيمي لطمأنتها، وإنهاء نفورها ورفضها التمثيل. كان يفكر في عمله الرائع، وحبه المعروض فجأة على غيرة الأمّ في أوج العرض، وإفلاته منه كما لو أنّ الدور الذي كان يمثله يقتلع منه سرّ قلبه. وما أعقب ذلك، من طريقة دفعه ذلك الحبّ الأخير إلى حافة اليأس، إلى هيئته خلال اللقاء الأخير، كلّ ذلك كان يعود إليه؛ وكان يشعر بنوع من الزهو بنفسه، متذكّراً الكثير من الظروف المقدّرة، والمدبّرة، والمرتّبة مسبقاً، والتي أُعدّتْ بطريقة طبيعية وألقيتْ من قبله في شغف امرأة تبلغ الأربعين.

– هذه أنا... لا أرغب في النوم هذه الليلة، وسحبت رينيه منضدة وطيئة صغيرة قرب المدفأة، وجلست، أرغب في الثرثرة كما كنّا نفعل في الماضي، هل تتذكّر؟ عندما لم تكن لك شقة في باريس... آه! لقد عوّدتني على السيجار، والغليون، وكل شيء، هنا. كم ثرثرناعندما كان الجميع نائمين! لقد ضحكنا كثيراً، وتلفّظنا بالكثير من الحماقات عند ركن هذه المدفأة، هنا... أمّا الآن فالسيّد شقيقي رجل جادّ...

– كما يكون الجِدّ تماماً، قال هنري مبتسماً، فأنا سأتزوّج.

– أوه! قالت، أنا لا أصدّق... أرجوك...

وارتمت على ركبتيه وأمسكت بيديه:

– انتبه، هذي أنا... أوه! لن تفعل ذلك من أجل المال! أتوسل إليك، أنا أجثو على ركبتيك، وأنت ترى ذلك جيّداً. زد على ذلك أنّ تخلّي المرءِ عن اسم أبيه يجلب له النحس... إنّه دمنا، هذا

الاسم، يا هنري... والدنا الطيب! لا تُتمّ هذاه الزيجة، أتوسل إليك... إنْ كنت تحبني... إنْ كنت تحبنا كلّنا... أوه! أتوسل إليك!

– ما هذا، هل أصبت بالجنون؟ ما هذه التمثيلية؟... هيّا، يكفي، انهضي!

وقفت رينيه، وحدقتْ في عينيْ أخيها:

– نؤيمي أخبرتني... بكلّ شيء!

احمرّ خداها. أمّا هنري فكان شاحباً كما لو أنّ أحدهم بصق في وجهه.

– مع ذلك، لا يمكنك الزواج من ابنتها! صاحت.

– عزيزتي، أجاب هنري بصوت بارد لكنّه يرتعش، يبدو لي أنك تتدخلين في أمور لا تخصك. واسمحي لي أنْ أقول لك.. بالنسبة لفتاة شابّة...

– آه! إنّه وحل لا يحسن بي معرفته، صحيح! وما كنت سأعرفه لولاك!

– عزيزتي!...

وتقدّم هنري نحو أخته. كانت في حالة غضب ممتقع مخيف. ارتعبت رينيه وتقهقرت إلى الوراء. أمسك بيدها، وأشار إلى الباب قائلاً لها: «اخرجي!».

ورآها، للحظة، في الردهة، تستند بيدها على الجدار.

– اصعدْ يا هنري، قال السيّد موبران، مخاطباً ابنه. وبما أنّ هنري كان يريد تركه يسبقه، كرّر السيّد موبران: – اصعدْ.

وبعد نصف ساعة، كان الأب والابن يعودان إلى النزول من عند وزير العدل.

– حسناً يا هنري! لاشك أنك مسرور منّي الآن، قال السيّد موبران، وقد احمرّ وجهه. لقد فعلت ما تريد أنت وأمك... وذلك اللقب... سوف تحصل عليه...

– أبي...

– ليكنْ، لا حاجة إلى إعادة الحديث... هل ستعود معي؟ قال له وهو يزرّر سترة الرودنغوت بالحركة العسكرية التي يحزم بها الجنود القدامى تأثّرهم.

– كلّا، يا أبي، أستأذن لتركك... لديّ الكثير ممّا يجب إنجازه اليوم... سوف أجيء غداً للعشاء...

– إذنْ إلى اللقاء غداً... يحسن بك المجيء... ما زالت أختك متألّمة.

ما إن رأى هنري عربة أبيه تبتعد حتّى رفع رأسه، ونظر إلى ساعته، وبخطوة مرحة ومنطلقة لرجُلٍ يشعر بهبوب رياح الثروة على ظهره، انطلق في شارع السّلام.

في زاوية شارع شوسيه دانتان، دخل إلى مقهى بينيون، حيث كان ينتظره كثير من الشبّان البدينين الذين تفوح منهم رائحة المال والريف.

مرّ الغداء في الحديث عن المناظرات الإقليمية، ثمّ حول الشوارع التي يذهبون لتدخين سيجار فيها، وانتقل الحديث إلى مسائل المناوبة الزراعية، وتصريف المياه، والإصلاح بالكلس، وانتقل إلى الانتخابات، ونظام المقاطعات، وحظوظ الترشّحات المرسومة والمعدَّة والمجرّبة في جمعية المزارعين. في الساعة الثانية غادر هنري أولئك السادة واعداً أحدهم بمقالة حول امرأته

المثالية، وصعد إلى جمعيته، تصفح الجرائد، ثمّ كتب ببطء في مذكرته شيئاً يبدو أنّه يتطلب منه جهداً تحريرياً كبيراً.

ومن هناك أسرع يقرأ تقريراً لشركة تأمينات، في لجنة المراقبة التي تمكّن من حشر نفسه فيها، بفضل شهرة والده وتشريفه الصناعيّ. في الساعة الرابعة، قفز إلى عربة مقفلة وقام بجولة زيارات إلى نساء لديهنّ صالونات، ونفوذ، وعلاقات مفيدة لمهنة رجل. تذكّر أنّه لم يسدّد اشتراكه في جمعية التشغيل الجيّد للعمّال أيّام الآحاد: فذهب وسدّده.

في الساعة السابعة صعد سلّم لوماردولي، بشفتين شرعتا في الابتسام وقبضة يد جاهزة تماماً، متجهاً إلى «الجمعية الوديّة» لقدامى مدرسته التي تقدّم مأدبتها السنوية. وخلال وقت التحلية، أخذ الكلمة، واستظهر بالخطبة التي ارتجلها خلال النهار في ناديه، تحدّث فيها عن المحبّة الأخوية، والعائلة المستعادة، والصلة بين الماضي والمستقبل، ومساعدة الرفاق القدامى ممّنْ أصابهم مكروه غير مستحقّ. وانفجر التصفيق: اختفى الخطيب. فقد انتقل إلى ندوة داغيسو، وغادرها، ثمّ تناول ربطة عنق بيضاء من جيبه، ووضعها بينما هو في العربة، وظهر أيضاً في ثلاث سهرات أو أربع.

كانت طعنة القلب التي شعرت بها رينيه لدى خروجها من غرفة أخيها، والتي زعزعتها للحظة، قد تركت لديها وجيباً. وظلت مريضة حوالى ثمانية أيّام. وتقهقر الألم بفضل حمية مناسبة وبعض أقراص زهر القمعية. لكنّها ظلت حزينة، حزناً لم ينجح مرور الزمن في معالجته. وعندما رآها مريضة، وكان عارفاً بمصدر مرضها طبعاً، فعل هنري كلّ ما بوسعه كي يقترب منها. أحاطها بالعناية والمداعبة والاهتمام واضعاً ما يشبه ندمه في كلّ ذلك. حاول ملاطفة ذلك القلب وتهدئة ذلك الإحساس، وطمأنة تلك الروح المغتاظة. غير أنّه كان يشعر لديها دائماً ببرود، ونفور، وبنوع من الحسم الذي لا يستجيب فيبعث فيه الخوف. لم تنسَ، وقد أدرك ذلك، إلّا الإهانة المتأتية من فظاظته: لقد غفرت للأخ، وليس للرجل.

ذات يوم، كانت أمها سترافقها إلى باريس لتسليتها، لكنّها أصيبت بوعكة وقت الخروج. وكان لهنري شؤون سيقضيها، فاقترح أنْ يوصل شقيقته. وانطلقا. ولدى وصولهما إلى باريس، وبينما كانا يمرّان في شارع ريشوليو، أمام المكتبة، أوقف هنري العربة المغلقة التي استقلّاها عند سكة الحديد. «هل لك أنْ تنتظريني لحظة؟ قال لأخته؛ لديّ ما سأطلبه من أمين الألقاب. لكن لمَ لا تأتين معي؟ كنت ترغبين دائماً في رؤية منمنمات مخطوطة... هي في القاعة نفسها... وسوف تتسلّين بالتفرج عليها... وفي الأثناء أذهب أنا لأسأل عمّا أريد...»

أمسكت رينيه بذراع أخيها وصعدا إلى قاعة المخطوطات. أجلسها هنري على حافة طاولة، وجلب لها كتاب طقوس كنسية، ثمّ ذهب ليكلم أحد الأمناء، عبر كوة نافذة.

كانت رينيه تتصفح كتابها ببطء. وراءها، ساعي قاعة يتدفّأ عند منفذ حرارة. وسرعان ما التحق به ساعٍ آخر كان قد جلب مجلّدات وألقاباً إلى المكتب الذي كان هنري يتحدّث قربه. وسمعت رينيه ما يلي، وقد قيل وراء ظهرها على بعد خطوتين منها:

– اسمع يا شامرو، هل ترى ذلك السيّد الشابّ؟

– نعم، في مكتب السيّد ريزار.

– حسناً! يمكنه التبجّح بقلة معلوماته! لقد سأل عما إذا كانت توجد عائلة دوفيلاكور في الماضي، وهل انقرضت... فقيل له أنْ نعم... أمّا أنا، فلو سألني، لقلت له لا بد أن يكون لها بعض الفروع... لا أعلم إن كانوا هم ذاتهم أم لا... لكن المؤكّد أنهم كانوا موجودين عندما غادرتُ البلاد، وأعرف أحدهم وهو قويّ جدّاً، إنّه البكر السيّد بواجورون؛ والدليل على ذلك أنّنا تصارعنا ذات مرة، وكان يضرب بعنف... قصرهم يوجد على بعد خطوتين من منزلنا... كان يوجد برج يُشاهد فوقه جبل سان ميهييل وأبعد... لكنّه لم يعد ملكهم على أيّامي... كم كانوا مبذّرين في تلك العائلة... أوه! من أطرف النبلاء! كانوا يعيشون مع صانعي الفحم، وفي غابة لاكروَا دو سولدا، واللّاموتْ نوار... مثل مخلوقات «السّتير» الأسطورية...

سان ميهييل، غابة لاكروَا دو سولدا، واللّاموتْ نوار، هذه الكلمات تغلغلت في دماغ رينيه.

– لقد أتممت كلّ شيء وحصلت على ما أريد، قال هنري مبتهجاً وهو يعود إليها. وعاد بها.

ترك دونوازال رينيه على البيانو، وشرع يتنزه في الحديقة. ولدى عودته إلى البيت فوجئ بسماعها تعزف قطعة ليست القطعة التي كانت تفك رموزها أمامها؛ وبغتةً انقطعت الموسيقى، ولم يعد يسمع شيئاً. توجه نحو قاعة الجلوس، دفع الباب: كانت رينيه جالسة على منضدتها، رأسها بين يديها، وهي تبكي بدموع حرّى.

– رينيه، يا إلهي! ماذا ألمّ بك؟ شهقت رينيه شهقتين أو ثلاثاً منعتها في البداية من الرد؛ ثمّ كفكفت دموعها، كما يفعل الأطفال، بظاهر يديها، وقالت له بصوت تخنقه الدموع:

– غباء... غباء... إنّه عمل شوبان... من أجل دفنه، أنت تعرف... قدّاسه... الذي ألّفه... أبي يمنعني دائماً من عزفه... وبما أنّه لا يوجد أحد بالمنزل اليوم... ثمّ إنّني كنت أحسبك في آخر الحديقة... أوه! كنت أدرك جيّداً هذا التأثير الذي سيتركه فيَّ... بي هوس البكاء على هذا الإيقاع... وها إنك ترى أنّني استمتعت... لكنْ هل في هذا غباء؟ أنا التي أُعتَبَرُ مرحة بطبعي...

– أخبريني، هل أنت متألمة، يا رينيه؟ هل تخفين شيئاً... لا يبكي المرء بهذه الطريقة...

– كلّا... لا أشكو من شيء، أؤكّد لك ذلك... أنا في أحسن حال... لا أشكو من شيء حقّاً... لو كنت أشكو من شيء لأخبرتك به، أليس كذلك؟... بدأت الحالة مع تلك الموسيقى الحقيرة... واليوم أحتاج إليك قليلاً! فاليوم وعدني أبي بالذهاب لرؤية قبعة القش الإيطالية... ولاحت ابتسامة تمرق في عينيها المبلّلتين، قبعة القش الإيطالية، هذا كلّ ما في الأمر، في الباليه رواايال! سوف أستمتع، أنا متأكّدة! أضفْ إلى ذلك أنّني لا أحب إلّا هذا النوع أولاً... العروض الأخرى، مثل الدراما، والمسرحيات العاطفية... أرى أنّنا نمتلك الكثير من الانفعالات فلا نحتاج إلى بذل جهد للبحث عنها... ثمّ إنّ انفعالاً نتقاسمه مع الجميع يشبه البكاء في منديل ليس ملكك، هذا رأيي... ويتم الذهاب جماعياً، تعرف ذلك... لقاء حقيقي بين شبّان! قال أبي إنّنا سوف نتناول العشاء في المطعم. وبالمناسبة أعدك باستعادة قهقهة البنيّة الصاخبة، تلك التي كنت أضحكها مع مربّيتي الانجليزية، هل تتذكّرها، مس... تتذكّر؟ تلك التي كانت تضع أشرطة برتقالية، وتنتشي في خزانتها

بماء الكولونيا! الإنجليزية الطيبة! وانطلقت أصابع رينيه مع هذه الكلمات تعزف بحيوية قطعة موسيقيّة حول كرنفال البندقيّة. ثمّ توقفت بغتة:

– وأنت، هل زرت البندقية؟

– نعم.

– هل يُعقل أنْ يوجد مكان من هذا النوع على وجه الأرض لا نعرفه ويجلبنا ونحلم به؟ يرى البعض أنّه بلد، ويجده غيرهم بلداً آخر... أنا، لم أرغب البتة إلّا في رؤية البندقية... البندقية بالنسبة لي، انتبه! تترك في داخلي أثراً يشبه... سأخبرك بحماقة... هي بالنسبة لي تشبه مدينة دُفِنَ فيها كلّ الموسيقيّين...

عادت إلى وضع يديها على ملامس البيانو، لكنّها اكتفت بملامستها لمساً خفيفاً بلا صوت، كما لو كانت تداعب بأناملها صمت البيانو. ثمّ تركت يديها تنسابان إلى ركبتيها، وتابعت، مسترخية في وضعِ تأمّلٍ، مع نصف التفاتة نحو دونوازال:

– على سبيل المثال، الحزن... يكون مخيماً فوقنا... لا نعرف... هناك أيّام مشمسة، لا نشكو فيها من شيء، ولا نشعر بالضجر، وما من كآبة محدقة... لكنّنا، نرغب في أن نكون حزينين، نبحث عن أفكار سوداء... يجب أنْ نبكي... وجدتني عدة مرّات أقول إنّني أعاني من داء الشقيقة، وأذهب للنوم، أغرز رأسي في مخدتي... فأشعر بالراحة! وفي تلك اللحظات نشعر بعدم رغبة في الحركة، والخروج من الحالة... هي حالة تشبه بداية الدوار: عذوبة في الإحساس برحيل القلب...

– هيّا! هيّا سأسرج حصانك، يا صغيرتي رينيه، ونقوم بجولة.

– حسناً! إنّها فكرة رائعة... لكنّني أنذرك: سوف أطير مثل الريح، اليوم!...

– ما العمل! هذا مونبروتون له أربعة أبناء... وليس له ثروة كبيرة، قال السيّد موبران وهو يطوي، متنهّداً، صحيفته التي قرأ فيها التعيينات الرسميّة للتوّ، ويضعها بعيدة عنه على المائدة.

– نعم، هذا ما يقال دائماً... ما إنْ يرتكب أحدهم نذالة حتّى يقال لك: إنّ له أبناء! كأنّما لا يكون للمرء أبناء في المجتمع إلّا من أجل ذلك، من أجل التسوّل... وارتكاب الكثير من الأعمال الشائنة! كما لو أنّ كونك أباً لعائلة يعطيك الحقّ في أنْ تكون وضيعاً....

– لحظة يا رينيه، حاول السيّد موبران القول.

– كلّا، هذا صحيح... أنا لا أعرف إلّا صنفين من الناس، أولاً: أولئك الذين يكونون شرفاء... والآخرون... أربعة أبناء! هذا الأمر لا يمكن أنْ يشكّل عذراً لأحد الآباء إلّا إذا سرق رغيفاً! وإلّا لكان من حقّ الأمّ الكثيرة الأولاد أنْ تستخدم السمّ، إذن!... أنا واثقة بأنّ دونوازال يفكّر مثلي...

– أنا؟ آه! كلّا، إطلاقاً! أتسامح مع المتزوّجين، مع أرباب العائلات. لا بل أرغب في الإحسان نفسه للناس الذين يعانون من علة، علة قد تؤدي إلى الإفلاس نوعاً ما، ومع ذلك يتمسكون بها... أمّا بالنسبة للآخرين، أولئك الذين ليس لهم منْ يجب إطعامه، لا علة ولا زوجة ولا أبناء، فإنهم يبيعون أنفسهم وينهارون، وينحنون، وينبطحون، ويغتنون، ويتذللون... آه! أولئك أنا في حلّ منهم...

– لن أعود إلى الحديث معك، قالت رينيه بنبرة متأثرة. المشكلة يا أبي، أنّني لا أفهم كيف لا تفقد صوابك أنت الذي طالما ضحيت بكلّ شيء من أجل آرائك... إنّ ما فعله يعتبر مقرفاً حقّاً.

– لكنّني لا أدّعي العكس... كلّ ما هنالك أنك تغضبين... تغضبين...

– نعم أغضب... وهناك مبرّر لهذا! كيف، هذا رجل مدين بكلّ شيء للحكومة السابقة... وكان يهاجم الحكومة الحالية، ثمّ ها هو ينضمّ إليها! كم هو بائس صديقك مونبروتون! بائس!

– آه! يا ابنتي العزيزة، من السهل قول مثل هذه الكلمات... سوف تجعلك الحياة أكثر تسامحاً عندما تكبرين أكثر... يجب أن تكوني وديعة أكثر، يا ابنتي... أنت شابّة...

– كلّا. هذا يجري في الدم، أنا مفرطة في بنوّتك، نعم!... ولن أتوصّل أبداً إلى التغاضي عن القذارات التي تثير اشمئزازي... في منتهى الانضباط، ما رأيك؟ لكنّني كلّما رأيت أحداً أعرفه... أو حتّى لا أعرفه... يتصرف بعكس ما تدعونه، أنتم الرجال، شرفاً... عندئذ، يكون الوضع أقوى مني... إنّه يشبه رؤية ضفدع معمّر! ينفّرني، يقرفني... وأدعسه!... هل يكون الرجل شريفاً لأنّه لا يأتي إلّا قذارات لا توصله إلى المحاكم؟ هل يكون الرجل شريفاً عندما يكون قد ارتكب في حياته فعلاً من تلك الأفعال التي يخجل منها المرء في عزلته؟ هل يكون شريفاً عندما يقترف تلك الأشياء التي لا يلومه عليها أحد، ولا يعاقبها شيء، لكنّها تثقل على الضمير؟... آه! أجد أنّ هناك حقارات أشد من الغش في اللعب!... وحتى تسامح الناس يثير سخطي باعتباره تواطؤاً... لكنّ هناك خيانات وحقارات... هذا يجعلني متسامحة مع المجرمين عندما أفكر في الموضوع! فهؤلاء على الأقلّ يخاطرون بشيء. ويقامرون بحياتهم وبحريّتهم! لذلك يندفعون نحو المقامرة والربح؛ ولا يرتكبون أعمالاً شائنة مرتدين قفازات! وأنا أفضل ذلك: على الأقلّ، هو موقف أقلّ جبناً!

كانت رينيه جالسة على الكنبة في آخر الصالون، مكتوفة الذراعين، محمومة اليدين، مرتجفة الجسم، وهي تتكلّم بصوت متموج، مرتجّ، يشي بالغضب الذي يتملك روحها. وكانت عيناها متّقدتين في وجهها المفعم بالظلال.

– وبذلك يكون سيّدك دومونبروتون مهماً جدّاً! تابعت القول، فهو يمتلك خمسة عشر ألف ليرة إيراداً أو أكثر! خصوصاً عندما يحصل على أجرة مسكن أرخص، وعندما لا ترتدي بناته ما تخيطه السيّدة كاربنتييه...

– آه! هذا يستحقّ الإخلاص، قال دونوازال. رجل أعزب يصل إيراده إلى أكثر من خمسة آلاف ليرة، أو متزوّج بأكثر من عشرة آلاف، يمكنه أنْ يبقى مرتبطاً بحكومة فقَدَها... فمن حقّه الشعور بالأسف...

– وسوف يتابع مطالبتك بإجلاله بالمصافحات ورفع القبعات! آه! هذا أمر جلل! أتمنى يا أبي، عندما يأتي، أنْ أكون الأولى في المغادرة.

– هل تريدين كوب ماء محلًّى يا رينيه؟ قال السيّد موبران مبتسماً. أنت تعلمين، بالنسبة لمن يجيدون الخطابة... كنت جميلة حقّاً لبرهة... فصاحة... منسابة مثل ماء ينبوع...

– نعم، نعم، اسخرْ كما تشاء... أنت أيضاً تعلم جيّداً أنّني مغرمة بذلك كما قلتَ... وبالنسبة لسيّدك مونبروتون... لكنّي طيبة جدّاً في الحقيقة! هذا السيّد ليس نحن، أليس كذلك؟ آه! لو كان أحد أقربائي هو من يفعل شيئاً مماثلاً، شيئاً ضدّ الشرف، شيئاً...

سكتت بغتة ثمّ تابعت مجهدة وكأنّما اغروقت عيناها بالدموع:

– أعتقد أنّني سوف أكفّ عن حبّه... نعم، حتّى قلبي سوف يجفّ نحوه، كما يخيّل لي...

– حسناً! هوذا العطف، حاليّاً!... كنّا مع الخطيب الصغير، قبل قليل... والآن نحن أمام الفتاة الصغيرة!... من الأفضل لك أنْ تأتي معي لرؤية ألْبوم الكاريكاتور الذي أرسله دافارند إلى أمّك.

– آه! سأرى، قالت رينيه راكضة. استندت إلى كتف والدها الذي كان يتصفح الدفتر، ونظرت إلى ورقتين أو ثلاث؛ ثمّ أشاحت بوجهها: حسناً! يكفي ما شاهدت... يا إلهي! هل هناك متعة في التبشيع... والتبشيع أكثر من الطبيعة! يا لها من فكرة غريبة! أولاً، في الفن، وفي الكتب، وفي كلّ شيء، أنا مع الجميل... ولست مع البذيء... ثمّ إنّني لا أجد فن الكاريكاتور مسلّياً أبداً... إنّه مثل الأحدب... وأنا لا يضحكني الأحدب... هل تحب الكاريكاتور يا دونوازال؟

– أنا! إنّه يُبكيني... نعم، هو نوع فكاهي يحزنني، أجاب دونوازال متناولاً مجلّة بجانب الألبوم. تبدو لي فكاهة شخصيات حجرية... لا يمكنني رؤية واحدة على المائدة من دون التفكير في العديد من الأشياء الكئيبة: من طراز حكومة المديرين[45] القديمة، ورسوم كار فيرنيه[46]، وبهجة البورجوازية!

– شكراً، قال السيّد موبران، وفضلاً عن ذلك تعمد إلى قصّ مجلتي، مجلة «العالمَيْن»، بعود كبريت! كم هو غريب دونوازال هذا!

– هل تريد سكيناً يا دونوازال، قالت رينيه وهي تُدخل يدها في جيوبها، وتخرج منها مجموعة من الأشياء الصغيرة، وترميها على الطاولة.

– آه! اللعنة! قال دونوازال، لديك متحف في جيوبك... يمكن تكليف دلّالين بما عندك... ما كلّ هذا يا ترى؟

– هدايا من... أحدهم. وهي تتبعني إلى كلّ مكان. ها هي ذي السكّين المطلوبة، وأظهرت السكّين لأبيها وهي تمرّرها إلى دونوازال: هل تتذكّر هذه، أين اشتريتها لي؟ في لانْغر، ذات مرّة، في استراحة استبدال الخيول... أوه! صارت قديمة... وهذه، تابعت وهي تتناول أخرى، جلبتها لي من نوجون... الرجاء الانتباه! فالشفرة من فضة... وناولتك فلساً، هل تتذكّر؟

– آه! إذا تورّطنا في عمليات جرد! قال السيّد موبران مرحاً.

– وفي داخل هذا؟ سأل دونوازال وهو يشير إلى محفظة صغيرة جدّاً، منتفخة وبالية، وتخرج منها أطراف أوراق مدعوكة ومتّسخة.

– آه! هذه، إنّها أسراري...

وعادت إلى جمع كلّ ما ألقته على الطاولة وإعادته بحيوية إلى جيوبها، مع المحفظة الصغيرة. ثمّ انطلقت تقهقه، وتفتش، لتخرج المحفظة من جديد، وتفتحها، وتفرش أمام دونوازال على الطاولة كلّ قطع الورق الصغيرة التي كانت داخلها، ومن دون أن تفتحها، بدأت تتعرّف عليها تباعاً: «انظرْ! هذه وصفة طبية أعدّتْ لأبي عندما كان مريضاً... وهذه أغنية وضعها لي، منذ عامين، بمناسبة عيد ميلادي...»

– هيّا! هيّا! احزمي كلّ ذخائرك... أخفي كلّ هذا، قال السيّد موبران في لحظة انفتاح الباب ودخول داردوييه. وكنس بيده كلّ الأوراق الصغيرة.

– آه! أنتَ تفسد ترتيبي لها، قالت رينيه بنبرة غضب، وهي تعيدها إلى محفظتها.

قبل شهر من ذلك، وفي ورشة صغيرة، كانت رينيه تقول لدونوازال:

– هل أنا شخصية حالمة حقّاً... ما رأيك؟

– حالمة، حالمة... أولاً ماذا تعنين بحالمة؟

– أوه! أنت تعلم جيّداً ما أعنيه... يعني امتلاك أفكار... ليست مثل أفكار كلّ الناس... يعني التفكير في أشياء كثيرة لا يمكنها أنْ تحدث. مثلاً، تكون الشخصية الشابّة حالمة عندما تعجز عن الزواج كما يتزوّج الآخرون، من سيّد مثل الآخرين، رجل لا يتميّز بشيء، يدخل ببساطة من الباب، ويُقدَمه لك بابا وماما، ولا يكون قد أنقذ حياتك ذات مرة، بتوقيف حصانك أو بانتشالك من قاع الماء... لا أظنّ أنك تحسبني من ذلك الصنف، كما آمل؟

– كلّا... أعني أنّني لا أعرف شيئاً عن ذلك... وأراهن أنك لا تعرفين شيئاً، أنت أيضاً...

– دعك من ذلك إذن! أولاً، ربّما يعود ذلك إلى أنّني أفتقر إلى الخيال، لكنّني كنت دائماً أستطرف موضوع امتلاكي لمثل أعلى، والحلم برجل! وذلك مثل أبطال الروايات: لم يسبق لأحدهم أنْ فتنني. أجدهم مفرطين في التهذيب، وفي الجمال، وفي الدماثة... إنهم مقرفون، في النهاية... لكنْ، ليس هذا. ماذا بالنسبة لك، لو أردنا جعلك تعيش طوال حياتك بجانب كائن... كائن...

– كائن... كيف؟

– دعني أكمل... الرجل الذي لا يستجيب البتة لبعض المطالب الدقيقة في طبيعتك، والذي لا يبدو لك شاعرياً، بل بلا شاعرية مطلقاً... لكنّه يكون في الوقت نفسه مستعداً لتعويض كلّ ما يفتقر إليه في الجوانب الأخرى بطيبة، طيبة لا مثيل لها...

– بكلّ هذه الطيبة؟ أوه! لن أتردّد في اختيار الطيبة مغمض العينين... يا للشيطان! إنّها نادرة جدّاً.

– إذن فأنت تقدّر الطيبة جيّداً؟

– أقدّرها، يا رينيه، مثل الأشياء التي فقدناها...

– أنت؟ لكنّك طيّب جدّاً...

– لست شرّيراً، هذا كلّ ما في الأمر. ربّما كنت حسوداً، لو تحليت بتواضع أكثر وكبرياء أقلّ. لكن بالنسبة للطيبة... لست طيباً. فالطبيعة تشفيك من ذلك كما تشفيك من الطفولة. يلقي المرء بقلبه، كما تدركين يا رينيه، كما يبدأ شبابه بالطيش.

– إذن، فالطيبة، بالنسبة لك...

– نعم، الطيبة التي تصمد أمام الناس وأمام التجربة، الطيبة التي وجدتها في حالتها البكر لدى بورجوازيّ أو اثنين، طيلة حياتي، بالنسبة لي ما زالت هي أفضل ما في الإنسان وأروع ما فيه.

– حسناً... لكنْ ماذا لو أنّ رجلاً طيباً جدّاً، وبالطيبة التي ذكرتها، كانت له... من باب الافتراض... قدمان مقطوعتان في حذائه مثل قطعة حلوى؟ وماذا لو كان متكرّشاً هذا الرجل الطيب، والطيب جدّاً؟

– حسناً! لن يتمّ النظر إلى قدميه ولا إلى بطنه: هذا كلّ شيء... لكنْ، عفواً، صحيح، لقد نسيت تماماً...

– ماذا؟

– لا شيء... أنك امرأة.

– لكنّ ما تقوله محتقر جدّاً لجنسي.

لم يجب دونوازال. وتوقّفت المحاورة.

تابعت رينيه:

– هل رغبت أحياناً في الثروة، أنت؟

– نعم، عدة مرّات؛ لكنْ تحديداً من أجل التعامل معها كما تستحقّ، لإساءة احترامها...

– كيف ذلك؟

– يا إلهي، نعم، تمنّيت لو كنت غنياً من أجل إظهار كلّ الازدراء الذي أكنّه للمال... وأذكر أنّني، في مرّة أو مرّتين، نمت مع فكرة الذهاب إلى إيطاليا بقصد الزواج.

– إيطاليا؟

– نعم، فهناك ما زالت توجد الكثير من الأميرات الروسيات. وبما أنّه لم يعد يوجد في هذا العالم إلّا الأميرات الروسيات ممّن يمتلكن ثروات لا بأس بها مستعدات للزواج برجل لا يملك فلساً... وأكثر من ذلك كنت مستعدّاً للاكتفاء بأميرة مفلسة قليلاً... لم تكن لديّ شروط... وكان يمكنني الاكتفاء تماماً بإيراد بثمانمائة ألف ليرة... كأقلّ مبلغ يرضيني، مثلاً...

– شكراً، قالت رينيه ضاحكة. وماذا كنت ستفعل بكلّ ذلك المال؟

– كان المال سيسيل بين أصابعي، بكلّ بساطة، شيء مذهل، ولم يسبق لي رؤية أناس أغنياء يفعلون ذلك... أجد أنّ كلّ أصحاب الملايين شائنون... ما رأيك: ما بين حياة رجل يملك إيراداً بمائة ألف ليرة وحياة رجل يملك عشرة منها، هل تجدين الفرق بين ثروتيْهما؟ بالنسبة لي من شأنك أن تري! فخلال سنة كاملة أكون قد رميت بالمليون في النزوات، والخياليّات، والأعمال الجنونية... وأكون قد أذهلت باريس وسحقتها... وأكون قد درتُ مثل شمس تبصق أوراقاً نقدية... وأكون قد أهنت ذهبي بكلّ أنواع التبذير... وبعد انقضاء العام يوماً يوماً، أكون قد هجرت زوجتي...

– عجباً!

– بالتأكيد... وذلك لكي أبرهن لنفسي أنّني لم أكن أحب المال. ولو لم أهجرها لانتابني شعور بالفضيحة.

– حسناً، يا لها من أفكار!... أنا، أعترف لك، لا أوافق على فلسفتك... فالثروة الكبيرة، وكل ما تقدّمه، من متع وبذخ وخيول وعربات... ثمّ التمتع بقهر أناس لا نحبهم، وإزعاجهم... أجد أن الثروة شيء رائع...

– فعلاً، لقد قلت لك منذ قليل، يا رينيه، أنك امرأة... ولا شيء غير امرأة...

كان دونوازال يقول ما يفكر فيه. وحتّى إذا كان قد تمنى الثروة في بعض المرّات فإنّه لم يحسد غيره عليها. كان يضمر للمال احتقاراً صادقاً وجوهرياً، هو احتقار إنسان غنيّ بالقليل.

كان دونوازال باريسياً، أو بالأحرى كان الباريسيّ بامتياز. فهو متمرس بكلّ التجارب الباريسية، ومتدرب بطريقة رائعة على أسلوب فن العيش بفضل ممارسة الحياة الباريسية، كان إنسان هذه الحياة: له غرائزها، وحواسّها، ونبوغها. وكان يمثّل الشخص العصريّ تماماً، المتمدّن، المنتصر كلّ يوم، كما لو كان في غابة بوندي، على أسعار الأشياء، وغلاء العواصم، كما ينتصر المتوحش على الطبيعة في غابة بكر. كان يُرى مستمتعاً بكلّ شروط الثروة؛ بامتدادها وإشعاعها. وكان يعيش في عالم الأغنياء، ويرتاد مطاعمهم ونواديهم، ويشاطرهم عاداتهم، ويتمتّع بملذاتهم. كان يبدو كأنّه معني بأكبر الثروات من خلال علاقاته. وما يفتحه المال يكون مفتوحاً أمامه. وكان يُشاهد في كبرى حفلات البروفنسيّين الحميمة الراقصة، وفي السباقات، وفي العروض الأولى. وفي الصيف يقصد منتجعات المياه، وشواطئ البحر، ومدن الألعاب. لقد كان يُعتبر مثل رجل يمتلك حصاناً.

ومع ذلك لم يكن دونوازال يكاد يمتلك مائة وعشرين ألف فرنك. تحدّر من عائلة غارقة في أفكار المِلْكية القديمة، مرتبطة وكأنّها مسمّرة في المِلْكية العقارية، ومِلْكية الأرض، تتكلّم دائماً عن الإفلاس وترتاب من الإيراد مثلما كان فلّاح الماضي يرتاب من ورقة البنك النقدية. لكن دونوازال خلخل الأحكام المسبقة لدى أهله. ومن دون الإنصات إلى النصائح، وتوبيخات الأقارب المسنّين والبعيدين، واستنكاراتهم وتهديداتهم، باع المزارع الصغيرة التي تركها له والده وأمه. وبالنسبة له لم يعد هناك تناسبٌ ما بين مردود الأرض ومصاريف العيش. وكان يرى أنّ الملكية العقارية يمكن أنْ تظلّ مصدر ثروة، في عصر تقول فيه روايات بول دو كوك عن أحد الشبّان: «كان بول غنيّاً: إذْ كان يملك دخلاً بستة آلاف ليرة...» لكنّها، ومنذ ذلك الزمن، صارت في رأيه مفارقة تاريخيّة، نوعاً من المِلْكية القديمة التي لم يعد مسموحاً بفنطازيّتها إلّا للناس الأغنياء جدّاً. لذلك باع أراضيه وجعلها رأسمالاً صغيراً وضعه، بعد نصيحة أحد مضاربي البورصة من أصدقائه، كإيراد أجنبي، أسهُم، سندات تضاعف مدخوله مرّة أو مرّتين، من دون المساس برأسماله في المستقبل. وبعد أنْ جعل دونوازال من رأسماله رقماً بلا معنى، إلّا في نظر كاتب عدل، رقماً لم يعد ينظّم حاجاته

الراهنة، رتّب حياته كما رتّب ثروته. فبدأ بترشيد الإنفاق. وكان يعرف جيّداً ماذا يكلّف التبختر في باريس، ومشهّيات الطعام، والأسعار الرخيصة، وكل ما يؤدي إلى الإفلاس. لم يكن يخجل من إعادة تدقيق فاتورة قبل تسديدها. وكان لا يدخن، خارج بيته، إلّا سيجار الثمانية فلوس؛ لكنّه، في بيته يدخن الغليون. كان يتمتع بغريزة انتقاء الأمكنة المناسبة، والمحلات التي تفتح وتقدّم ما طاب خلال الأشهر الثلاثة الأولى. كان يعرف أقبية المطاعم؛ فلا يطلب نبيذ الشمبرتان إلّا عند ارتفاع معيّن من الشارع، ولا يطلبه إلّا هناك. وإذا طلب عشاء فإن طلبه يثير احترام النادل. وكان فوق كلّ ذلك، قادراً على تناول عشاء بمائة فلس في المقهى الإنجليزي.

وكان كلّ شيء مدروساً لديه من حيث الإنفاق: كان يخيط ثيابه عند واحد من أبرز الخياطين في باريس؛ لكنّ أحد أصدقائه في وزارة الشؤون الخارجية كان يجلب له، عبر القنصلية، كلّ بدلات الفصلين المعتدلين، الخريف والربيع، من لندن. هل يحتاج إلى اقتناء هدية، أو هدايا رأس السنة؟ لقد كان يعلم بوصول بضاعة من الهند أو من الصين؛ أو أنّه يتذكّر وجود في حيّ معزول، في آخر أحد الدكاكين، قطعة عتيقة مهجورة، خزف سكسونيا، خزف مدينة سيفر الفرنسية الفاخر، واحدة من تلك الأشياء التي تثير الفضول ولا يستطيع من يتقبّلها وضع سعر لها، ولا يملك سوى أن يخمّن الفاتورة.

كان كلّ ذلك لدى دونوازال تلقائياً، طبيعياً، غريزياً. وكان هذا الانتصار الدائم للذكاء الباريسيّ على المغالاة في الأسعار أبعد ما يكون عن حقارة الحساب والبخل فيه. كان ذلك جملة من ظروف الوجود التي تحققت بتوفيق، ولم تكن عمليات توفير بورجوازية. وضمن الاستخدام المنظم جيّداً لمبلغ إيراده البالغ خمسة عشر ألف ليرة، ظل الرجل كريماً ونبيلاً: كان يمكنه تجنّب إنفاق ما، لكنّه لا يساوم فيه إذا اعتمده.

وكان دونوازال يقطن شقة في طابق فني في منزل نظيف، ذي سجادة على الدرج. ولم يكن في الشقة سوى ثلاث غرف، غير أنّ شارع الإيطاليين كان عند بابه. وكان صالونه الصغير الذي جعله غرفة تدخين، جذاباً. كان من تلك القاعات الأنيقة التي يجيد ترتيبها منجّدو باريس، كلّ شي مبطّن، كلّ شيء عليه إشراقة بلاد فارس، مع أرائك بوسع الأسرة. أراد دونوازال أن يساهم غياب القطع الفنية في بهجة القاعة. كان البواب يقوم على خدمته، فيصعد إليه صباحاً بفنجان من

الشوكولا ويتولى تنظيف البيت. أمّا في المساء، فيخرج دونوازال لتناول العشاء في أحد النوادي أو الحانات، في المدينة.

بتلك الأجرة الرخيصة، والاختصار في الخدمات وفي التنظيفات، وفّر دونوازال الكثير من ذلك المال الذي يفتقر إليه حتّى أغنى الناس، مال البذخ، الضروري في باريس أكثر من المال الآخر: مصروف الجيب. مع ذلك، وفي بعض الأحيان، تأتي تلك القوة القاهرة، المباغتة، لتتوسّط هذه المعيشة، وتُخل بتوازنها وميزانيتها. عندئذ يختفي دونوازال من باريس لبعض الوقت: يذهب حيث الاخضرار ويسكن في نزل ريفي، بثلاثة فرنكات في اليوم، قرب نهر، ولا ينفق إلّا على تبغه. وخلال شتاء أو شتاءين أو ثلاثة، ألفى نفسه بلا مال تماماً، فهاجر، وزار مدينة مثل فلورنسا، حيث السعادة لا تكلّف كثيراً، وحيث الحياة أيضاً بخسة السعر مثل السعادة، فأقام فيها ستة أشهر، قاطناً في غرفة ذات قبّة، متناولاً في مطاعم التراتوريا الرخيصة الأسعار الكمأ بجبن بارْما الجافّ الحرّيف، ممضياً سهراته في مقاصير المجتمع الراقي، مرتاداً حفل الدوق الأكبر، بهيجاً، ومحتفىً به، ومزهراً بالكاميليا البيضاء، ومقتصداً بأسعد ما يكون عليه الاقتصاد في العالم.

لم يكن دونوازال ينفق على الحبّ أكثر ممّا ينفق على غيره: وبما أنّه حذف منه حبّ الذات، لم يعد يدفع من أجله إلّا ثمنه. مع أنّه شكّل تدريبه الوحيد في خوض الحياة، لكنّه كان تدريباً عقلانياً ومتّزناً. أراد أنْ يجرّب بوصفه سيّداً عظيماً شغف المرأة الأغلى في باريس. وبذلك أنفق ستين ألف فرنك من أصل المائة والثمانين ألفاً التي كان يملكها آنذاك، وعاش ستة أشهر مع لاجينوكو بموارد رجل يملك إيراداً بمائة وعشرين ألف ليرة ويعاشر امرأة تعطي مائة فرنك بقشيشاً للحوذي لدى عودتها إلى المنزل. وبعد انقضاء الأشهر الستة، غادر تلك المرأة التي باتت، ولأول مرّة في حياتها، عاشقة لرجل دفع لها الثمن.

وبعد خوضه تلك التجربة، استسلم للعلاقات العابرة. ثمّ، وخلال رتابة الحبّ الذي يُباع ويُشترى، سرعان ما كفّ عن الرغبة الجامحة في المغامرات، وانتابه فضول كبير تجاه المرأة. وشرع يبحث عن اللامتوقع، اللامنتظر، عن المجهول الأنثوي. كانت الممثلات كلّهنّ يبدون له تقريباً مثل المومس نفسها، والمومسات كلّهنّ تقريباً مثل الممثّلة نفسها. وما كان يجذبه هو المرأة غير المصنّفة، المرأة التي تضلّل المراقب وأقدم الباريسيين. كان كثيراً ما يمشي متسكعاً ليلاً، بغموض ومنساقاً بطريقة لا تقاوم نحو إحدى تلك المخلوقات التي لا تمثل الرذيلة ولا الفضيلة، وتمشي في

الوحل بطريقة في غاية الجمال. في بعض الأحيان يبدو مبهوراً بإحدى جميلات باريس اللواتي يضئن أينما حللن، وينسى نفسه وهو يطيل النظر إليها بعد أنْ تكون قد انطفأت فجأة، في عتمة ممرّ. كانت موهبته تتمثل في اكتشاف نجوم متوحّلة. وكان يلتقط من وقت لآخر، في حضيض إحدى الضواحي، واحدة من عجائب الشعب والطبيعة، ويدفعها إلى الكلام، وينظر إليها، وينصت، ويتفحّصها، ثمّ وبعد بلوغ التعب، يتركها تنطلق في زحمة السير، ويتسلّى بتحيّتها عندما يجدها من جديد ممتطية عربة خيل.

أدّى مظهر الثراء لدى دونوازال إلى جعله مقبولاً من أناس المجتمع الرّاقي. فكان يتعامل معهم بأريحية لكن بتفوّق، بفضل المرح الذي ينشره، والظرف الذي يزرعه، ومختلف أنواع الخدمات التي يقدّمها، وحاجة كلّ الناس إليه. حتّى إنّ علاقاته الممتدة بالأجانب والفنانين ورجال المسرح، ومعرفته بمداخل القضايا ومخارجها، جعلت منه رجلاً ثميناً في أهمّ المناسبات. هل هناك من يحتاج إلى مقصورة في عرض فنيّ، إلى ترخيص لزيارة سجن أو غاليري لوحات الفنية، إلى مكان لسيّدة في محكمة الجنايات، إلى زينة أجنبية يرغب فيها أحد السادة؟ كان اللجوء إليه دائماً. وبمناسبة مبارزتين أو ثلاث كان فيها شاهداً، أظهر صلابة، وصرامة، واهتمام فحوليّ بالشرف كما بالحياة التي كانت على عاتقه. وإلى جانب الامتنان الذي يضمره له الآخرون أضيف احترام غير مضرّ بصيته، في مجال المبارزة. وأدّى طبعه إلى إثارة التقدير حوله، فتوصّل إلى اكتساب التقدير حتّى من الأغنياء، رغم أنّه لم يكن يحترم ملايينهم.

– هاك مثلاً! أرادت زوجتي أنْ يرسم السيّد آنغر بورتريه لها... لقد رأيتَ الرسم... إنّه لا يشبهها... لكنّه شغل السيّد إنغر... حسناً، هل تعلم كم طلب مني؟ عشرة آلاف فرنك! أعطيته إياها لكنّني أجد في هذا استغلالاً؛ إنّها الحرب الدائمة على رأس المال... ماذا، هل يجعلني أدفع ما يريد لأنّه رجل مشهور! لأنّه فنان، لم يعد هناك ثمن، ولا تسعيرة! له الحق في سَلبي!... إذن يمكنه أنْ يستولي على مليون منّي. إنّه مثل الأطباء الذين يأخذون منك حسب ثروتك... أولاً، هل يعرفون ما أملك؟ ثمّ إنّه تعسّف... نعم، عشرة آلاف فرنك: ما رأيك؟

كان السيّد بورجو يتحدّث أمام المدفأة مع دونوازال فغيّر موقع إحدى ساقيه كي يتدفأ.

– في الواقع، قال دونوازال بنبرة في منتهى الجِدّ، أنت محقّ تماماً... كلّ أولئك الناس يستغلون شهرتهم... أرأيت؟ قد لا يكون هناك إلّا وسيلة واحدة لمنع ذلك: إصدار مرسوم بالحدّ الأقصى[47] المسموح به من الموهبة، والحدّ الأقصى المقبول من روائع الفنّ. يا إلهي، إنّه لأمر سهل جدّاً.

– هوذا! قال السيّد بورجو، ذلك هو الحلّ... ومن شأنه أنْ يكون عادلاً... لأنّه في نهاية المطاف...

كان آل بورجو قد تناولوا عشاء، بين أصدقاء، في ذلك المساء عند آل موبران. وكانت العائلتان تتحدّثان حول الزواج الذي لم يبق لتحديد موعده إلّا انتهاء مرور عام على أوّل إدراج للقب دوفيلاكور في صحيفة «المونيتور»[48]: وكان السيّد بورجو قد طالب بوجوب اعتماد تلك المهلة. كانت النساء تتحدّث عن السلة، والشالات، والحلي، وجهاز العروس. وكانت السيّدة موبران، جالسة قرب السيّدة بورجو، تتأملها كما لو كانت أمام شخص اجترح معجزة للتو. أمّا وجه السيّد موبران فكان يشعّ فرحاً.

لقد انتهى الأمر بالسيّد موبران إلى الاستسلام أمام الافتتان الذي يصنعه المال. وهذا الرجل العظيم والشريف والذي يجمع بين النقاء والصرامة والعناد والعفاف، ترك ثروة آل بورجو تتغلغل في ذهنه رويداً رويداً، لتراوده في أحلامه، وتتحدّث إلى غرائز الرجل العمليّ وتؤثّر فيها، غرائز

العجوز، وربّ العائلة، والصناعيّ. لقد افتتن واستسلم. اكتسب تجاه ابنه، منذ نجاح زواجه، ذلك التقدير لكفاءة تتأكّد أو ثروة تترسّخ، ومن دون الانتباه إلى ما يحدث له من تغيير، ها هوذا قد كفّ عن لومه على تغيير لقبه. فما الآباء إلّا بشر.

كانت رينيه، رغم ضجرها وشرودها وحزنها منذ بعض الوقت، شبه مرحة في تلك السهرة. كانت تتسلّى بالنفخ على قبعة الريش المخروطية التي تعتمرها نؤيمي، متكاسلة ومستغرقة، وعيناها محجوبتان، وتجيب بنبرات متقطعة عن محاولات السيّدة دافارند إلباسها من دون كلل.

– اليوم، كلّهم ضدّ المال، تابع السيّد بورجو مصدراً حكمه. كانت توجد رابطة... في سانوَا، زرتهم... حسناً! هل تظنّ أنهم يسلّمون علينا؟ أبداً... سنة 48، قدّمنا صاعات فرنسية من القمح... هل تعلم ماذا قالوا؟ «هذا الخنزير...» عفواً يا سيّداتي... «كان عليه أنْ يشعر بالخوف!» بهذه الطريقة شكروني!... أكوّن مزرعة نموذجية وأطلب مديراً من الحكومة: يرسلون إليّ واحداً أحمر نذلاً كان قد أمضى حياته في ذم الأغنياء... وحتّى الآن أواجه مجلساً بلدياً كريه العقلية... أنا أشغّلهم أليس كذلك؟ نحن ثروة البلاد... حسناً! لو حدثت ثورة، فأنا متأكّد أنهم سوف يحرقون القصر... أوه! لن يتضايقوا من فعل ذلك... أنت لا تدرك كم تكسب من أعداء إذا كنت ممّن يسددون تسعة آلاف فرنك ضريبة في البلد! من شأنهم أن يحرقونا، ليس في ذلك شك... في شهر فبراير، أنت رأيت... أوه! الشعب! لقد تراجعت في نظرتي إليه... وهو يدبر لنا مستقبلاً زاهراً، هيّا! سوف يأكلنا القوم المعدمون، أنا أتنبأ لك بذلك... سوف ترى... إنّها أفكار تراودني كثيراً... وليتنا لم ننجب!... لأن الثروة في نظري...

– ماذا تقول، إذن، يا جاري؟ قال السيّد موبران مقترباً.

– أقول إنّني أخشى على أبنائي ألا يجدوا خبزاً ذات يوم، يا سيّد موبران... هذا ما أقول...

– ستمنعهم من الزواج! قال السيّد موبران.

– أوه! إذا ما سقط السيّد بورجو في أفكاره السوداء... إذا بدأ يتحدّث عن نهاية العالم... قالت السيّدة بورجو.

– أهنئك يا سيّدتي، لأنك لست معنية بهمومي، قال السيّد بورجو منحنياً ناحية السيّدة بورجو، لكنّي أؤكّد لك ومن دون أنْ أكون شخصاً ضعيفاً، بأنّ هناك مجالاً واسعاً للقلق...

– بالتأكيد، بالتأكيد، قال دونوازال. أنا مثل السيّد، أظنّ أنّ المال مهدَّد، مهدّد جدّاً، مهدّد بشكل مهول... أولاً بالحسد الذي يتسبّب في كلّ الثورات تقريباً... ثمّ بسبب التقدّم، الذي يعمّدها...

– لكنْ، يا سيّدي، هذا التقدّم من شأنه أنْ يكون عملاً شائناً! ذلك أنّني في نهاية المطاف لست مشبوهاً... كنت ليبرالياً... وما زلت كذلك... أنا جندي في خدمة الحرية... جمهوري بالولادة... أنا مع التقدّم في المطلق! لكن أيّ ثورة ضدّ المال سوف تكون ممارسة وحشية! وسوف تعود بنا إلى الحياة المتوحشة! لا بد من العدالة.. والحس السليم. وأخيراً، هل تفترضون إمكانية وجود مجتمع بلا مِلكية؟

– كمن يفوز في لعبة بلا جائزة مالية.

– ماذا؟ قال السيّد بورجو، دون أنْ يسمع دونوازال وقد ازداد انفعاله، كلّ ما اكتسبته بصعوبة ومثابرة وشرف... ماهو ملكي، ما تحصلت عليه.. ميراث أبنائي... هذا هو أقدس شيء موجود! حتّى إنّني أرى في الضريبة مساساً بالملكية.

– يا إلهي، قال دونوازال بنبرة ساذجة تماماً، أشاطرك الرأي، وسوف أكون متأسفاً، أضاف بخبث، إذا جعلتك ترى بطريقة سوداوية أكثر ممّا تفعل عادة... لكنّنا ثرنا ضدّ النبلاء... وسوف نثور على الثروة... ولقد أعدمْنا بالمقصلة أشهر الأسماء، وسوف نقضي على الثروات الكبيرة. كانت التهمة في السابق هي الانتماء إلى آل مونمورنسي، والآن سوف تكون التهمة امتلاك دخل بخمسين ألف ليرة... من البديهي أنّ ذلك هو منطق الأشياء... وأنا أتحدّث عن ذلك مع أنّني لست معنياً بالمسألة. لم يكن لي من سبب لأشنق بالمقصلة في ذلك الزمن، وليس لي من سبب لبلوغ الإفلاس حالياً... هكذا...

– اسمح لي يا سيّدي، قال السيّد بورجو بنبرة مفخّمة، أنت تقوم بعملية تمثّل... لا أحد يدين الإفراط مثلي... كانت سنة 93 جريمة كبرى، يا سيّدي... ما لحق بالنبلاء كان عملاً معيباً... ولا خلاف حول ذلك لدى كلّ الشرفاء...

ابتسم السيّد موبران، متذكّراً السيّد بورجو خلال سنة 1822.

– لكن، في النهاية، تابع السيّد بورجو، ليس الوضع هو نفسه... لقد تجدّد المجتمع، واستعيدت أسسه... كلّ شيء تغيّر... كانت توجد ضدّ النبلاء أسباب ومبرّرات، إنْ شئت... ولقد نشبت ثورة 89 ضدّ الامتيازات... التي لا أريد محاكمتها الآن... لكنّها كانت موجودة... إنّه وضع مختلف... إذْ كانت المطالب متعلقة بالمساواة، في نهاية المطاف. وكان ذلك حقّاً شرعياً بهذه الدرجة أو تلك... لكنّه كان ذا معنى على الأقلّ... بينما أسألك بالنسبة إلى اليوم، أين هي الامتيازات؟ كلّ إنسان يساوي غيره... ألا توجد انتخابات عامة؟... قد تقول لي: المال؟ لكنّ كلّ الناس يستطيعون كسب المال... كلّ الصناعات متحررة...

– ما عدا تلك التي ليست كذلك..

– في المحصلة كلّ الناس يستطيعون الوصول إلى كلّ شيء... يكفي وجود الذكاء والعمل...

– والظروف، قال دونوازال...

– الظروف، يا سيّدي، نستطيع إيجادها! لكن انظرْ إلى المجتمع: كلّنا حديثو نعمة... كان والدي تاجر ملاءات... تاجر بالجملة... وكما ترى... هذه هي المساواة، يا سيّدي، المساواة الحقيقية، الجيدة... لم يعد من وجود للطبقات المغلقة... البورجوازية تصعد من الشعب، والشعب يصعد إلى البرجوازية... كان بإمكاني العثور على كونت لابنتي لو رغبت في ذلك... لكنّ تلك هي الغرائز السيئة بكلّ بساطة... الأهواء السيئة، أفكار الشيوعية: هذا هو ما يوجد ضدّ الثروة... ترتفع الأصوات المنددة بالبؤس... حسناً، أنا أقول ما يلي، لم يسبق القيام بما يحصل الآن من أجل الشعب... هناك تقدّم في الرفاهية في فرنسا! وبعض الناس الذين لم يكونوا يأكلون اللّحم أبداً صاروا يأكلون منه مرّتين في الأسبوع... هذا واقع، وأنا متأكّد أنّ رجل الاقتصاد الشابّ معنا السيّد هنري، يستطيع تأكيد...

– نعم، نعم، قال هنري، هذا بات مؤكّداً. ففي خمس وعشرين سنة، زاد حجم الماشية باثني عشر بالمائة. وبتقسيم سكان فرنسا إلى 12 مليون حضري، وبين 24 إلى 25 مليون ريفي، نجد أن أفراد المجموعة الأولى يستهلكون سنوياً ولكلّ فرد حوالى 65 كيلوغراماً، والمجموعة الثانية 20

كيلوغراماً و26 سنتيغراماً. وأنا أضمن الأرقام... وما هو مؤكّد أنّ التقديرات الأكثر مسؤولية ترفع زيادة معدّل الأعمار في فرنسا منذ 1789، إلى عشرة أعوام، والزيادة هي مقياس ازدهار شعب من الشعوب... الإحصائيات...

– آه! الإحصائيات، إنّها الأولى في العلوم غير الدقيقة!، قاطعه دونوازال الذي يتسلّى بإرباك أفكار السيّد بورجو بمفارقاته وأضاف: لكنّني أقبل بكلّ شيء؛ أسلّم بإطالة حياة الشعب، وأنّه يأكل لحماً أكثر ممّا كان يأكل؛ فهل تصدقون مقابل ذلك خلود الدستور الإجتماعيّ الراهن؟ لقد اندلعت ثورة أدّت إلى هيمنة البرجوازية، أي هيمنة المال؛ تقولون: انتهى، مامن حاجة إلى غيرها، لا وجود لثورة أخرى شرعية الآن... هذا أمر طبيعيّ؛ لكن، والكلام بيننا، لا أدري إلى أيّ حدّ تشكل البرجوازية الكلمة الأخيرة للمجتمعات. بالنسبة لك عندما تعطى المساواة السياسية للجميع، تكون المساواة الاجتماعية قد استكملت: ربّما كان هذا صحيحاً جدّاً، لكنّه يتطلب إقناع أناس لهم مصلحة في عدم تصديقه... كلّ إنسان مساوٍ للآخر؟ بالتأكيد، لكن من وجهة نظر الربّ... وكل الناس، في القرن التاسع عشر، أحرار في ارتداء ثياب سوداء: لكنّهم يحتاجون إلى القدرة على دفع ثمنها... هل تريد أنْ ألخص لك المساواة العصرية في كلمة؟ إنّها المساواة أمام قرعة التجنيد: كلّ الناس يشاركون، غير أنّ ثلاثة آلاف فرنك تعطيك الحقّ في جعل شخص آخر يموت عوضاً عنك... تتحدّث عن الامتيازات: لم يعد لها وجود، هذا صحيح... لكن سجن الباستيل أيضاً تمّ هدمه... غير أنّه فرّخ صغاراً... انتبه! لنأخذ مثال العدالة: ففيها أيضاً، وأنا أعترف بذلك صراحة، يكون وضع الإنسان واسمه وماله أقلّ تقديراً، وبلا ثقل يُذكر... حسناً، تستطيع أن ترتكب جريمة، وتكون، على سبيل المثال، وجيهاً فرنسياً: سوف يجعلونك تتفادى المشنقة... ويُسمح لك بالسمّ... لاحظوا أنّني أجد ذلك مبرراً... لكنّي ذكرته من أجل البرهنة على عدم المساواة المقرفة... وفي الواقع، مع رؤية المساحة التي تشملها أتساءل أين كان الآخرون... الوراثة، أليس كذلك؟ إنّها من الأمور التي تعتقد الثورة أنّها دفنتها إلى الأبد، تعسّف من النظام القديم طالما تعالى التنديد به... حسناً، أسألكم الآن قليلاً إنْ كان ابن رجل سياسيّ لا يرث من اسمه ومن كلّ أرباح اسمه، وناخبيه وعلاقاته وموقعه في كلّ مكان، ومن كرسيه في الأكاديمية؟ نحن مغمورون بالأبناء، في المحصّلة! لا نرى غيرهم: يسدّون كلّ المهن؛ إنهم خلَف يسدّ كلّ شيء... ذلك أنّ العقليات، كما ترون، تخرّب القوانين... أنتم من أصحاب الأموال وتقولون: المال مقدّس... لماذا؟ تقولون: نحن لسنا طبقة مغلقة... كلّا، فقد صرتم الآن طبقة أرستقراطية... أرستقراطية في منتهى الجدّة ذات غطرسة

تجاوزت وقاحات أقدم الأرستقراطيات على كوكب الأرض... لا يوجد بلاط، في أيّامنا هذه، وأعتقد أنّه لم يوجد بلاط على مرّ التاريخ يتمّ فيه التعرّض للاحتقار مثلما يحصل في مكتب صاحب مصرف كبير، ممّن لم يرافقوا إلى باب مصرفهم أكثر من شخصين طوال حياتهم! تتحدّث عن الغرائز السيئة والأهواء السيئة... آه! ماذا تريد: سيطرة البرجوازية لا ترتقي بالأرواح... عندما تتولّى علية المجتمع الهضم والقرص، لا تبقى هناك أفكار، تبقى شهوات في الأسفل. في الماضي، عندما كان يوجد مع المال أشياء أخرى فوقه وبجانبه، كان يمكن خلال ثورة من الثورات، عدم طلب الأموال بفظاظة، أموال السعادة الفظة، وكان يمكن الاكتفاء بألوان يتمّ تغييرها على العلَم، وكلمات مكتوبة على جسم حارس، ونصر كريم أجوف... لكن اليوم!... اليوم، بات من المعلوم أين يوجد قلب باريس: وسوف يتم الاستيلاء على البنك بدل الاستيلاء على مقر البلدية!... آه! كم كانت البرجوازية مخطئة خطأ كبيراً...

– أيّ خطأ؟ سأل السيّد بورجو وهو لا يزال مذهولاً من خطبة دونزازال.

– ذلك المتعلّق بعدم ترك الفردوس في السماء؛ وذلك محلّه... فمنذ أنْ كفّ الفقراء عن القول إنّ الآخرة سوف تكون جزاء الدنيا، ومنذ أنْ كفّ الشعب عن المراهنة على سعادة العالم الآخر... تمكّن فولتير من إزعاج الملاكين كثيراً، أرأيت...

– آه! أنت على حقّ! قال السيّد بورجو مندفعاً. هذا بديهي... كان يجب على كلّ أولئك الأنذال أنْ يذهبوا إلى القدّاس...

كان هناك احتفال كبير لدى آل بورجو، الذين أرادوا أنْ يعلموا الناس، من خلال حفل راقص، بزواج ابنتهما من السيّد موبران دو فيلاكور.

– أنتِ في أحسن حال اليوم! ما أجمل رقصك! قالت رينيه لنؤيمي وهي تروّح لها على وجهها بمروحتها في إحدى زوايا قاعة الاستقبال الواسعة.

– لم أرقص أبداً مثلما فعلت اليوم، هذا صحيح! وأمسكت نؤيمي بيد رينيه ورافقتها إلى قاعة أصغر.

– كلّا، أبداً، قالت، ثمّ جذبت إليها رينيه وقبّلتها، أوه! ما أجمل أنْ أشعر بالسعادة! ثمّ قبلتها مرّة أخرى بدفق من الفرح، وقالت لها: لم تعد تحبّه! أوه! أنا متأكّدة أنّها لم تعد تحبّه! اسمعي، في السابق، عندما يكون حاضراً، كانت تحبّه بالطريقة التي كانت تقف بها لدى دخوله، كانت تحبه بعينيها، بصوتها، بأنفاسها، بحفيف فستانها! بكلّ شيء! وعندما لا يكون موجوداً كنت أشعر، ولست أعلم كيف، أنّ تفكيرها وصمتها يحبّانه! أنا التي يقال عني غبية... أليس كذلك؟ تندهشين لرؤيتي كلّ ذلك... لكنْ في الحقيقة هناك أشياء أفهمها رغم كلّ شيء، ووضعت يد رينيه على فستانها الأبيض المتموّج، عند موضع القلب: وهذا لا يخدع!

– وأنت، هل تحبّينه الآن؟ قالت رينيه.

أغلقت لها نؤيمي فمها دافعة بهدوء ورود باقتها على شفتيها.

– آنستي، لقد وعدتني برقصة الرودوَا[49] الأولى...

واصطحب الشابّ نؤيمي التي التفتت وهي تجتاز الباب، وأرسلت قبلة على أطراف الأصابع إلى رينيه.

أدّى اعتراف نؤيمي الى انبعاث بريق فرح داخل رينيه. تغلغلت فيها ابتسامة حبها. أحست بانفراج خلاص. وفي لحظة تغيّر كلّ شيء لديها؛ وهيمنت هذه الفكرة: هي تحبه! على كلّ الأفكار

الأخرى. ولم تعد ترى العار، ولم تعد ترى الجريمة التي رأتها مطولاً في هذا الزواج. ظلت تكرّر أنّ نؤيمي تحبّه، وأنهما يتبادلان الحبّ... أمّا ما تبقّى فينتمي إلى الماضي، وهو ماضٍ سوف ينسيانه كلاهما، نؤيمي من طول غفرانها له، وهنري من طول التكفير لنفسه عنه. فجأةً عادت إليها ذكرى، فكرة قلقة، خوف غامض. لكنّها في هذه اللحظة لا ترغب في رؤية أيّ شيء أسود في الأفق، أيّ شيء يهدد في المستقبل. تخلصت من ذلك وعادت بسرعة إلى نؤيمي، وإلى أخيها. فصارت تفكر في يوم الزواج، وتكوين أسرة، وتذكّرت سماعها أصوات أطفال يقولون لعمّتهم: «تاتا».[50]

– هل تشرّفني الآنسة برقص أيّ شيء معي؟

كان ذلك دونوازال الذي انحنى أمامها.

– وهل نرقص معاً، نحن أيضاً؟ ألا نعرف أحدنا الآخر كثيراً؟ اجلس هنا.. ولا تعاكسني... حسناً! لمَ تنظر إليَّ هكذا؟

كانت رينيه ترتدي فستاناً من قماش التول الأبيض المزركش بسبع دوائر صغيرة وبأوراق لبلاب ذات بذور عنبيّة حمراء، تتكرّر على صدارها المميّز للعذراء، وعلى طيّات التول عند كميها. وهناك أوراق لبلاب مزهرة بالبذور الصغيرة الحمراء نفسها تلتف حول جديلتها، وتنزل حتّى كتفيها في خيطين أخضرين. كانت تجلس مرتخية الرأس قليلاً على الكنبة. وكان شعرها الكستنائيّ الجميل المسحوب إلى الأمام يغمر أعلى جبينها المضيء. برق صامت ناعم، نار هادئة عميقة، في عينيها الداكنتين المحجّبتيْن والغارقتين، في نظرتها التي لا نراها. كان النور يلاعب خدّيها. والظلّ يدغدغ فمها عند الزاويتين؛ بينما تترك شفتاها، المزمومتان عادةً في مطّة صغيرة متعالية، نصف انفراجة تلوح منها ابتسامة روحها. كان شعاع يضيء ذقنها؛ ويبدو في جيدها عقد من الظلال كأنّه يتحرّك مع كلّ حركة من رأسها. كانت جذّابة بتلك الطريقة، وقسماتها ضائعة في الضوء النازل من الثريّات، وملامح وجهها مستغرقة في سعادة طفلة كما لو كانت ممحوّة بتأثير الشمس.

– أنت جميلة جدّاً هذا المساء، يا رينيه.

– آه! هذا المساء؟

– الحقيقة أصارحك القول أنك في الفترة الأخيرة كلّها كنت تلوحين في منتهى الضجر، والكآبة... الانشراح يليق بك أكثر...

– صحيح؟ هل ترقص الفالس؟

– كما تعلّمت، بطريقة سيئة... لكنّك رفضت الرقص معي منذ قليل.

– أمّا أنّا فبي رغبة فظيعة في الرقص... وبعد هذا، سيتبقى لنا متسع من الوقت... آه! كفَّ عن النظر إلى ساعتك... لا أريد معرفة الوقت... آه! أنت تجدني منشرحة؟ مع الأسف! أنا لست منشرحة... أنا سعيدة.. أنا سعيدة جدّاً، هذا كلّ ما في الأمر!... أخبرني يا دونوازال، عندما تتسكع في باريس... هل تعرف، أولئك النسوة المسنات اللواتي يعتمرن قلنسوات من طراز منطقة اللورين... واللواتي يبعن الكبريت تحت أبواب العربات... عليك أنْ تعطي للخمس الأوائل اللائي ستلاقيهنّ ليرة ذهبية لكلّ واحدة... أرغب في ذلك... وسوف أعيدها لك... فلديّ توفير... كما تعلم... ما زالتْ رقصة الفالس؟ ماذا؟، أصحيح أنّني رفضت لك رقصة؟ حسناً، بعد اكتمال هذه، سوف أرقص كلّ شيء... ولن أنظر إلى الراقصين!... سوف يكونون أنذالاً مثل الجميع، وتكون لهم أحذية أعيد رصف نعالها، ويحدّثونني عن السياسيّ والفيلسوف روايبه كولار؛ سوف يكونون قصاراً جدّاً أو طوالاً جدّاً، وسوف يبلغون مرفقيّ أو أبلغ خواصرهم، وسوف يكونون معروفين بفساد مسامعهم أو بتعرّق أيديهم... سوف آخذ الكلّ! هذا هو طبعي هذا المساء: وليدّعوا إنّني لا أعرف الإحسان!

مرّ رأس رجل عبر باب الصالون الصغير.

– دافارند، راقصْني! قالت رينيه، وهمست إلى دونوازال وهي تمرّ بقربه:

– أرأيت؟، ها أنا أبدأ بالعائلة.

– ما الذي أصاب والدتك هذا المساء يا ترى؟ سأل دونوازال رينيه. كانا منفرديْن. وكانت السيّدة موبران قد صعدت للتو كي تنام. وكان السيّد موبران يؤدي جولة تفقدية في معمله، حيث كان هناك عمل في تلك الليلة. بدتْ لي في مزاج...

– في مزاج شرس، لنقلها صراحة...

– ما بها؟

– آه! هنالك... وشرعت رينيه تضحك، لقد فوّتُّ زواجاً، كما ترى.

– مرّة أخرى؟ صارت اختصاصاً!

– أوه! هو ليس إلّا الرابع عشر... ما زلتُ في المعدّل... وأنت المتسبّب في تفويته...

– أنا؟ ماذا تقولين؟ كيف ذلك؟ وقفت رينيه، أدخلت يديها في جيبيها، وشرعت تمشي من طرف الصالون إلى طرفه الآخر. وكانت تتوقف بين الحين والحين بغتةً وتستدير على كعب واحد محدثة نوعاً من الصفير.

– نعم، أنت! قالت عائدة إلى دونوازال، ماذا لو أخبرتك أنّني رفضت مليونين؟

– لا شكّ أنهم ذهلوا.

– لن أنكر أنّني مررت بإغواء... لا حاجة بنا إلى أنْ نكون أقوى ممّا نحن عليه... معك أنت، لا أكابر... حسناً! نعم، في لحظة ما كدت أضعف... لكن السيّد باروس هو الذي رتّب الأمر... بمنتهى الكياسة... هنا، أنت تعلم، إنهم يحاصرونني... أمّي وهنري يهاجمانني. بقيت منزعجة طوال النهار... لكنّني كنت أيضاً أحلم قليلاً... وفي الأخير، من المؤكّد أنّني نمت ليلتين بطريقة مزعجة جدّاً... الملايين مسكونة بالأرق! ويجب القول أيضاً، من باب النزاهة، إنّني كنت أفكر كثيراً في والدي بالنسبة لكلّ هذا... هل كان سيزهو بذلك، يا ترى؟ هل كان سيتمتع بالمائة ألف ليرة من إيرادي! فهو يفتخر بي.. أتذكّر غضبته الشهيرة: «صهرٌ من شأنه أنْ يترك ابنتي

تمتطي عربة عمومية!...» كان رائعاً!... في هذا السياق أستعيدك، نعم، أنت... أفكارك، مفارقاتك، نظرياتك، كلّ أنواع الكلمات التي قلتها لي... أفكر في ازدرائك للمال... وعندما أفكر في ذلك يتملّكني الأمر... طقْ! ذات صباح سوف أكف عن كلّ نشاط.. أنت تؤثر فيّ كثيراً، يا عزيزي، بالتأكيد...

– لكنّي... لكنّني غبي... آه! آسف... كنت أظنّ أنّ ذلك لا يتم بالعدوى، هل صحيح أنّني السبب؟

– نعم، أنت، كثيراً... وكذلك هو، قليلاً...

– آه!

– نعم، السيّد لومونييه أيضاً... كنت عندما أشعر بالثروة تصعد إلى رأسي أكثر ممّا يجب، عندما أصير راغبة في أنْ أصير السيّدة لومونييه... أنظر إليه... وليتك تعرف كمْ كان صحيحاً ذلك اليوم... شعوري بأنّني امرأة... لا يمكنك تصور ذلك! وإلى جانب ذلك، كنت أجده في منتهى الطيبة... آه! يا لها من طيبة... عبثاً حاولت قلبه وتقليبه، بسبب حيرتي، وفي الختام، وجدته كاملاً... حسناً! لا شيء! إنّه طيّب من كلّ النواحي، هذا الرجل! أوه! هو في هذا المجال سيّد آخر مثل روفرشون والآخرين! تصور أنّه يقول لي: «آنستي، أعرف جيّداً أنّني لا أعجبك؛ لكنْ اتركي لي قليلاً من الوقت لعلّ كرهك لي يخفّ قليلاً...» كم كان مثيراً للعطف... في بعض الأيّام كنت على وشك أنْ أقول له: «ماذا لو نبكي معاً قليلاً، هه؟...» لحسن الحظّ أنّه كان عندما يثير فيّ الرغبة في البكاء بتلك الطريقة، يكون أبي في الجانب الآخر قد أثار فيّ الرغبة في الضحك... ذلك الأب الطيّب له وجه طريف جدّاً، يتجاور فيه الحزن والبهجة... لم أرَ أبداً سعادة بتلك الدرجة من الانقياد... الحزن من فقداني والفرح بتوصّلي إلى زواج جميل... كلّ ذلك يتسبّب له بخليط عجيب! لكنّ كلّ ذلك انتهى الآن، بعناية الله! وهو يهدّدني مبحلقاً بصمت في حضور أمّي... هل لاحظت ذلك؟ لكنّهما ليستا عينيه الحقيقيتين... فهو يشعر بالرضا في داخله... وأنا أدرك ذلك...

كان دونوازال عند هنري موبران. وكان الإثنان يتبادلان الحديث قرب المدفأة، ويدخّنان. سمعا ضجة، جدلاً في ردهة الانتظار؛ وسرعان ما انفتح الباب بعنف، دخل رجل بغتة دافعاً الخادم الذي كان يحاول منعه من الدخول.

– السيّد موبران دو فيلاكور؟ قال.

– هذا أنا، يا سيّدي.

ووقف هنري.

– حسناً! أنا اسمي بواجوران دو فيلاكور...

وغطّى ظاهر يد عريضة وجه هنري موبران بالدم. تحت تأثير اللكمة، ومع النزيف، صار لون هنري أبيض مثل المنديل الأبيض الذي يضعه كربطة عنق. انحنى كي ينطلق؛ ثمّ انتصب فجأة، مدّ يده بحيوية نحو دونوازال الذي كان يتهيّأ، كتّف ذراعيه ببرود، وقال بصوت في أهدأ نبراته:

– أظنّ أني فهمتك يا سيّدي... أنت ترى أنّه يوجد شخص زائد من آل فيلاكور... وأنا أيضاً.

ارتبك الرجل أمام هذا الدم البارد من رجل مجتمع راقٍ، أزاح قبعته التي تركها على رأسه أثناء دخوله، وحاول التأتأة بجملة.

– تفضّل، سيّدي، قال له هنري مقاطعاً، بإعطاء عنوانك إلى خادمي. سوف أتصل بك غداً.

– إنّها قضية مزعجة! قال هنري عندما صار مختلياً بدونوازال من جديد. لكنْ من أين عساه خرج يا ترى، هذا الفيلاكور؟ قيل لي إنّها عائلة اندثرت... آه! إني أنزف، قال وهو يمسح وجهه. يا له من ثور! ثمّ نادى خادمه: يا جورج! قليلاً من الماء...

– ستثأر لنفسك باختيار المبارزة، أليس كذلك، قال دونوازال. ناولني عكّازاً... اسمعْ... تأخذ هيئة المبارزة عن بعد، لا تتقدّم كثيراً بالسيف... إنّه شخص دمويّ، هذا الرجل، سيهاجمك بعنف... عليك أنْ تقطع بعروض دائرية. وعندما تجد نفسك محشوراً، عندما يندفع نحوك بكلّ ثقله، تفلت منه عن يمينك بحركة من قدمك اليسرى، مع الدوران على أخمص القدم اليمنى... هكذا... لا يتبقى شيء أمامه، فتأخذه جانبياً، وتثقبه عند الخاصرة مثل ضفدع.

– كلّا، قال هنري رافعاً رأسه عن الطشت الصغير حيث كان يغتسل وبدأ ينشف وجهه، كلّا... ليس بالسيف.

– لكنْ، يا عزيزي، من البديهي أنّ هذا الرجل صيّاد؛ ولا شك أنّه معتاد على الأسلحة النارية...

– عزيزي توجد أوضاع... لقد أخذت لقباً، هذا موضوع مثير للسخرية... وها هوذا رجل يتهمني بسرقته... لديّ أعداء، لديّ الكثير منهم: سوف يثيرون ضجة بكلّ هذا... يجب أنْ أقتل هذا السيّد، الأمر واضح؛ إنّها الوسيلة الوحيدة لتنظيف وضعيتي... سأوقف كلّ شيء، المحاكمة، الحكايات، النميمة، كلّ شيء! فهل تريد منّي تناول السيف من أجل هذا؟ بالسيف نقتل رجلاً أمضى خمسة أعوام تدريب في قاعة مسايفة ويجيد إطلاق الرصاص، ويقدّم لك صدره كما تعودتَ إذا واجهته في هجوم؛ أمّا الرجل الذي لا يجيد المبارزة، ويقفز، ويرقص، وكأنّه يستخدم عصا... فمن شأني الاكتفاء بأن أجرحه، وهذا كلّ ما في الأمر... وبالنسبة للمسدس... فقد اعتنيت به... إنّني أسعى إلى قصاص عادل، لقد طوّرت براعاتي بشكل جيّد... وأفكّر في طعنه في هذا الموضع، ولامس دونوازال فوق الورك قليلاً، هنا، أرأيت؟ فإلى الأعلى أكثر تكون النتيجة سيئة: إذْ يمكن للذراع أنْ تحمي... بينما هنا تصيب عدداً من الآليات الصغيرة ذات الضرورة القصوى... توجد بالأخص تلك المثانة العزيزة... إذا وافقك الحظّ وأصبتها وكانت ملأى... عندئذ يحدث التهاب الصفاق، يا صديقي!... وعليك تناول المسدّس من أجلي... إنّها مبارزة خداع، هل سمعت؟... أريدها سريّة تماماً... من ستصطحب معك؟

– ماذا لو اصطحبت داردوييه؟ لقد خدم في الحرس القوميّ مع الخيّالة؛ سوف أستعين بخبرته العسكرية.

– اتّفقنا، هذا حسن جدّاً. قبل ذلك اذهبْ لزيارة أمّي، لا شك أنّها تنتظرني. قلْ لها إنّني لا أستطيع المجيء إلّا يوم الخميس... لا ينقصنا إلّا أنْ تفاجئنا بمجيئها هذه الأيّام... أنا لن أخرج... سأغتسل كي أكون في مظهر لائق أكثر... لم تعد آثار الضربة قوية في وجهي، أليس كذلك؟ سوف أتناول العشاء، ثمّ أكرس السهرة لبعض الكتابات الظرفية الصغيرة... في الواقع، ماذا لو أنك تلتقي بشهود هذا السيّد صباح الغد، لمَ لا تكون المبارزة بعد الظهر، في الساعة الرابعة؟ من المستحسن الانتهاء من ذلك... غداً، طوال النهار، سوف تجدني هنا أو في الرماية. رتّب الأمور كما لو كانت أمورك، مع الشكر المسبق... في الساعة الرابعة، نعم، إذا كان ذلك ممكناً؟

كان اسم المزرعة الذي أضافه هنري موبران إلى لقبه لرفعه إلى مصاف الأشراف، يشير، بمصادفة متفردة، لكنّها لا تخلو من حالات مشابهة، إلى اسم أرض إقطاعية في منطقة اللورين ولعائلة كانت مشهورة في الماضي، وصارت منسية تماماً في الحاضر حتّى أنّ الجميع يظنّونها اندثرت.

وكان الرجل الذي لطمه قبل قليل هو آخر سلالة آل فيلاكور، الذين أخذوا اسمهم من إقطاعة فيلاكور وقصرها، وهما على مسافة ثلاثة أميال من سان ميهييل، وتعود ملكيتهما إليهم منذ زمن غابر.

في العام 1303، كان أولريش دو فيلاكور أحد ثلاثة سادة إقطاعيين وسموا بختمهم وصية فيري، دوق اللورين، بأمر من ذلك الأمير. وتحت حكم شارل الجسور، وقع غونتوني دو فيلاكور أسيراً خلال قتال سكّان مدينة متز، ولم يُطلَق سراحه إلّا بعد تعهّده بعدم ركوب الخيل أو حمل السلاح الحربيّ؛ ومنذ ذلك الوقت صار لا يمتطي إلّا بغلة، ولا يلبس إلّا جلد الجاموس، وتسلّح بقضيب حديدي ثقيل، وعاد إلى القتال، بجسارة أكثر وفظاعة أشدّ. ولقد سمح الدوق رينيه بإعطاء مَاهُو دو فيلاكور ثمانمائة فلورين فضي من المساعدات المرصودة إلى مدينة لينييه كي يخلّصه من الفدية التي توجّب عليه دفعها بعد كارثة معركة بولنييفيل. وكان مَاهُو هذا قد تزوّج بالتعاقب كلّاً من جيغون دو مالان وكريستين دو غليسنوف، وكان يُرى بينهما، قبل الثورة، مجسَّداً بالرخام في كنيسة ليه كوردولييه دو سان ميهييل.

وكان روماكل دو فيلاكور، ابن ماهُو، قد قُتل سنة 1476، في المعركة التي شنّها الدوق رينيه، على مشارف مدينة نانسي، ضدّ شارل الأرعن. أمّا هوبير دو فيلاكور، ابن روماكل، وكيل الأمير الإقطاعي في منطقة بارْوَا وقاضي منطقة باسينيه، فكان يتبع الدوق أنطوان، بصفته حامل الراية الأوّل، في حرب الألزاس، بينما كان أخوه بونافنتور، المتديّن ضمن رهبانية القديس فرنسوا الضيقة، صار لثلاث سنوات أسقف رهبانيته، ونجيّ الاعتراف لكلّ من دوقيْ اللورين أنطوان وفرنسوا، كما انتخبت إحدى أخواته، وهي سلمون، رئيسة دير سانت غلوسند دو متز.

ظلّ جان ماري دو فيلاكور مرتبطاً بخدمة فرنسا. وبعد يوم لاندرسي، جعله الملك فارساً وسلّم عليه بالعناق. وبعد ذلك عُيّن قائداً على ثلاثمائة رجل من المشاة، وكُلِّف بالمؤونة وترويض الجياد في اسطبل الملك الذي دعاه إلى قيادة فوكولور، ثمّ إلى حكومة مقاطعة اللانغر. ولقد تزوّج إحدى أخوات جان دوشالينيي، رئيس السباكين لسلاح المدفعية في اللورين، الذي صهر مدفع الكولفرين الشهير الذي يشبه الثعبان بطول اثنتين وعشرين قدماً. وكان أخوه فيليبير فارساً من المرتزقة تحت حكم شارل التاسع؛ واشتهر أخوه غاستون بمبارزاته: إذْ كان هو الذي قتل القائد شامبرولار، بطعنتين قويتين من سيفه، خلف الشارترو في باريس، بحضور أربعة آلاف شخص. كما كان لجان ماري أخ آخر يدعى آنيوس، وكان كاهناً قانونياً في تول ورئيس شمامسة في تونروا، كما كانت له أخت، تُدعى آركانج، وكانت رئيسة دير راهبات سان مور، في فردان.

يأتي بعد ذلك غيّوم دو فيلاكور الذي وقف ضدّ لويس الثالث عشر. ولقد اضطرّ إلى الاستسلام تحت طلب شارل دولوننكور الذي كان يدافع عن مدينة سان ميهييل، وشاركه السجن لمدّة أربعة أعوام في الباستيل. تزوّج ابنه، شارل ماتياس دوفيلاكور، سنة 1656، من ماري ديودونيه، ابنة كلود دو جاندولانكور، الخياط في ملاّحة سان سلان. وأنجب منها أربعة عشر ابناً، قُتل عشرة منهم في خدمة لويس الرابع عشر: شارل، الكابتن في فوج دوبون، قُتل أثناء حصار فيليسبورغ؛ وجان، قُتل في معركة نرْوند؛ وأنطوان الكابتن في فوج النورماندي، قُتل في حصار فونتارابي؛ وجاك قُتل في حصار بلغارد حيث كان يوجد بترخيص من الملك؛ و فيليب نقيب الرماة في فيلق وليّ العهد، وقد قُتل في معركة مارساليا؛ تيبو، نقيب في الفوج نفسه، قُتل في معركة هوشستات؛ وبيار فرنسوا، مقدّم في فيلق الليوني، قُتل في معركة فلوروس؛ وكلود ماري، مقدّم في فيلق البيريغور، قُتل في ممرّ الهوغ؛ وإيدمه، ملازم في سريّة أخيه، وقتل بجانبه في القضية ذاتها؛ وأخيراً جيرار، وكان فارساً في أخوية القديس يوحنا المقدسيّ، قتل سنة 1700 في معركة شاركت فيها أربع سفن شراعية حربية تابعة للرهبانية ضدّ سلطانة تركيّة. ومن بين بنات شارل ماتياس الثلاث، تزوّجت إحداهنّ وهي ليديا، من سيّد الإقطاعة ماجاستر، حاكم إيبينال؛ أمّا الأخريان، بيرت وفوبي، فقد توفّيتا من دون زواج.

والبكر من أبناء شارل ماتياس، هو لويس إيميه دو فيلاكور، الذي خدم ثمانية عشر عاماً وانسحب من الخدمة بعد معركة مالبلاكيه مات سنة 1702. وغادر ابنه فيلاكور واستقر في باريس، وارتمى في نسق الحياة وخسر ما تبقّى من ثروة كانت قد بدأت تتآكل كثيراً بسبب خسارة

أبيه لقضية ضدّ آل دوهاروكور. حاول الاستدراك بواسطة القمار، وتورّط في الديون، ثمّ عاد إلى فيلاكور، حيث تزوّج سيّدة من بلدة كاروج، كانت قد أدرات محلّ قمار في باريس. توفّي سنة 1752، غير مالكٍ إلّا حيطان قصره، تاركاً اسماً في تضاؤل، وشرفاً في أفول.

كان قد أنجب من زواجه ابنة وابناً، وقد صارت الابنة وصيفة شرف لدى الإمبراطورة–الملكة، وظلّ الابن في فيلاكور، يعيش بدناءة وفظاظة حياة نبيل ريفيّ. خلال إلغاء الامتيازات سنة 1790، تخلّى عن سيادته الإقطاعية، وشرع يعيش على قدم المساواة والرفقة مع الفلاحين حتّى سنة 1792، تاريخ وفاته. وكان ابنه جان، الملازم أوّل في فيلق روايال لياجوَا سنة 1787، متورّطاً في قضية نانسي، وقد هاجر، وشارك في حملات 1792 إلى 1801 ضمن فيلق ميرابو، وصار يحمل اسم روجيه دو داماس، ومع رماة بوربون في جيش كوندي. أصيب يوم 13 أغسطس 1796 بجرح في رأسه، في معركة أوبيركاملاك. وفي سنة 1802 عاد إلى فرنسا مع زوجة كان قد تزوّجها في ألمانيا، وماتت بعد أن أنجبت له أربعة أبناء ذكور.

ولقد ظلّ أثرٌ من جرحه يشعره بضعف في رأسه يكاد يلامس الخرَف. وبدأت الفوضى تعمّ المسكن الخالي من ربة بيت تدريجياً، ومع تعوده على احتساء الخمر والضيافات المفتوحة أُجبرَ على بيع الأرض القليلة التي تحيط بالقصر. ومع مرور الزمن بدأ القصر يتداعى قطعة بعد قطعة، من دون إصلاحات، إذْ لم يبقَ مال لاستقدام عمال ودفع أجرتهم. كانت الريح تمرّ، والمطر يدخل؛ والعائلة تتقهقر أولاً بأول، من غرفة إلى أخرى، لتحتمي بالمواضع التي لا يزال فيها السقف متماسكاً. أمّا هو فلم يكن ليكترث بكلّ ذلك: فبعد جرعتين أو ثلاث من كحول «ماء الحياة»، جالساً في حقل البقول القديم، على مقعد حجري، قرب مزولة محا فيها الزمنُ الساعات، كان يتفتّح تحت الشمس، منادياً بعض الناس عبر سياجه لتناول كأس. وفي أثناء ذلك كان الخراب والبؤس يتفاقمان في القصر. فمن الفضّيات القديمة لم يبقَ إلّا وعاء سلاطة من فضة يستخدم لإطعام حصان هرم جلبه المهاجر من ألمانيا، يتحرك بحرية بين حجرات الطبقة الأرضية، ويُنادى باسم بروسكا.

أمّا الأبناء الأربعة فكانوا يكبرون، مع تفاقم خراب القصر، في الريح والمطر، بقسوة، مهملين، متروكين من أبيهم، ولا يكادون يتلقون تعليماً لولا بعض دروس الخوري. ونتيجة لمعايشة حياة القرويين، واختلاطهم بأعمالهم، وألعابهم، باتوا يتحوّلون إلى قرويين حقيقين، في الصف الأوّل من حيث الخشونة والقوة.

عندما مات الأب اتّفق الإخوة الأربعة على بيع ما تبقى من حجارة في قصرهم إلى تاجر سمسار، مقابل بضع مئات من الفرنكات سدّدوا منها ديوناً مطلوبة بإلحاح، وإيراد بخمسمائة فرنك سرعان ما سوف يتلاشى مع آخر من تبقى منهم؛ بعد ذلك توغّلوا في الغابة التي تبدأ عند طرف أرضهم القديمة، وعايشوا الحطّابين وشاركوهم في أسلوب حياتهم، جاعلين من كوخهم مأواهم القذر، مع حكايات حبّ وزوجات، حتّى عمّروا الغابة بسلالة خلاسية حيث تتلاقح سلالة فيلاكور بشكل طبيعي، بعد تهجين النبيل بإنسان الغابة، مع لغة لم تعد هي الفرنسية.

لقد حاول بعض رفاق جان فيلاكور في السلاح أنْ يهتموا بأبنائه بعد موته حقّاً. إذْ اهتموا بذلك الاسم الذي هوى من عليائه إلى الحضيض. وفي سنة 1826، استُقدم أصغرهم سناً إلى باريس، ولم يتجاوز السادسة عشرة. جرى إكساء المتوحش الصغير؛ وقُدّم إلى دوقة آنغوليم؛ فظهر مرّتين أو ثلاثاً في صالونات وزير الحربية، نسيب العائلة الذي كان راغباً بقوة في مساعدته؛ لكنّه، وبعد أسبوع، من الاختناق في تلك الصالونات وتلك الثياب، فرّ مثل ذئب صغير؛ وعاد رأساً إلى الوكر فلم يخرج منه أبداً.

من بين الأربعة دوفيلاكور، ظل واحد منهم فقط بعد مرور عشرين عاماً: هو نفسه. أمّا إخوته الثلاثة فقد ماتوا بالتتابع، ميتات عنيفة، أحدهم لأسباب صحية، والثاني بسبب السكر، والثالث نتيجة الضرب المبرح، وهكذا صعقوا واقتُلعوا من الحياة. ولأنّ آخر آل فيلاكور أحيط بمجموعة اللقطاء الذين خلفهم إخوته، فقد اكتسب في الغابة موقع شيخ قبيلة، حتّى ظهور قانون الصيد سنة 1854. فقد أدّى التقنين والمراقبة والمحاكمات والمخالفات والمصادرات، وكل وسائل إخضاع الصيد، أي إخضاع حياته، وكذلك خوفه من ردة فعل غاضبة تجعله يطلق الرصاص على أحد الحراس، إلى الشعور بالقرف من بلده، من فرنسا، من قطعة الأرض هذه التي لم تعد ملكه.

خامرته فكرة الهجرة إلى أمريكا كي يعيش حراً، ويتمتع باتساع المدى، والصيد في أرض بكر ومن دون رخصة سلاح. ذهب حتّى باريس كي يبحر من الهافر؛ لكنّه افتقر إلى المال الكافي للعبور. فارتدّ إلى أفريقيا؛ لكنّه، هنالك أيضاً، وجد فرنسا، وإدارتها، ودركيّها، وحارس ريفها. جرّب استثمار قطعة أرض، بعد استصلاحها، لكنّه لم يُخلق لمثل هذه الأعمال. يضاف إلى ذلك أنّه بدأ يعاني من البلاد ومن المناخ؛ ويفقد صحته الغابية الخضراء تحت شمس حارقة وأرض مضطرمة. وبعد عامين عاد إلى فرنسا.

لدى دخوله كوخ لاموت نوار، وجد فيها الشيء الوحيد الذي جاء في غيابه، جريدة: كانت تتمثل في عدد من صحيفة المونيتور، وقد مر على صدوره أكثر من عام. تناوله كي يشعل غليونه، فرأى وهو يفتلُه علامة بالقلم الأحمر، فرَدَ الصحيفة من جديد وقرأ في الموضع المعلّم بالأحمر:

«ينوي السيّد موبران (ألفريد هنري)، المعروف أكثر بلقب فيلاكور، الحصول على موافقة وزير العدل من أجل إضافة لقب فيلاكور إلى لقبه ليصير لقبه موبران دو فيلاكور».

وقف، مشى، نفخ، ثمّ عاد إلى الجلوس، وأشعل غليونه ببطء.

بعد ثلاثة أيّام كان في باريس.

لقد شعر في البداية، وفي اللحظات الأولى، وهو يقرأ الجريدة، بما يشبه لفحة سوط على وجهه. ثمّ قال محدّثاً نفسه إنهم يسرقون لقبه، وهذا كلّ ما في الأمر، وإنّ لقبه لم يعد ذا قيمة تذكر، فهو لقب شخص معدم. غير أنّ هذه الفلسفة لم تدم طويلاً: عادت إليه فكرة سرقة لقبه، بطريقة جارحة أكثر، وأشد مرارة، وإثارة للسخط. فهو في نهاية المطاف لم يعد يملك غير ذلك اللقب؛ فلم يتحمّل، وغادر.

لدى وصوله كان يشعر بغضبة ثور. فكر في الذهاب إلى ذلك السيّد موبران لينهال عليه بالضرب. لكنّه ما إنْ بلغ باريس، وشوارعها، وحشودها، وذلك الشعب، والدكاكين، وتلك الحياة، وأولئك المشاة، وذلك الضجيج، حتّى أصابه ذهولُ وحشٍ مفترس أُطلق داخل سيرك كبير، فتشتّت غيظه وظل متوقفاً بعد وثبته الأولى.

قصد قصر العدالة، وفي باحته الواسعة حاذى أحد أولئك الرجال السود الذين يقفون مستندين إلى الأعمدة، وأخبره بما حدث له. قال له الرجل الأسود، بما أنّ أجل العام قد انقضى، لم تبق أمامه وسيلة أخرى غير اللجوء إلى مجلس الدولة، للاعتراض على المرسوم الذي سمح بإضافة اللقب، وأعطاه اسم محام في مجلس الدولة وفي محكمة التمييز، وعنوانه.

أسرع السيّد دو فيلاكور إلى المحامي. وجده انساناً بارداً، مهذباً، يضع ربطة عنق بيضاء، انقلب على مقعد جلدي مدبوغ ذي لون أخضر، وأنصت بعينين ناعستين إلى قضيته كلّها، ومستنداته، وحقوقه، واستنكاره، وحفيف ورق الرقّ الذي كان يتصفحه بيد عصبية. لا شيء يتحرك

في وجه المستمع إليه. وعندما انتهى السيّد دو فيلاكور، حسب أنّه لم يُسمعْ، فعاد إلى تكرار قضيته. لكنّ المحامي أوقفه بحركة بدرت منه، قائلاً له: سيّدي، أظنّ أنك سوف تكسب القضية.

– كيف تظنّ!... ألست متأكّداً؟

– تبقى الدعوى دعوى دائماً، يا سيّدي، قال المحامي مع ابتسامة ممحوة شديدة الارتياب حتّى إنّه جمّد السيّد دوفيلاكور الذي كان على أهبة الاندفاع. لكنّ كلّ الحظوظ إلى جانبك، يا سيّدي، وأنا مستعد لتبنّي قضيتك...

– إذنْ ها هي ذي، قال السيّد دوفيلاكور واضعاً رزمة مستنداته على المكتب. أشكرك يا سيّدي.

ووقف، وألقى السلام.

– عفواً، يا سيّد، قال له المحامي وهو يراه يتجه نحو الباب. عليّ أنْ أذكّرك بأنّنا، في هذا النوع من القضايا، وفي حالة النقض لدى مجلس الدولة، لا يتحلّى الواحد منّا بصفة محامي موكّله فقط، بل بصفة وكيله أيضاً. هناك بعض المصاريف، والاستعلامات، وجمع الحيثيّات... وأنا مضطرّ أنْ أطلب منك، إذا كنت ترغب في تكليفي بقضيتك، تغطية كلّ ذلك... أوه! يا إلهي، المبلغ يتراوح بين خمسمائة فرنك وستمائة... خمسمائة إذا أردت...

– بين خمسمائة فرنك وستمائة!... ما هذا؟ قال السيّد دوفيلاكور ولونه يحمرّ، يُسرق لقبي، ولأني لم أقرأ الجريدة التي نبّهني فيها الرجل الذي سرقني أنّه سيسرقني، يجب أن تكون بحوزتي ستمائة فرنك حتّى يعيد لي ذلك النذل لقبي!... بين خمسمائة فرنك وستمائة!... لكنّني يا سيّدي، قال وهو يترك ذراعيه تسقطان ويحني رأسه، لا أملك هذا المبلغ.

– متأسّف جدّاً، يا سيّدي... إنّها إجراءات ضرورية... أوه! ولعلّك تستطيع الحصول على المبلغ بطريقة أو بأخرى... أنا متأكّد أنّ ثمّة بعض المتحدّرين من عائلات كانت حليفة عائلتك... يستحيل... لا بدّ من التضامن في مثل هذه المسائل...

– سيّدي أنا لا أعرف أحداً... والكونت دوفيلاكور لن يطلب شيئاً... كان بحوزتي ثلاثمائة فرنك لدى وصولي. اشتريت سترة الرودنغوت هذه بخمسة وأربعين فرنكاً في الباليه رويال، لدى

مروري بالمنطقة قادماً إليك... وهذه القبعة كلفتني سبعة فرنكات... وأفترض أنّ أجرة الإقامة قد تصل إلى عشرين فرنكاً... وأخصّص خمسة وعشرين فرنكاً أجرة العودة... هل تستطيع الدفاع عنّي بما تبقى؟

– متأسّف، يا سيّدي...

اعتمر السيّد دوفيلاكور قبّعته وخرج. وعند باب ردهة الاستقبال، استدار حول نفسه، وعاود اجتياز قاعة الأكل، وفتح باب المكتب من جديد قائلاً بصوت مخنوق كان يحاول كبحه:

– سيّدي، هل يمكنني الحصول... مجّاناً... على عنوان السيّد هنري موبران، الملقب بدوفيلاكور؟

– طبعاً... فهو محامٍ... سأجد عنوانه هنا... هوذا... 14 شارع تيبو.

بعد ذلك مباشرة هرع السيّد دوفيلاكور إلى مكتب هنري موبران.

في مساء ذلك اليوم، عندما دخل دونوازال إلى صالون آل موبران، وجد فيه بهجة غير معتادة. مظهر سعادة ينتشر على كلّ الوجوه. مزاج السيّد موبران الرائق يصعد إلى عينيه في مكر ضاحك. وفي سحنة السيّدة موبران شيء من الاسترخاء والتفتّق والغبطة الحميمة. بينما كانت رينيه ترفرف في الصالون، وتضع فيه، بجذل الفتاة الشابّة، حركة جناحَي طائر، وحيويّتهما ورفيفهما تقريباً.

– هذا دونوازال! قال السيّد موبران.

– صباح الخير، سيّدي! قالت رينيه بصوتها الطفوليّ.

– ألم تصطحب هنري؟ قالت السيّدة موبران.

– لم يتمكّن... سوف يأتي بعد غد... هذا مؤكّد.

– هذا لطف منك! آه! شكراً لأنك جئت أيها الشقيّ الظريف، تابع السيّد موبران، وهو يستفز دونوازال بطريقة استفزاز الأطفال لإضحاكهم. هوذا أنت أيها الفاسد!... آه يا أيها البذيء...

وصافحه السيّد موبران غامزاً باتجاه زوجته.

– نعم، نعم... اقتربْ منّي قليلاً يا دونوازال، قالت السيّدة موبران. اجلسْ هناك حتّى أعترف لك... يبدو أنّ هناك من التقاك ذلك اليوم في الغابة وكنت داخل عربة صغيرة مقفلة... ثمّ توقفت مثل قطة تحتسي حليباً.

– هي ذي أمّك قد انطلقت! قال السيّد موبران مخاطباً رينيه. إنّها في غمار بهجتها اليوم؛ وأنا أنبّهك يا دونوازال!

كانت السيّدة موبران قد خفضت صوتها. مالت نحو أذن دونوازال وشرعت تروي له حكاية طويلة جريئة. ولم يكن يسمع إلّا أنصاف كلمات تقطعها ضحكات مخنوقة.

– هذا ممنوع يا أمّي، ممنوع الضحك في الزوايا... أعيدي لي دونوازال الذي يخصّني... وإلا فسأحكي أنا أيضاً حكايات إلى بابا...

– يا إلهي! في منتهى الغباء، أليس كذلك؟ قالت السيّدة موبران في خاتمة حكايتها، مقهقهة، بتلك الضحكات الآسرة للنساء المسنات المتسليات بحكاية متحررة قليلاً.

– هل أنتم مرحون كلكم هذا المساء! قال دونوازال الذي أربكه كلّ هذا الفرح.

– مرحون جدّاً! قالت رينيه، هذا هو وضعنا... وسوف نبقى مرحين مثل الآن... غداً وبعده... ودائماً! أليس كذلك يا أبي؟ وركضت نحو والدها وجلست على ركبته مثل طفلة صغيرة.

– عزيزتي! قال السيّد موبران لابنته. انظري! انتبهي قليلاً يا سيّدة موبران، هل تتذكرين؟ هي ركبتها عندما كانت صغيرة.

– نعم، قالت السيّدة موبران، وهنري كانت له الركبة الأخرى.

– إنّي أستعيد رؤيتهما، تابع السيّد موبران، كان هنري هو البنت... وأنتِ، يا رينيه، الصبي... لقد مرّ على ذلك خمسة عشر عاماً على الأقلّ! كنتما تتسليان عندما أمرّر يديكما على ندبات السيف في جسمي... كانا مثل شيطانيْن! كانا ينفجران بالضحك! والتفت ناحية السيّدة موبران: «يا زوجتي الطيبة، كم تعبتِ معهما! ما من مشكلة، يا دونوازال، العائلة أمر حسن: فالقلب ينتج أطفالاً، بشرفي!»

– آه من هذا! قالت رينيه، ها أنتذا، لن نتركك يا دونوازال... غرفتك تنتظرك منذ زمن طويل...

– أنا متأسّف، يا صغيرتي رينيه، في الحقيقة لديّ أعمال هذا المساء في باريس... أؤكّد لك ذلك، حقّاً!

– أوه! أعمال!... أنت؟ يا مغرور!...

– ابقَ إذن يا دونوازال، قال السيّد موبران. لدى السيّدة موبران مجموعة حكايات سترويها لك مثل حكاية هذا المساء...

– أوه! ستبقى، أليس كذلك؟ قالت رينيه. سوف نتسلّى جيّداً، هيّا! لن أعزف لك على البيانو. لن أضع الكثير من الخلّ في السلاطة. سوف نتسلى بتعابير فيها الكثير من التورية والجناس... هيّا، ما رأيك، يا دونوازال؟

– أوافق... لكن للأسبوع القادم.

– يا لئيم! وأشاحت رينيه عنه.

– ودراردوييه، قال دونوازال، أليس معكم هذا المساء؟

– أوه! سيأتي بعد قليل، قال السيّد موبران. ويمكنه ألا يجيء أيضاً.. فهو في الأشغال، يعمل في نصب الشواخص... أعتقد أنّه ينقل جبله إلى بحيرته وينقل بحيرته إلى جبله...

– وليكنْ! لكن في المساء؟

– أوه! في المساء لا ندري، قالت رينيه. هو ممتلئ بالألغاز، هذا السيّد داردوييه... لكن ما لك غريب الأطوار هذا المساء يا دونوازال؟

– أنا؟

– نعم أنت. لا تبدو مرحاً: ولست بحيويتك المعتادة. ما الذي يزعجك؟

– دونوازال، أنت تخفي شيئاً، قالت السيّدة موبران.

– لكن، لا شيء بالمرة، يا سيّدتي، أجاب دونوازال، ماذا تظنّين أنّني أخفي؟ ولست حزيناً بتاتاً... لكنّني متعب قليلاً هذا كلّ ما في الأمر... فمنذ ثمانية أيّام وهنري يدفع بي إلى الركض... طلب رأيي في الأثاث الذي سيقتنيه...

– صحيح، قالت السيّدة موبران وقد أشرق وجهها، صحيح، نحن نقترب... يوم 22!... آه! نعم، لقد قيل لي هذا الكلام قبل عامين!... أخشى أنْ أبالغ في الفرح، عندما يحلّ ذلك اليوم!... وعندما نحصل على أحفاد، ما قولك يا موبران؟ وأغمضت عينيها قليلاً بلطف أمام مستقبلها كجدّة.

– وسوف أجد صعوبة في تدليلهم بعدك يا أمي! قالت رينيه. سوف أكون متألقة الجمال، هيّا يا دونوازال! لديّ فستان للقدّاس... لقد جعلوني أقيسه البارحة... وهو مناسب!... لكنْ أخبرني يا أبي، هل لك ثياب للعرس؟

– لديّ ثيابي القديمة جديدة...

– أوه! لا بدّ لك من ثياب أخرى أجدّ من تلك... لكي تعطيني ذراعك... آه! أنا غبية، لن تعطيها لي أنا... يا دونوازال، أحتفظ لك برقصة تقابليّة... سنعدّ لحفل راقص، أليس كذلك يا أمّي؟

– حفل راقص... وكل شيء! قالت السيّدة موبران. قد لا يكون ذلك متميزاً جدّاً، لكنْ، لا يهمّ! أنا، أريد عرساً حقيقياً... عودة إلى طقوس العرس كما فعلنا في عرسنا، هل تتذكّر يا سيّد موبران؟ سوف نرقص، ونأكل، ونشرب...

– نعم! قالت رينيه، سوف نُثمل كلّ عمالنا!... ودونوازال أيضاً! فربّما فرح بالثمالة...

– كلّ هذا الوقت ولا أرى داردوبيه يأتي، قال دونوازال وهو ينهض.

– ما هذه الحاجة الملحة لداردوبيه هذا المساء؟ سأله السيّد موبران.

– نعم، هذا صحيح، قالت رينيه. أمر غير واضح... أوضحْ، يا دونوازال!

– هل أنت فضولية، يا رينيه؟ لا يوجد شيء مهمّ... أريد أن أستعير منه كلب «البلدغ» من أجل معركة الجرذان، في نادينا، غداً... راهنت على أنّه سيتمكن من خنق مائة في دقيقتين... والآن عليّ الذهاب، تصبحون على خير!

– تصبح على خير!

– إذن، يا ابني... بعد غد، بالتأكيد؟ قالت السيّدة موبران لدونوازال عند الباب.

انحنى دونوازال ولم يجب.

وصل دونوازال إلى آخر القرية، حيث بيت داردوييه الصغير، ودقّ الجرس. جاءت خادم عجوز لتفتح:

– هل السيّد داردوييه نائم؟

– هو؟ كلّا! قالت الخادم، إنّه يعيش حياته... يتسكّع في الحديقة؛ ستجده.

وفتحت له الباب الزجاجيّ لقاعة الأكل.

كان ضوء حادّ ينزل من القمر على الحديقة العارية تماماً، المربعة الشكل مثل منديل جيب، والمحروثة مثل حقل. في إحدى الزوايا، وعلى تلة صغيرة، ينتصب خيال أسود مكتوف الذراعين بلا حراك: كان يبعث على الاعتقاد أنّه شبح في لوحة من لوحات الرسام بييَار[51]. كان ذاك هو السيّد داردوييه.

كان في منتهى الاستغراق إلى حدّ أنّه لم يلمح دونوازال إلّا عندما صار حذوه.

– آه! هذا أنت، عزيزي السيّد دونوازال، قال. تشرفت... انظرْ! وأشار إلى الأرض المحروثة، ما رأيك أنت، في هذا؟ هي ذي صفوف مستقيمة. أتمنّى أنّها كذلك... كم هي ناعمة، ليّنة، أرأيت؟

ومرّر يده بفرح في الفراغ، على مشروع ربوته كأنّه يداعب ردفاً مثالياً.

– عفواً، سيّد داردوييه... قال دونوازال، جئت من أجل قضية...

– ضوء القمر... تذكرْ هذا، إذا ما حصلت على حديقة... لا يوجد حلّ آخر لرؤية ما نعمل... وبشكل صحيح... في النهار لا ننتبه إلى تراب الرّدم...

– سيّد داردوييه، أخاطب رجلاً ارتدى الزيّ العسكريّ... أنت مقرّب من آل موبران... جئت أطلب منك أنْ تكون شاهداً من أجل هنري...

–مبارزة؟ قال داردوييه وهو يزرّر الثوب الأسود الذي يرتديه في الصيف كما في الشتاء. طبعاً، هذا النوع من الخدمات يدخل في باب الواجب...

– سأصطحبك، قال له دونوازال ممسكاً بذراعه... سوف تنام عندي... ستجري الأمور بسرعة... ستنتهي غداً... وربّما بعد الغد في أبعد تقدير.

– جيّد، قال داردوييه ملقياً نظرة أسف على خط أوتاد شرع في نصبها، وكان القمر يسقط ظلالها على الأرض.

عندما غادر السيّد دوفيلاكور مقر هنري موبران، فكّر أنّه محروم من الأصدقاء، ومن الشهود. وهذا ما لم يفكر فيه من قبل. تذكّر اسمين أو ثلاثة يتكرران في حكايات والده العائلية. وحاول أنْ يجد، عبر الشوارع، بعض البيوت التي أخذوه إليها عندما حلّ بباريس طفلاً. دقّ على أبواب بعض النّزُل، غير أنّ المالكين كانوا قد تغيّروا، أو رفضوا استقباله.

في المساء عاد إلى نزله المفروش. لم يشعر بالوحدة كما شعر بها في تلك اللحظة. وعندما كان يستلم مفتاح غرفته، طلبت منه سيّدة النزل إنْ كان يرغب في تذوّق بيرة من الصنع المحليّ؛ وفتحت أمامه باباً في الممرّ، وأدخلته إلى المقهى الذي يحتل الطبقة السفلى من النزُل.

كانت على المشاجب سيوف معلقة، وقبعات مثلثة القرون. وفي آخر المكان، تلوح، عبر دخان الغلايين، بدلات تدور حول غطاء رثّ لطاولة بلياردو. وكان هناك صبيّ هزيل البنية يرتدي ميدعة بيضاء، يركض مذعوراً ومدهوشاً، وقد أفاض القهوة الطافحة في الفناجين على جريدة «مونيتور الجيش».

قرب المشرب رئيس طبالين في جوقة عسكرية يلعب النرد مع صاحب النزل، مشمّراً قميصه. ومن كلّ الأنحاء تتنادى أصوات وتتجاوب مع تلك الغرغرة التي يتميّز بها كلام العسكر: «– غداً، سأذهب إلى المسرح...»؛ «– أنا، سآخذ إجازتي...»؛ «– غابريو هو الآن حارس كنيسة سان سولبيس!»؛ «– جرى اقتراحه على المفتّشين حتّى يمرّ...»؛ «– من هو المناوب في حفل بوردون؟»؛ «– من كان يتصوّر ذلك؟ يقتل نفسه بالرصاص، هو الذي لم تُسجل عليه أية عقوبة في سجلّه!»

كانوا كلّهم حراس باريس، من الثكنة المجاورة، ينتظرون نداء الساعة التاسعة.

– أيها النادل! طاسة من البنْش[52] وثلاث كؤوس! قال السيّد دوفيلاكور وهو يجلس إلى طاولة فيها حارسان.

بعد وصول البنْش، ملأ الكؤوس الثلاث، ثمّ قدّم واحدة لكلّ حارس، ووقف:

– على نخبكما، قال وهو يقرع كأسيهما، أنتما عسكريّان.. وأنا سأتبارز غداً... لا أظنّ أنّني أترك لديكما انطباعاً بكوني يهودياً تائهاً. ليس لي أحد... أنا متأكّد من وجود شاهدَين معي هنا.

– ما رأيك يا غايوردو؟ قال أحد الحارسين ملتفتاً نحو زميله بعد أنْ حدّق بالسيّد دوفيلاكور. تناول الحارس الثاني كأسه من دو أنْ يجيب وقرعها بكأس السيّد دوفيلاكور.

– حسناً! صباح الغد، الساعة العاشرة... الغرفة 27...

– يكفي! قال الحارسان.

صباح الغد، في اللحظة التي كان دونوازال يتأهب مع داردوبيه للذهاب إلى السيّد بواجورون دو فيلاكور، دقّ جرس غرفته ودخل حارسا باريس. وكانت مهمتهما تتمثل في قبول الموافقة على كلّ شيء، شروط المبارزة، نوع السلاح، المسافات، وهكذا تم تحديد الترتيبات بالنسبة للمبارزة. وتم الاتفاق على مواجهة بالمسدسات، على مسافة خمس وثلاثين خطوة، مع حقّ كلّ خصم في المشي عشر خطوات. طلب دونوازال، باسم هنري، إنهاء القضية في أسرع وقت ممكن؛ وذلك ما كان شاهدَا السيّد دو فيلاكور يتأهّبان لطلبه: فلديهما رخصة الذهاب إلى عرض، ولا يمكنهما البقاء مع السيّد دوفيلاكور إلّا عند حدود منتصف الليل. وكان الاتفاق على موعد في الساعة الرابعة عند مستنقعات فيل دافري.

أسرع دونوازال يخطر جرّاحاً شابّاً من أصدقائه. وذهب إلى مؤجّر عربات لحجز عربة مريحة ومناسبة لنقل جريح. ثمّ قصد هنري الذي كان قد خرج. ذهب إلى قاعة الرماية فوجده يتسلّى بالرمي على حزمات كبريت صغيرة تتكون من أربعة عيدان أو خمسة، معلّقة إلى خيط، يشتعل عندما يصيب الكبريت برصاصته.

– أوه! هذا لا يعني شيئاً، قال لدونوازال، أعتقد أنّه يشتعل بريح الرصاصة، لكن انظر..

وأظهر له ورقاً مقوى تمكّن من تسديد دزينة من الرصاص داخل حلقته الأولى.

– هذا المساء... في الساعة الرابعة... كما طلبت، قال له دونوازال.

– جيّد، قال هنري وهو يعيد المسدس إلى الفتى، ويغلق بأصابعه ثقبين في الكرتون، كانا بعيديْن عن البقية: أريت، لولا وجود طلقتين منفصلتين لكانت هذه الكرتونة جيّدة للتأطير. آه! أنا مسرور لتحديد الموعد لليوم... ورفع ذراعه بحركة شخص معتاد على الرماية ويستعّد لها، وحرّك يده لحظة لتحريك الدم. تصوّرْ، تابع يقول، لم أتأثّر بفكرة المبارزة إلّا صباح اليوم وأنا في فراشي... تلك الهيئة الأفقية اللعينة... لا أعتقد أنّها متوافقة مع الشجاعة...

كان تناول الغداء عند دونوازال؛ أعقبته جلسة تدخين. كان هنري مرحاً، منطلقاً في البوح، ويتكلّم كثيراً. وصل الجرّاح. وصعد أربعتهم إلى العربة.

في منتصف الطريق، وقد التزم الجميع بالصمت حتّى ذلك الوقت، ألقى هنري سيجاره عبر باب العربة، بحركة من نفد صبره.

– أعطني سيجاراً يا دونوازال، سيجاراً جيّداً... ألا تعلم أنّ السيجار الجيد مهمّ جدّاً للرماية؟ من أجل حسن التسديد ينبغي التخلص من التوتر... هذا هو الشرط الأوّل. لقد بدأت بحمّام هذا الصباح... إذا كنت تعاني من ابسط اهتزاز... انتبه! من الأفضل عدم القيادة، هذا مكروه... فالخيول تجرّح يدك... أتحدّاك بعد ذلك أن تطلق في خط مستقيم... لا بد أن تفاجئك حركة إصبع... الروايات غبية بحكاياتها عن تلك المبارزات حيث يصل الشخص ويرمي بالأعنة لخادمه... ماذا لو قلت لكم إنّ هناك حاجة للانتعاش؟ هذا أمر إيجابيّ... لم أرَ من يطلق أفضل من الانجليزي أبداً... لكنّه ينام باكراً في الثامنة... ولا يستهلك منبهات... ويتنزّه كلّ عشية كما يفعل أبوه... في كلّ المرّات التي فيها قصدت الرماية في عربة متعبة، ظهرت نتيجة ذلك على نماذج الورق المقوى التي سدّدت إليها طلقاتي... وبالمناسبة عربتك رائعة جدّاً، يا دونوازال... حسناً، حتّى السيجار تأثيره مماثل: فالسيجار المزعج في التدخين، يجبرك على التعامل معه في كلّ لحظة برفع ذراعك إلى فمك، حتّى تتعب يدك؛ في حين أنّ السيجار الجيد، ويمكنك التأكّد من رام بارع، فهو يسكّن، ويهدئ الأعصاب... لا شيء أفضل من إيقاع الذراع التي تسحبه ثمّ تعيده بالتوالي. حركة بطيئة، ومنتظمة...

لقد وصلوا.

كان السيّد دوفيلاكور وشاهداه ينتظرون على الطريق المهيّأة بين المستنقعيْن.

كانت الأرض بيضاء بالثلج الذي انهمر طيلة الصباح. وكانت الغابة ترسل في السماء أغصاناً جرداء، وفي البعيد صفوف أشجار سوداء تحزّز حمرة غروب شتائيّ.

تقدّموا حتّى درب مونتالي. حُسبت الخطى، ولُقّم مسدّسا هنري، ووُضع الخصمان في الخط المحدّد. ووضعتْ قصبتان في الثلج لتحديد الخطوات العشر المتاحة لكلّ خصم.

لحظة كان دونوازال يقود هنري إلى المكان الذي عيّنته له القرعة، وقد تولّى إعادة إدخال جزءِ من ياقة قميصه تجاوز ربطة العنق: «شكراً، قال له هنري بصوت خفيض، قلبي يخفق قليلاً تحت إبطي... لكنّك ستكون راضياً...»

خلع السيّد دوفيلاكور سترة الرودنغوت، واقتلع ربطة العنق، ورمى بكلّ ذلك بعيداً. وأظهر قميصُه المفتوح كثيراً صدره القوي والصلب وكلّه مغطّى بالشعر الأسود والأبيض.

تسلّح الخصمان، وابتعد الشهود واصطفوا في الجانب نفسه.

– تحرَّكا! صاح صوت.

وإثر هذه الكلمة، تقدّم السيّد دوفيلاكور، وسار من دون مواربة تقريباً. ظل هنري واقفاً وتركه يتقدّم خمس خطوات. في السادسة أطلق النار... فسقط السيّد دوفيلاكور، جالساً على الأرض.

عندئذ رأى الشهود الجريح يضع مسدسه، ويضغط بقوة إبهاميه على الثقب المزدوج الذي أحدثته الرصاصة في بطنه، ثمّ تشمّم إبهاميه.

– ليس هناك رائحة غائط...! لقد أخفقت الطلقة! عد إلى مكانك يا سيّدي! صاح بصوتٍ عالٍ على هنري الذي ظنّ أنّ كلّ شيء قد انتهى، وتحرّك قاصداً الذهاب؛ ثمّ التقط مسدسه، وشرع يخطو بقية الخطوات التي ظلّت أمامه حتّى يبلغ القصبة، زاحفاً على يديه وساقيه. وكان يترك آثار دم على الثلج خلفه...

عندما بلغ القصبة، استند بمرفقه على الأرض، وظل يسدّد ببطء وإطالة...

– هيّا أطلقْ! صاح داردوييه.

كان هنري منزوياً، يغطي وجهه بمسدّسه، وينتظر. كان شاحباً، مع نظرة مزهوّة. انطلقت الرصاصة: ناسَ ثانيةً، ثمّ سقط منبطحاً، ووجهه في التراب، بينما تولّتْ يداه، في طرفي ذراعيه الممدوتين، نبش الثلج لحظةً بأصابعهما المتشنّجة.

نزل السيّد موبران لدى استيقاظه، ووفق عادته، إلى الحديقة، عندما لمح دونوازال قادماً نحوه.

– أنت هنا، في هذه الساعة؟ قال مندهشاً تماماً. أين نمت؟

– سيّدي موبران... قال دونوازال ضاغطاً على يديه.

– ماذا؟... ماذا حدث؟ قال السيّد موبران وقد أحس بحدوث كارثة...

– هنري جريح...

– هل هو جرح خطير؟ هل قاتل؟

أحنى دونوازال رأسه.

– جريح؟... آه! لقد مات!

وبدل الإجابة، اكتفى دونوازال بالارتماء في حضن السيّد موبران وقبّله.

– مات! كرّر السيّد موبران آليّاً، وانفتحت يداه كما لو كانتا تفلتان شيئاً ما. ثمّ انهمرت دموعه مع كلماته: – وأمّه!... هنري!... أوه! يا إلهي!... أوه! لا أحد يعرف كم نحبّهم... وهم في الثلاثين!

واختنق بالشهيق، فسقط على المقعد. وبعد لحظة: «أين هو؟»

– هناك...، وأشار دونوازال إلى نافذة غرفة هنري.

كان قد جلب الجثمان من فيل دافاري إلى بيت داردوييه، ومن هناك سعى بتعلة ما، إلى الاتصال ليلاً بالسيّد برنار، الذي يترك عنده السيّد موبران نسخة من مفتاح البيت. ومع انتصاف الليل، ونوم العائلة، خلع الرجال الثلاثة أحذيتهم، وذهبوا يسجّون الجثمان في فراشه.

– شكراً! قال له السيّد موبران؛ مشيراً إليه بأنّه بات عاجزاً عن الكلام، ونهض واقفاً.

جابَا الحديقة أربع أو خمس مرّات بصمت. كانت الدموع تعود إلى عيني السيّد موبران بين الفينة والخرى؛ لكنّه لم يعد يبكي. وأحياناً تبدو بعض الكلمات كأنّها تصل إلى طرفي شفتيه ثمّ تعود لتهوي في قلبه. وفي الأخير، وبصوت متقطّع لكنّه عميق، يمزّق ذلك الصمت الطويل بجهد جهيد، قال السيّد موبران لدونوازال بغتة من دون أنْ ينظر إليه:

– هل مات حقّاً؟

– كان ابنك، أجاب دونوازال.

وإثر هذه الكلمات، رفع الأب رأسه كما لو أنّه استعاد قوته لتحمل ألمه:

– هيّا، قال، يجب القيام بالواجب الآن... أمّا أنت فقد بذلت الكثير...

وضمّ دونوازال إلى صدره باكياً في شَعره.

– إنّها جريمة قتل، هذه الأشياء! قال باروس لدونوازال مرافقاً الجثمان إلى المقبرة، كيف لم ترتّب القضية؟

– بعد لكمة؟

– بعدها أو قبلها، قال باروس بحسْم.

– اذهبْ لتقول هذا الكلام إلى والده!

– آه! طبعاً، عسكريّ!... أمّا أنت فلم تؤدِّ الخدمة أبداً!... ودفعته للموت!... أنا أرى أنك أنت الذي قتلته...

– كفى! دعني وشأني، يا سيّد باروس.

– أنا، كما ترى، أشغّل عقلي... كنت قاضياً... باروس كان قاضياً في محكمة التجارة، حسناً! المبارزة... أمامكم المَحاكم، العدالة، كلّ شيء! هذا أمر مخالف لكلّ القوانين الإلهية والبشرية تخيّل ذلك! كيف أنّ شخصاً آثماً يأتي ليصفعني مرّة أو مرّتين... ويكمل ذلك بأنْ يقتلني! آه! أعدك بشي حقّاً... إذا حصل وأنْ أُهنتُ ووجدتني أمام قضية مبارزة... بالنسبة لي، هي عملية قتل... المتبارزون قتلة... إنّها عملية جبانة أوّلاً...

– ولا يتجرّأ عليها أحد، يا سيّد باروس... إنّها مثل الانتحار...

– آه! لو أنك تدافع عن الانتحار! قال باروس، ثمّ تخلّى عن الحوار، وتابع بنبرة إشفاق: كان شابّاً شجاعاً! هنري المسكين! ثمّ هناك موبران... وزوجته... وابنته، عائلة كاملة تغرق في الدموع! لا مجال لرباطة الجأش عندما نفكر في كلّ ذلك... هناك طفل رأيته...

عندما كان باروس يتكلّم سحب ساعته من صدريته قليلاً:

– حسناً! قال وهو يقطع كلامه فجأة، أنا متأكّد من بيعه... لا أريد تفويت حفل الجمعيّة... تجربة ممتازة!... قبل الإهداء!

رافق دونوازال السيّد موبران في عودته إلى لابريش، وحال وصوله صعد نحو زوجته. وجدها في فراشها، ومغالق النوافذ موصدة، والستائر مسدلة، وهي غارقة ومتوغّلة في ظلمة ألمها.

دخل دونوازال إلى الصالون حيث كانت رينيه جالسة فوق وسادة محشوّة، تنتحب ومنديلها على فمها.

– رينيه، قال لها وهو يمسك بيديها، لقد قتلوه... نظرت إليه رينيه ثمّ غضّت طرفها. فأضاف: ما كان لذلك الرجل أنْ يعلم شيئاً أبداً... فهو لا يقرأ، ولا يخالط أحداً، كان يعيش مثل ذئب... لم يكن مشتركاً في جريدة المونيتور، أليس كذلك؟

كانت ترتجف.

– حسناً كان لا بدّ مِن يدِ عدوّ تلقي بتلك الجريدة إلى ذلك الرجل. آه! نعم، أنتِ لا تفهمين مثل هذه الأفعال الجبانة! ومع ذلك فهذا هو ما حصل... لقد أطلعني أحد شاهديْه على الجريدة المعلَّم عليها في الموضع...

انتصبت رينيه واقفة، وعيناها متّسعتان بفعل الرعب؛ حرّكت شفتيها، انفتح فمها، أرادت الصراخ: نعم أنا!... لكنّها، فجأة، وضعت يدها على قلبها كما على جرح مباغت، وسقطت متصلّبة على السجادة.

ظلّ دونوازال يأتي يومياً إلى لابريش ليطمئنّ على صحة رينيه. وعندما تحسنت حالها قليلاً، استغرب عدم سعيها لرؤيته. ألم يتعود على استقبالها له عندما تكون مريضة في فراشها، مثل صديق يُعتبر من أفراد العائلة؟ وخلال أمراضها تلك، ألم يكن هو من بين الأوائل الذين نادتهم واستقبلتهم، مسلّيها وبهلولها المكلّف بإبهاجها أثناء تعافيها وإرجاعها إلى ضحك العافية؟ حردَ، ثمّ عاد. غير أنّ غرفة رينيه ظلّت موصدة دونه. ذات يوم قيل له إنّها متعبة جدّاً؛ وفي يوم آخر قيل له إنّها في اجتماع مع القسّ بلومبوا. أخيراً، وبعد مرور أسبوع، تحقق استقباله.

كان يتوقع فيضاً عاطفياً، من تلك الأفعال التي يأتيها المرضى العائدون إلى الحياة لدى رؤيتهم من يحبون. وفكّر أنّ قلبها سوف يقفز إلى عنقه.

لكنّ رينيه مدّت له يدها ولم تشد على أصابعه، وخاطبته بكلمات من تلك التي تُقال لجميع الناس، وبعد انقضاء ربع ساعة، أغمضت عينيها، كما لو أنّ النوم قد عاودها.

ذلك البرود الذي لم يفهم له دونوازال سبباً، ترك فيه غيظاً ممزوجاً بالمرارة. أحس بأنّه جُرح وأهين في أقدم عواطفه وأطهرها وأصدقها. ظلّ يبحث عما تخفيه رينيه ضده. هل أطلعها باروس على أفكاره؟ وهل تقوم بإسقاط موت أخيها على شاهد مبارزته؟ بعد ذلك اقترح عليه صديقٌ يمتلك يختاً في «كَون» أنْ يقوما بجولة في البحر الأبيض المتوسط، فلم يتردّد في الاستجابة.

أمّا رينيه فقد شعرت بالخوف أمام دونوازال. ولم تعد تتذكّر إلّا بداية الأزمة التي مرّت بها أمامه، وهي الثانية التي تلت سقوطها وإصابتها بهزة عصبية. لقد أحسّت بدم أخيها يخنقها وبما يشبه صرخة تصعد إلى شفتيها. هل تكلّمتْ؟ هل أفلت سرّها من فمها دون أنْ تعرف؟ هل قالت له إنّها هي التي قتلت هنري، وهي التي أرسلت تلك الجريدة؟ هل انبجست جريمتها خارج ذاتها؟... عندما دخل دونوازال ظنّت أنّه يعرف كلّ شيء. ولقد أدّى الانزعاج الذي تملّكه بسرعة، وكان متأتياً منها، وذلك البرود الذي قابلت به بروده، كلّ ذلك أكّد لها تفكيرها ويقينها أنّها تكلّمت، وأنّ لديها قاضياً هنا قريباً منها. في منتصف الزيارة، أرادت أمها أنْ تغيب لحظة، فتشبثت بها بحركة رعب.

كان يخطر في بالها أنّها تستطيع الدفاع عن نفسها، بأنْ تقول له إنّ ما حصل كان قضاء وقدراً، وإنّها عندما أرسلت تلك الجريدة، لم ترغب إلّا في إثارة اعتراض، يتمثل في منع أخيها من الحصول على ذلك اللقب، وفسخ ذلك الزواج؛ لكنّ الأمر يتطلب منها القول عندئذ، لماذا أرادت ذلك، لماذا أرادت القضاء على ثروة أخيها، ومستقبله؛ لا بد من الاعتراف بكلّ شيء... لكنّ مجرد التفكير في الاعتذار بتلك الطريقة، حتّى أمام الرجل الذي تحترمه أكثر، كان يبعث فيها الهول ويملؤها بالقرف: فالأفضل على الأقلّ أنْ تترك لمن قتلته سلام الذكرى وصمت الموت!

عندما علمت بسفر دونوازال تنفست الصعداء: بدا لها سرّها كأنّه ملكها هي فقط.

أبلّتْ رينيه من مرضها. وبعد بضعة أشهر لاحت متعافية. عادت إليها كلّ مظاهر الصحّة. ولم تعد تشعر بالألم. لا بل تخلّصت حتّى من ذلك الاضطراب الذي تركه الألم في الأعضاء التي لامستها، والحياة التي أصابتها. فجأة عاد الألم. فصارت كلّما صعدت شعرت بحالات اختناق متسارعة. كما تتسارع خفقاتها وتزداد عنفاً؛ ثمّ يتوقف كلّ شيء من جديد، كما يحدث في تلك الأمراض النائمة التي تبدو للحظات كأنّها تنسى مرضاها.

بعد بضعة أسابيع، اختلى طبيب سان دوني، الذي كان يعالج رينيه، بالسيّد موبران وقال له:

– ثمة شيء يقلقني... حالة الآنسة ابنتك لا تظهر لي جليّة... أرغب في الحصول على نصائح طبيب اعتنى كثيراً بهذا النوع من الأمراض... فلأمراض القلب هذه، مسارٌ في منتهى المكر أحياناً...

– نعم، أمراض القلب... أنت على حقّ... قال السيّد موبران متلعثماً.

لم يستطع القول أكثر من ذلك. فجأة استيقظت في ذهنه مفاهيمه الطبّية القديمة، والمذاهب اليائسة في مدرسة عصره، الطبيب كورفيزار، وتصدير كتابه حول أمراض القلب: «النبلة القاتلة لا تزال عالقة في الخاصرة»[53]، كلّ ذلك استيقظ فجأة في ذهنه، بوضوح. فصار يرى صفحات كاملة من كتب ملأى بالفوائد.

– يا إلهي! تابع الطبيب، الخطر الأكبر في هذه الأمراض هو أنّها تأتي دائماً من بعيد... فعندما نُنَادَى كثيراً ما تكون هي قد قطعت دروباً وأشواطاً... ثمة أعراض حتّى المريضة نفسها لا تنتبه إليها... لا شك أنّ الآنسة ابنتك كانت مرهفة العواطف، دائماً أليس كذلك، منذ الطفولة؟... سيل من الدموع لأبسط لوم، والوجه مصعّر لسبب تافه... وتدافع فوري في خفقان القلب... وانفعالات في كلّ آن ولأيّ سبب... وحيوية عارمة في الرأس... وحالات غضب تشبه التشنّجات تقريباً، مع شيء من الحمّى دائماً؟ تضع الشغف في كلّ شيء، في صداقاتها، في ألعابها، في نفورها، أليس كذلك؟... نعم، نعم، هكذا يكون كلّ الأطفال الذين يهيمن عندهم هذا العضو، ويكون

لديهم استعداد بائس لتضخّمه... أخبرني، ألم تمرّ هذه الفترة، حسب علمك، بأيّ انفعال شديد، أيّ حزن كبير؟

– نعم... أوه! نعم... موت أخيها...

– موت أخيها... نعم، على الأرجح، قال الطبيب دون أنْ يبدو معلّقاً أهمية كبيرة على المعلومة، لكنّي أردت أنْ أسالك... إذا كان هناك، ربّما، غرام معترَض عليه، مثلاً؟

– هي؟ حرّك السيّد موبران كتفيه، «معترَض عليه»! آه! يا إلهي! وجمع قليلاً بين يديه رافعاً عينيه في الهواء.

– لم أطلب منك ذلك، قال الطبيب، إلّا تبرئة لضميري. فالحوادث، في مثل هذه الحال، تزيد في تطوير جرثومة المرض، وتسريع تقدّم الداء. التأثير الجسماني للأهواء في القلب مسألة نظرية... ولقد تمّ العدول عنها منذ حوالى عشرين عاماً... وهذا إنصاف في رأيي... أطروحة تمزُّق القلب في نوبة غضب، في تمزق معنويّ كبير...

قاطعه السيّد موبران:

– إذن... مراجعة طبيب... كما تظنّ... هذا ما ترى، أليس كذلك؟

– نعم يا سيّد موبران، سيكون ذلك أفضل بما لا يقاس، أرأيت؟ سيكون في ذلك اطمئنان للجميع، لك أنت كما بالنسبة لي... سنختار كما أفترض... السيّد بويُّو. فهو الأكثر شهرة...

– السيّد بويُّو، كرر السيّد موبران آلياً، مؤدياً حركة موافقة.

مرّت خمس دقائق على منتصف النهار.

كان السيّد موبران الجالس قبالة سرير رينيه، يمسك بيديْ ابنته بين يديه. وكانت رينيه تنظر إلى الساعة.

– سيأتي، قال السيّد موبران.

أجابته بخفض جفنيها قليلاً؛ وكان يُسمع في صمت الغرفة المخيم، كما في الليل، تنفس المريضة وخفقان قلبها محْدِثاً ضجة ساعة.

دوى رنين جرس مُلحّ ومرتجّ ومباغت. ظنّ السيّد موبران أنّ هناك من يدقّ الجرس داخل جسمه. تملكته رجفة كأنّها تمرّر وخزة إبرة حتّى أطراف أصابعه. توجّه نحو الباب.

– سيّدي، كان شخصاً مخطئاً في العنوان، قال الخادم.

– الطقس حارّ، قال السيّد موبران مخاطباً ابنته وهو يعاود الجلوس. كان شديد الشحوب.

بعد خمس دقائق، دق الخادم. كان الطبيب ينتظر في الصالون.

– آه! قال السيّد موبران.

– اذهب إذن، قالت له ابنته؛ ثمّ عادت لتناديه: «بابا!» فعاد.

– هل سيفحصني؟ سألت وقد تملّكها الخوف.

– آه، لا أدري... لا أعتقد... قد لا يحتاج إلى ذلك، قال السيّد موبران وهو يتلمس مقبض الباب.

ذهب السيّد موبران إلى الطبيب وتركه مع ابنته.

وظلّ في الصالون، ينتظر.

مشى، جلس. نظر آلياً نحو الأرض إلى زهرة في السجادة. قصد النافذة، ونقر بأصابعه على الزجاج.

كان كلّ شيء يبدو كأنّه معلّق فيه وحوله. أمَرّتْ ساعة أم لحظة على وجوده هنا؟ لا يعرف. كان في لحظة من لحظات الحياة التي لم تعد لها الديمومة الزمنية أو مقياس الزمن. كان يشعر بكلّ وجوده يتسارع في قلبه. وكل انفعالات حياته تتزاحم في دقيقة أبدية.

كان في دوار إنسان يهوي في حلم ويتأسّى من سقوطه المستمر. كلّ أنواع الأفكار الصمّاء، والقلق الغامض، والرعب المضطرب، كانت تصعد من معدته وتطنّ في صدغيه. الأمس، اليوم، الغد، الطبيب، ابنته، المرض، كلّ ذلك يعصف في رأسه، يتشوّش في دواخله، يختلط بشعور جسدي بالألم، والقلق، والخوف، والجبن. ثمّ، يبرق فجأة ضوء فكرة لديه. كانت تتناوبه تلك الحالات من الصفاء التي تخترق الروح في مثل تلك اللحظات. كان الطبيب حاضراً، رآه يضع أذنه على ظهر ابنته، فصار ينصت معه. ظنّ أنّه يسمع صراخاً في سرير يتقلّب فيه مريض... انتهى الأمر، سيقبلون... لكنّهم لا يقبلون!

عاد إلى المشي؛ لم يعد قادراً على المكوث في مكانه. صارت تتملّكه تهيّجات نفاد صبر. يضجر من البطء وطول الوقت؛ لكنّه سرعان ما يقول إنّ في ذلك علامة جيّدة، وإنّ الطبيب الماهر لا يتسلى بإضاعة وقته، ولو يئس من العلاج لعاد. سيمكنه من جرعات أمل: لقد أنقذتْ ابنته؛ وعندما يتهيّأ الطبيب للمغادرة سوف يذهب كي يتأكّد من وجهها أنّها أُنقذتْ... ظل ينظر إلى الباب: لا أحد يأتي. عندئذ يقول في نفسه إنّها احتياطات لا بد من اتخاذها، ولعلها ما زالت في حالة هشة، وأنّ هناك أناساً كثيرين يعيشون مع وجيف قلب متسارع... ثمّ الكلمة، الكلمة الفظيعة: كلمة الموت، تستبدّ به، وسط كلّ ذلك. يطردها بتكرار الأفكار نفسها في داخله حول الشفاء والعافية والصحة. يستعيد في ذاكرته كلّ الأشخاص المرضى الذين عرفهم ولم يموتوا. ورغم كلّ ذلك: ماذا سيقول لي؟... كان يردد ذلك بلا انقطاع. لاحت له هذه الزيارة كأنّها لا تنتهي ولن تنتهي أبداً. ويرتجف في بعض اللحظات عندما يتوقع انفتاح الباب. كم يتمنى لو يبقى هكذا دائماً، من دون أنْ يعرف... ويعود الأمل ليملأه من جديد بالكامل.

فُتح الباب.

– حسناً؟ قال السيّد موبران مخاطباً الطبيب الذي كان عند العتبة.

– المزيد من الشجاعة، يا سيّدي. قال له الطبيب.

رفع السيّد موبران عينيه، نظر إلى الطبيب، حرك شفتيه، لكنْ دون أنْ ينبس بكلمة واحدة: لم يتبقَّ له لعاب في فمه.

فسّر له الطبيب مطولّاً مرض ابنته، وخطورته، وما يُخشى من تعقيداته؛ ثمّ جهّز وصفة طويلة وهو يسأل السيّد موبران مع كلّ صنف يسجّله: فهمت؟

– تماماً، يجيب السيّد موبران بنبرةِ بلهاء.

– آه! يا صغيرتي الطيّبة، إنّي إذَنْ لَمُغادِر.

بتلك الكلمات دخل السيّد موبران إلى غرفة ابنته.

– هل صحيح؟ سألته.

– قبّليني...

– ماذا قال لك؟

– خذي، انظري! وابتسم السيّد موبران. كان يشعر بالموت.

وأضاف وهو يلتفت ويتظاهر بالبحث عن قبّعته:

– يجب أنْ أسرع إلى باريس كي أشتري قائمة الأدوية.

عند سكّة الحديد، لمح الطبيب يصعد إلى إحدى عربات القطار. فصعد إلى أخرى. لم يعد يشعر بالقدرة على الحديث معه، ورؤيته...

وعندما وصل إلى باريس، دخل إلى إحدى الصيدليات. طُلب منه الانتظار ثلاث ساعات لتحضير الوصفة. قال: ثلاث ساعات!... لكنّه كان سعيداً بطول المدة: فأمامه وقت كافٍ قبل العودة.

في الشارع، بدأ يتسكع. لم تكن لديه فكرة متساوقة، بل نوع من خفقان مكتوم ومتتابع في ذهنه، يشبه خفقان ألم عصبي. كانت أحاسيسه متبلّدة، كما لو أنّها تحت تأثير ذهول كبير. ولم يكن ليرى إلّا سيقان المشاة ودوران العجلات. وكان يحس بثقل رأسه وخوائه في آن. يرى الناس يمشون فيمشي. كان المشاة يجرّونه، والحشد يدحرجه في مدّه. كلّ شيء يبدو له منطفئاً وبلون الأشياء غداة ليلة سكْر. ولم يكن الشارع يتميّز عنده إلّا بما يشبه الضوء والضجيج في الحلم. ولولا السروال الأبيض الذي يرتديه شرطة المدينة ويشدّ بصره للحظات، لما أدرك أنّ الشمس مشرقة.

لم يكن يجد فرقاً في الذهاب إلى اليمين أو إلى اليسار. لم يكن يرغب في شيء، ولا يتشجع على شيء. كان مندهشاً لرؤية الحركة بجانبه، والناس يستعجلون، ويسرعون في مشيتهم، ويقصدون مآربهم. هدف، مصلحة في الحياة، هذا ما فقده منذ ساعات. يبدو له العالم منتهياً. هو أشبه ما يكون بميت يمرّ فوقه نشاط باريس. بحث في كلّ ما يمكن أنْ يحصل لإنسان، عمّا يتوصل إلى تحريكه، يلامسه على الأقلّ، ولم يجد شيئاً يمكنه بلوغ عمق اليأس الذي كان يكتنفه.

أحياناً، يبدو كأنّه يجيب أحدهم ممّن سألوه عن أخبار ابنته، فيقول بصوت عال: آه! نعم، مريضة جدّاً! وما يقوله يلوح له كأنّه صادر عن شخص آخر بجانبه. وفي كثير من الأحيان تمرّ أمامه عاملة لا تضع شالاً، ممتلئة القامة، فتاة، جميلة ومبتهجة مثلما تكون صحّة أبناء الشعب، تمرّ: فيجتاز الشارع كي يكف عن رؤيتها. وللحظة شعر بالغيظ ضدّ كلّ الذين كان يراهم يمرون، ضدّ كلّ هؤلاء الأحياء بلا جدوى، والذين ليسوا محبوبين مثل ابنته، ولا يحتاجون إلى العيش!

وجد نفسه في حديقة عمومية. جاء طفل ووضع قطع حلوى على طرف سترته الرودنغوت الطويلة؛ وتجرّأ آخرون فاقتربوا بتهوّرِ عصافير دوري. بعد ذلك أصابهم نوع من الذهول، فتخلّوا عن رفوشهم، وكفّوا عن اللعب، ومكثوا ينظرون بخوف وهدوء، وبنظرات رجال صغار، إلى ذلك السيّد الكبير الحزين جدّاً... وقف السيّد موبران وغادر الحديقة.

كان يشعر بثقل في اللسان وجفاف في الحلق: فدخل إلى مقهى.

أمامه بنيّة ذات قبعة من قش، وفستان أبيض بلا كمّين. يمكن رؤية ساقي الطفلة الصغيرتين، لحم الربلتين الصلب بين سروالها المسنّن وجوربها الصغير. كانت تتحرّك ملتصقة بأبيها، تصعد، تتسلّق، تقفز حوله. ترفس ركبتيه مستقيمة القامة. كان هناك صليب صغير يقفز على بشرة عنقها الوردية، بينما لا يكفّ أبوها عن مخاطبتها بقوله: «كفى، هيّا!»

أغمض السيّد موبران عينيه: كانت السنوات الستّ من عمر ابنته هنا، أمامه! أدنى مجلّة مصوّرة وانكبّ عليها، وحاول تركيز أفكاره في مشاهدة الصور، وعندما بلغ الصفحة الأخيرة توقّف عند لعبة الصور الرمزية المقروءة بأسمائها.

عندما رفع السيّد موبران رأسه، مسح جبينه بمنديله. لقد توصّل إلى حلّ لغز لعبة الصور:

«ضدّ الموت لا يجدي الاستئناف».

وبدأت بالنسبة للسيّد موبران تلك الحياة المؤلمة للناس الذين لم يعودوا يأملون في شيء وينتظرون، حياة القلق والاضطراب، الحياة اليائسة، الملأى بالاختلاج ودائماً بصدد الإنصات إلى الموت، الحياة التي نخاف فيها من ضجيج المنزل ونخاف من صمته، الخوف من تحرّك في الغرفة المجاورة، الخوف من أصوات ترتفع ونسمعها تقترب؛ الخوف من باب يُغلق، الخوف من الوجه الذي يفتح لك عندما تعود، والذي تسأله بالنظر إنْ كانت الحياة متواصلة عندكم!

كان يتوغّل في مرارة اللّوم الذي يوجّه المرء لنفسه مثل الناس الذين يواكبون المرضى. كان يفاقم حزنه باتّهام نفسه، بالقول إنّه مسؤول عمّا حدث في جانب كبير منه، وأنّه لم يبذل كلّ ما كان يجب عليه بذله، وكان يمكن إنقاذها، لو أنّه راجع الطبيب في وقت أبكر، لو أنّه في زمن معيّن، في شهر معيّن، في يوم معيّن، فكّر في شيء محدّد.

في الليل، تبدو حمّى الفراش كأنّها تضيف الحمّى إلى ألمه. ومن وحدته، من الظل، من الصمت، تعلو بالنسبة له فكرة واحدة، صورة واحدة: ابنته، ودائماً ابنته! كانت مخيّلته تضطرب في القلق؛ وكلّ مخاوفه تجوب أقاصيها، وأرقه ينتهي إلى اكتساب كثافة الأحاسيس المرعبة التي نعيشها في الكوابيس. ينهض في الصباح بطريقة خرِعة مثل إنسان لا يزال نصف نائم ينقلب غريزياً متفادياً ضوء النهار، كان يعود إلى النوم، ويطرد أفكاره الأولى، ويحاول عدم التذكّر بعد، والافلات لحظة أخرى من الوعي الكامل بحاضره.

ثم يعود النهار بآلامه، ويُجبَر الأب على تمالك نفسه، والانتصار عليها، والتحلّي بالبهجة، والإجابة عن ابتسامات الألم، والبهجة الحزينة، والأوهام القاصرة العالقة بالمستقبل، والكلمات الممزِّقة التي يهدهد بها المحتضرون أنفسهم ويطلبون بعض الأمل ممّن حولهم. كانت تقول له بصوت أولئك المرضى، بذلك الصوت المنهك والموغل في رقّته إلى حدّ التلاشي: «هل نكون بخير عندما لا نتألّم!... أنا التي سأتمتّع بالحياة عندما أشفى تماماً...»

أما هو فيجيبها: «نعم»، ماضغاً دموعه.

يؤمن المرضى بأماكن تتحسّن فيها صحّتهم، وببلدان قادرة على تحقيق الشفاء. ثمة أمكنة، وبقاع من الأرض والذكرى تعود إليهم بابتسامة موطن وعذوبة مهد. وكما تلجأ مخاوف طفل إلى حضن مربيته، تسرع آمالهم إلى ريف، إلى بستان، في قرية رأتهم يولدون ولن تتركهم يموتون.

شرعت رينيه تفكّر في موريمون. كانت تقول لنفسها إنّها ستكف عن الألم حال بلوغها إيّاها. كانت تحسّ بذلك، وهي متأكّدة. فمنزل لابريش هذا يجلب لها النحس. كم كانت سعيدة في موريمون! ومع الرغبة في التغيير، والحاجة إلى الحركة التي تتولد عن الألم، بدأت تلك الفكرة تكبر لديها، وتصير أكثر إلحاحاً واحتداماً. فبدأت تحدّث أباها عنها وتعذبه بها. وهذا أمر لا يعرقل أيّ شيء: فمعمل التكرير يشتغل تلقائياً؛ ومديره السيّد برنار، رجل ثقة وسوف يسيّر كلّ شيء كما ينبغي، وسوف يعودان في الخريف. «متى نذهب يا أبي العزيز؟» كانت تكرّر ذلك يومياً مع المزيد من نفاد الصبر.

واستسلم السيّد موبران. فابنته وعدته بالتحسن كثيراً هناك، حتّى وصل به الأمر إلى تصديق ذلك؛ وها هوذا يكاد يجد في تلك الأمنية إلهام مريض. قال له الطبيب بعد أن استشاره: «نعم، ربّما الريف...» باعتباره رجلاً معتاداً على رغبات المحتضرين الذين يظنّون أنهم قادرون على تتويه الموت بالذهاب إلى الأبعد قليلاً.

أسرع السيّد موبران في تسوية شؤونه وغادرت العائلة إلى مورمون.

أدّت متعة الرحيل، وحمى السفر الخفيفة، والقوة العصبية التي تهبها لمن هم أضعف حالاً، والهواء المتدفق من باب العربة المفتوح، إلى مؤازرة المريضة حتّى بلوغ شومون. فقد وصلت حتّى هناك من دون تعب مفرط. فتركها السيّد موبران تستريح يوماً هناك، وفي صباح الغد أركبها في أفضل عربة تمكن من العثور عليها في المدينة، وانطلقوا نحو موريمون. كانت الطريق من النوع الإقليمي السيّئ. وكانت الرحلة شاقة وطويلة. ومنذ الساعة التاسعة بدأت الحرارة ترتفع. وفي الحادية عشرة، صارت الشمس تحرق جلد العربة. كانت الخيل تعرق وتنفخ وتسير بخطى مرهقة. وكانت السيّدة موبران تغفو على الوسادة الأمامية. بينما جلس السيّد موبران بجانب ابنته، يسند بذراعه،

وعند خاصرته، وسادة تتّكئ عليها وتنزلق عنها بعد الهزّات. وتسأل بين الفينة وافينة عن الساعة وتقول: «فقط!»

أخيراً، ونحو الساعة الثالثة اقتربوا. لم يبق إلّا ميل واحد للوصول. اكفهرّت السماء قليلاً، وانتعش الطقس أكثر، وخفّ الغبار، وبدأت الأرض تتنفّس. شرع طائر الذّعرة يحلّق أمام العربة ثمّ يحطّ من ثلاثين خطوة إلى ثلاثين خطوة، محلّقاً من بين أكداس الحصى. وكان صفّ صغير من شجر الدردار يحاذي الطريق، وبدأت بعض البساتين المسيجة في الظهور. لاحت رينيه كأنّها تنتعش بفعل هواء مسقط الرأس. نهضت واستندت بمرفقها على الباب، وجعلت ذقنها على ظاهر يدها، على طريقة الأطفال في العربات، وشرعت تنظر: بدتْ كأنّها تتنفّس ما تراه. وكانت تردّد مع تقدّم العربة: «انظروا، شجرة الحَور الكبيرة في الصّومعة مكسورة!... في هذه البركة كان ثمة أطفال يصطادون العلق!... آه! ها هي ذي أشجار القرانية التابعة للسيّد ريشي!...»

عند الغابة الصغيرة قرب القرية، توجّب على أبيها النزول كي يقطف لها على حافّة الخندق زهرة لم يكن يراها فدلّته عليها.

تجاوزت العربة النزل على الطريق، والبيوت الأولى، والدكان والحدّاد وشجرة الجوز الكبيرة، والكنيسة، والساعاتي الذي كان يبيع العاديات أيضاً، ومزرعة بيجو. كان سكان القرية في الحقول. وتوقف أطفال كانوا يعذبون قطاً مبلولاً لمشاهدة عربة تمرّ. أزاح عجوز جالس على مقعد أمام بابه قلنسوته، وكان يلتفع بكنزة صوفية ويرتجف تحت الشمس. ثمّ توقّفت الخيل. وانفتح الباب. وكان هناك رجل ينتظر أمام العربة، استلم الآنسة موبران ورفعها.

– آه! قال وهو يحملها، آنستنا المسكينة، لم تعد تزن أكثر من حزمة عيدان!

– مرحباً، كريتيانو، مرحباً يا رفيقي، قال السيّد موبران وهو يصافح البستاني العجوز الذي خدم تحت إمرته.

في الغد وفي الأيّام التي تلته، تمتّعت بلحظات استيقاظ عذبة حيث كان النهار، الذي يطلع صباحاً من السماء ومن الأرض، يمتزج، في فجر أفكارها، مع صباح حياتها. فكانت ذكرياتها الأولى تعود إليها مع أولى الأصوات الشادية في البستان. كلنت الأعشاش وهي تستيقظ، توقظ طفولتها.

أرادتْ، وهي مستندة إلى أبيها، بل محمولة تقريباً، أنْ تعود إلى رؤية كلّ شيء، البستان، التعريشة، المرج الصغير قبالة البيت، القنوات المظلّلة، المستنقع ومياهه الشاسعة الميتة. كانت تسترجع الأشجار والممرّات تدريجياً مع تقدّمها، مثل أشياء نتذكّرها من الحلم. وكانت قدماها تمشيان وحدهما عبر ممرّات ممحوة لكنّها تقتفي أثرها. ولاحت لها الخرائب أقدم بكثير من السنوات التي كبرت خلالها. كانت تستعيد رؤية أماكن في العشب ركضت فيها، وحطّ عليها ظلّ فستان الطفلة الصغيرة. استعادت الموضع الذي دفنت فيه كلباً صغيراً. كان أبيض اللون. يدعى نيكولا بيجو. كم أحبته. ما زالت ترى والدها يتجول بها في مزرعة البقول، على ذراعه، بعد أنْ أعطاها حقنة شرجية.

ومن البيت أيضاً تصاعدت الذكريات. زوايا بعض الحجرات تبعث فيها ما يشبه ألعاباً خزنت في تسقيفة البيت واستعادتها من جديد. ابتهجت بسماع دوّارة الرياح القديمة الصارخة والمتأوهة في السطح القديم الذي هدهد بضجتها مخاوف الطفلة وأحلامها.

بدت تستعيد حيويتها وتستعيد العيش. ولاح التغيير، وهواء مسقط الرأس، والذكريات، تخفّف من وطأة مرضها. واستمرّ ذلك بضعة أسابيع.

ذات صباح، كان أبوها بجانبها في أحد المماشي ينظر إليها وهي تتسلى بتشذيب الورود الذابلة في أجمة شجيرات ورود بيضاء؛ كان يتناوب على وجهها الصغير النحيل، تحت قبعة القش الكبيرة التي تخترقها الشمس، ضوء النهار ونعومة الظل. كانت تتنقّل ببهجة وحيوية، من شجيرة ورد إلى أخرى؛ والأشواك تعلق بفستانها كأنّها تريد اللعب معها. ومع كلّ طقّة من المقصّ، ومن غصن تتزاحم فيه الورود متفتّحة، ممتلئة القلب بالندى، مفعمة بالحياة، تسقط وردة ميتة، بلون التراب، شبيهة بجثة زهرة...

فجأة، تركت رينيه كلّ ذلك، وارتمت في حضن أبيها: «آه! يا بابا، كم أحبّك!» قالت له. وانفجرت بالبكاء.

ومنذ ذلك اليوم بدأ كلّ ما هو أفضل بالرحيل. صارت تفقد تدريجيّاً ألوان العافية التي تضع على خدّيها آخر قبلة للحياة. لم يعدْ لها ذلك القلق الجذاب لجسد يتعافى، تلك الرغبة الجميلة في الذهاب والإياب التي كانت تجعلها سابقاً تمسك بذراع والدها في كلّ لحظة. ومن روحها إلى فمها، لم تعد تصعد كما في الأيّام الأولى، بهجة الألم المنسيّ، والثرثرة السعيدة للأمل المستعاد. صارت كسلى في الكلام، وفي الإجابة. «كلّا، لا أشكو من شيء... أنا بخير...» كانت تترك تلك الكلمات تسقط من بين شفتيها بنبرة وجع وحزن وصبر. صار الإحساس بالاختناق يضنيها. كان أشبه بثقل تشعر به على صدرها ولا يكاد تنفسها يتوصل إلى تحريكه. مضايقة، ألم غامض، ينتشر من هناك إلى سائر كيانها ليملأها بالتوتر، ويجردها من كلّ طاقة حيوية، ويحطم فيها كلّ رغبة في الحركة، ويتمسّك بها مهشمة، منحنية، بلا قوى للخروج والنهوض بمفردها.

فأقنعها أبوها بالموافقة على استخدام محاجم الفصْد.

خلعت شالها بحركات المريض البطيئة، بذلك البطء الذي يجعلها تبدو حركات مؤلمة. كانت أصابعها تبحث متلمّسة ومرتجفة، عن أزرار وكتفيات قميصها لإنزاله. ساعدها أبوها، مع أمها، في نزع الفانيلا والقطن اللذين يغطيانها، فلاح جسدها الصغير البائس، وقد خرج قليلاً من ملابسها الداخلية التي كانت تضغط عليها وترفعها نحو صدرها، مرتعشاً خجلاً وهزالاً.

كانت تنظر إلى أبيها، والشمعة المشتعلة، والورق المبروم، والكؤوس الصغيرة، بتلك النظرة القلقة التي يشعر بها الجسم أمام ما يُعدّ ضده من نار أو حديد.

– هل أنا بخير؟ قالت محاولة الابتسام.

– كلّا... ابقي هكذا، قال السيّد موبران وهو يدلّها على الوضع الذي ستبقى عليه.

استدارت فوق مقعدها الواطئ قرب النار حيث كانت تجلس، وضعت يديها على حافة المسند، ضغطت خدها على يدها، جمعت ما بين ساقيها، شبّكت قدميها، بدت كأنّها جاثية ومتكومة في المقعد الصغير، لا تظهر إلّا قليلاً من صورتها الجانبية التائهة والمرتعبة، عرضت كتفيها: كانت لها زوايا جاهزة تماماً للنعش... وكان شعرها، المحلول قليلاً، ينساب مع بعض الظل عبر تجويف ظهرها. عظام الكتف بارزة. العمود الفقريّ يظهر للعين كلّ فقراته. تحت كتفيّة قميصها الذي سقط بسبب الفصد، برز مرفق صغير بائس.

– ماذا يا أبي؟

كان هناك، متسمّراً، لا يعرف فيما يفكر. ولدى سماع صوت ابنته، تناول كأساً؛ عندئذ تذكّر أنّه كان قد اشترى هذه الكؤوس للعشاء، يوم تعميد رينيه. أشعل مزقة ورق، ورماها في الكأس، وقلبَ الكاس مغمضاً عينيه... ندّ عن رينيه صفير ألم، وأدّت اختلاجة إلى جعل عظامها تركض في ظهرها؛ ثمّ قالت: «أوه! هذا جيّد! كنت أظنّ أنّها تؤلم أكثر...»

أفلت السيّد موبران الكأس فانزلقت وسقطت: لم يتمكّن المحجم من التمسّك.

– واحد آخر! قال لزوجته.

جلبت له السيّدة موبران كأساً أخرى ببطء.

– هاتي، أسرعي! قال وهو يقتلع الكأس من بين يديها.

كان العرق ينزّ من جبينه لكنّه لم يعد يرتجف. في هذه المرة نجحت عملية التفريغ، وتقبّض الجلد حول الكأس، وتكوّم في الداخل، كما لو امتصّته مزقة الورق المسودّة.

– أوه! يا أبي، لا تضغط كثيراً، قالت رينيه، وهي تزمّ شفتيها، أبعدْ يدك...

– لكنّني لا أمسك بها، قال السيّد موبران، انظري.

وأظهر لها يديه.

ظلّ جلد رينيه الأبيض يتقدّم أكثر في الكأس ويصير أحمر اللون، منقّطاً، ضارباً إلى البنفسجيّ... بعد وضع محاجم الفصد كان لا بدّ من نزعها، سحب الجلد مقابل أحد أطراف الكأس وجعله ينزاح بالقوة نحو الجهة الأخرى. وكثيراً ما كان السيّد موبران يُضطرّ إلى تكرار العملية مرّتين أو ثلاثاً والضغط بقوة على ذلك الجلد القريب جدّاً من العظام.

للأمراض فعلها الخفيّ، وخرابها المكتوم. ثمّ تأتي تلك التبدّلات الخارجية الفظيعة التي تطفئ القسمات ببطء، وتمحو الشخص شيئاً فشيئاً، ومع ملامسات الموت الأولى، تحوّل الأجساد التي نحبّها إلى ما يشبه بداية جثة.

كان السيّد موبران يبحث في ابنته كلّ يوم عن شيء لم يعد يجده ولم يعد له وجود فيها: عيناها، ابتسامتها، حركاتها، خطوتها، فستانها الممتلئ والمزهوّ بسنواتها العشرين، كلّ ذلك الشباب المتطاير حولها، والذي يلامسك لدى مروره، كلّ ذلك يحتجب، يتلاشى، يختفي كما لو أنّ سحنة الحياة تنسحب منها. فلم تعد تحرك ما تلمسه. ثيابها تسقط عليها في هزال، مع تلك الطيات التي تخلّفها على أعضاء المسنين. مشيتها تتجرجر ولم تعد تترك صدىً لكعبها الصغير. عناقها يتم بطريقة خرقاء، ومداعباتها فقدت لُطفها. كلّ حركاتها باتت منحصرة: تعيدها إلى جسمها مثل شخص يشعر بالبرد، أو يخشى أنْ يكون قد احتلّ من الموضع المخصص له أكثر ممّا يجب. كانت ذراعاها اللتيْن تتركهما متدلّيتين تشبهان جناحين مبلولين. لا تكاد تشبه نفسها. وعندما تمرّ أمام أبيها، بظهر محدودب، وقامة خائرة، وذراعين متروكتين، وفستان متدلٍّ، تبدو للسيّد موبران كأنّها لم تعد ابنته: وما إنْ يراها حتّى يتذكّرها!

كان لها بعض ظلّ قرب فمها فيبدو منسحباً إلى الداخل عندما تبتسم. أمّا الخال الذي على يدها قرب خنصرها فقد كبر حجمه وصار لونه بسواد الغنغرينة.

– أمّي، اليوم هو عيد ميلاد هنري...

– أعرف، قالت السيّدة موبران من دون أن تتحرّك.

– ماذا لو ذهبنا إلى كنيسة عذراء ماريكور؟

وقفت السيّدة موبران، خرجت، ثمّ عادت وقد وضعت شالها وقبعتها.

بعد نصف ساعة، كان السيّد موبران يساعد ابنته على النزول من العربة أمام البوابة الكبيرة لكنيسة ماريكور. توجهتْ رينيه إلى مصلّى صغير، حيث وجدت، على مذبح رخام، عذراء الخشب الصغيرة صاحبة المعجزات، والسوداء تماماً، وكانت تصلي لها وهي طفلة، مع شعور بالخوف. جلست على مقعد تعليم العقيدة المسيحية وكان لا يزال هناك، وصلّت بصوت خافت. وكانت أمها واقفة بجانبها، تنظر إلى الكنيسة ولا تصلي. ثمّ نهضت رينيه، ومن دون حاجة إلى ذراع والدها، اجتازت الكنيسة بخطوة تكاد تكون ثابتة حتّى بلغت مدخلاً جانبياً صغيراً يفتح على المقبرة.

– أردتُ التأكّد إنْ كانت لا تزال هناك، قالت لوالدها وهي تشير، وسط النذور المعلقة، إلى باقة زهور اصطناعية قديمة.

– هيّا بنا يا ابنتي، قال السيّد موبران، لا تطيلي الوقوف على ساقيك. فلنعد الآن.

– أوه! ما زال أمامنا متّسع من الوقت.

كان هناك مقعد حجريّ تحت رواق المدخل الجانبيّ الصغير، تحط عليه أشعة الشمس: «إنّه ساخن، قالت وهي تضع يدها عليه. افرشْ لي شالي الصوفيّ هناك كي أجلس قليلاً... ستكون الشمس على ظهري... هناك.

– هذا ليس رأياً صائباً، قال السيّد موبران.

– أوه! إرضاء لي... وعندما أجلسها، متكئة عليه، أفلتت بصوت ناعم مثل آهة: «يا للبهجة هنا!»

كانت أشجار الزيزفون تطنّ بالنحل، وترتعش بهدوء. وهناك بضع دجاجات على العشب الكثيف، تتحرك وتبحث وتنقر. وتحت الجدار، بجانب عربة بدولابين ومحراث ذي عجلتين مبيضّتين بوحل ناشف، وفوق جذوع أشجار منزوعة اللّحاء، تتنازع فراخ دجاجٍ، وتنام بطّات متكوّرات. ومن الكنيسة يتصاعد ما يشبه تمتمة أصوات خامدة، كان لازورد السماء يداعب زخارف الزجاج. وكان تحليق حمائم ينطلق في كلّ لحظة ويسرع للاختباء في تجاويف المنحوتات وثقوب الأحجار القديمة. بينما يُشاهد النهر ويُسمع خريره؛ وركض مهر أبيض باتجاه الماء، هائج الوثب.

– آه! قالت رينيه بعد لحظات، ليتنا جُبِلْنا من شيء آخر... لمَ جعلنا الإله الطيب من اللّحم تماماً؟... هذا أمر فظيع!...

كانت عيناها قد حطّتا على قطعة أرض صغيرة محروثة هنا وهناك في إحدى زوايا المقبرة وتغطّيها حتّى النصف دائرتان من البراميل متقاطعة في هيئة مهودٍ، يرتفع بعدها لبلاب معمّر.

لم يؤدِّ الألم إلى إكساب رينيه تلك التقلبات في المزاج، والفظاظة في العزيمة، والنزق العصبي الذي ينشر حول المرضى قليلاً من ألمهم في قلب من يعالجونهم. باتت تنجرّ إلى ما يحدث. والحياة تفيض عنها من دون أن يبدو عليها أنّها تمنعها أو تبذل جهداً كي توقفها. ظلّت ملاطِفة وعذبة. ولم يعد لرغباتها متطلبات النزوات القصوى. وما كان يغطيها بظلاله يغطيها أيضاً بسلامه. كانت تترك الموت يتسلّق، مثل مساء جميل، روحَها البيضاء.

مع ذلك كان هناك ساعات تستيقظ فيها الطبيعة، وتتراخى فيها أفكارها بتأثير الوهن في جسدها، وتنصت فيها إلى الفعل الخفيّ الذي يفصلها عن الحياة. عندئذ يستبدّ بها صمت عميق، وخشوع مخيف، وجمود أخرس يشبه وضعيات العدم. وهكذا يمكنها أنْ تقضي نصف نهار من دون أن تسمع رنين الزمن في الساعة الحائطية، مكتفية بالتحديق، بنظرة طويلة وثابتة، في الفراغ، أبعد من قدميها قليلاً. ولا يحصل والدها على نصيب من نظرتها! كانت أحياناً، بعد رمشتين أو ثلاث، تخفي عينيها بإسدال جفنيها في نصف إغماضة، فيراهما نائمتين، شبه مفتوحتين. كان يحدّثها، ويبحث عن كلّ ما يمكن أنْ يهمّها، ويهيّئ دعابات ليسليها، كي تسمعه، كي تبدو شاعرة به: في منتصف جملته، يبتعد عنه اهتمام ابنته وتفكيرها وذكاء وجهها. لم يعد يشعر بحرارة الأمس في محبّته. يشعر بالبرد قربها، كما لو أنّ المرض يسرق منه كلّ يوم قليلاً من قلب صغيرته.

أحياناً، أيضاً، كانت تفلت من رينيه بعض تلك الكلمات التي يبكي بها المرضى أحوالهم وهم على قيد الحياة، تلك الكلمات التي لها برودة الموت.

ذات يوم كان أبوها يقرأ لها الجريدة، فتناولتها من بين يديه لكي تقرأ أخبار الزواج؛ وبعد لحظة: «تسع وعشرون سنة... هي عانس، هذه!» قالت وكأنّها تحدّث نفسها. لكنّها كانت تقرأ في صفحة الوفيات.

لم يجب السيّد موبران، دار في الغرفة ثمّ خرج.

ولأنّ رينيه ظلّت بمفردها فقد وقفت وذهبت لإغلاق الباب الذي لم يغلقه أبوها جيّداً، فصار يخبط ويصطفق. فهُيّئ لها أنّها سمعت ما يشبه الأنين في الممشى: نظرتْ، لا وجود لأيّ شيء؛ أنصتت، عاد الصمت يخيم من جديد، وكانت تتهيّأ لدفع الباب عندما ظنّت أنّها تسمع الصوت نفسه. تقدّمت في الممشى، وقصدت غرفة أبيها: كان الأنين يأتي من هناك. لم يكن المفتاح في القفل: انحنت رينيه ومن خلال ثقب القفل لمحت والدها مرمياً على فراشه، باكياً ومختضّاً بالنشيج، غارزاً رأسه في الوسادة كي يخنق فيها يأسه ودموعه...

لم تعد رينيه تريد التسبّب في بكاء والدها.

في الغد قالت له:

– اسمعني جيّداً، يا بابا. سنسافر، أليس كذلك؟ في نهاية شهر سبتمبر؛ هذا مقرّر. سنزور أكثر من مكان... شهر هنا، نصف شهر هناك... كما نشاء. ثمّ أريد منك أن تأخذني إلى كلّ الأماكن التي حاربتَ فيها... أخبرني، يا أبي، قيل لي إنك أحببت أميرة، هناك... ماذا لو نجدها، هه؟ طعنات السيف الكبيرةِ التي تلقّيتها... أين كان ذلك، في بوردونون، أليس كذلك؟

وأمسكت رينيه برأس والدها بين يديها الإثنتين، ضغطت بشفتيها على المواضع المجوّفة البيضاء التي ترك عليها إصبع المجد أثره.

– أريد منك أنْ تفسّر لي كلّ شيء، في البداية، تابعت تقول، سيكون من اللطف استعادة حملاتك مع ابنتك... وإذا لم يكْفِ شتاء واحد، يا إلهي! فسوف نقضي شتاءين... وعندما أستعيد صحتي، لا سيما وأنّنا على درجة كافية من الغنى، أنا وأختي... لقد عانيتَ الكثير... سوف نبيع معمل التكرير ونأتي كلّنا إلى هنا. نذهب شهرين إلى باريس لنتسلّى، هذا كلّ ما نحتاج إليه، أليس كذلك؟ وبما أنك تحبّ أن تشغل نفسك، فسوف تستعيد مزرعتك من صهر تيتفويد... سوف نحصل على أبقار... وفناء دواجن لأمّي... هل تسمعين يا أمي؟ سوف أكون في الهواء الطلق كامل النهار... وأشفى تماماً، سوف ترى!... ثمّ، سوف يكون عندنا ناس دائماً... في الريف يمكننا فعل ذلك... من دون خشية الإفلاس... وسوف نكون في غاية السعادة، هوذا!...

رحلات، مشاريع، لم يعد على فمها إلّا المستقبل. تتحدّث عنه مثل شيء موعود يمكن لمسه باليد. كانت هي التي تجسد الأمل في البيت؛ وكانت تخفي موتها بأفضل طريقة، وتتظاهر بالرغبة في الحياة، إلى حدّ أنّ السيّد موبران لدى رؤيتها ولدى سماعها تحلم، بات يستسلم للحلم معها بالسنوات التي تنتظرهم، وكلّها متوّجة بالسلام، والهدوء والسعادة. أحياناً يصيبه الدوار للحظة، بسبب الوهم الذي تنشره المريضة حولها، إذْ تنجرّ إلى اكذوبتها وتنسى نفسها وتخدعها، فتقول بصوت خفيض جدّاً: هذا إذا خرجت سالمة من كلّ هذا!

في مرّات أخرى، كانت تعود إلى ماضيها بهدوء. فإذا هناك حكايات، واعترافات، واستعادات وكلمات تخترقها أفراح طفولتها من جديد. كأنّها كانت تنتفض من احتضارها كي تقبّل أباها مرّة أخيرة بكلّ عنفوان شبابها. كانت تقول له:

– أوه! فستاني الأوّل للحفلات الراقصة! أراه... من التولا الوردية... الخياطة لا تأتي... الطقس ممطر... لم تكن هناك عربة... كم ركضتَ!... كم كنت ظريفاً وأنت تعود بالعلبة!... بلّلتني بالكامل وأنت تعانقني، أتذكّر...

ولكي تؤازر والدها، ولكي تؤازر نفسها، كانت رينيه وحيدة ولا تملك إلّا شجاعتها. نعم، كانت أمها حاضرة، قربها؛ لكنّها منذ موت هنري باتت غارقة في حالة خمول وتبلّد صامتة. كانت تمكث لامبالية، خرساء، كما لو كانت غائبة عن ذاتها. تمضي الأيّام والليالي قرب ابنتها من دون شكوى، صابرة ودائماً مثابرة، جاهزة لكلّ شيء، مطواعة، متواضعة مثل خادم، غير أنّ هناك شيئاً ما آليّاً في حنانها. هجرت الروح ملاطفاتها، وباتت كلّ عواطفها من النوع الذي لا يلامس إلّا الجسم: لم يبق من الأمّ فيها سوى اليدين.

ظلت رينيه ترافق والدها، وهي تجرّ نفسها جراً، حتّى الأشجار الأولى في الغابة الصغيرة. وفي موضع، عند حافة الغابة، تجلس مستندة إلى شجرة سنديان، تاركةً ظهرها ينزلق على طحلب اللحاء. ومن الحقول المجاورة تصلها رائحة العلف والعشب والعسل والشمس. يصلها هواء الغابات، مخضلّاً بنداوة الينابيع ورطوبة الدروب الضيقة والمتعرجة. ومن أعماق الصمت تعلو ارتعاشة عارمة ومكتومة، طنين مجنّح يملأ الأذن بضجة مستمرة من قفير نحل، وهمس لانهائيّ من موج بحر. كان يوجد حول رينيه، وبالقرب منها، نوع من الهدوء الكبير والحيّ، الذي يتأرجح فيه كلّ شيء، الذبابة في الهواء، الورقة في الغصن، والظلال على لحاء الأشجار، وذرى الأشجار في السماء، والشوفان البرّي على حافة الدروب. ثمّ يخرج من ذلك الطنين أنين تنفس: نسمة، تسرع من البعيد، وتلقي لدى مرورها، بارتعاشة في الأشجار، فتلوح زرقة السماء، فوق الأوراق المهتزة، أكثر ثباتاً. تنخفض الأغصان وترتفع ببطء، تمر نسمة على صدغي رينيه وتلامس رقبتها، هبَّة تقبلها وترفعها. وقليلاً قليلاً تترك وعيها بكيانها الجسدي وإحساسها بالعيش وتعبه يفلتان ويتدفقان منها؛ ويتملكها وهن لذيذ تشعر معه أنّها كانت نصف منفصلة عن كيانها، وجاهزة للتلاشي في العذوبة الإلهية للأشياء. وأحياناً ترتمي في حضن أبيها مثل طفلة تخشى أن تختطفها هبة ريح.

كان يوجد في البستان مقعد حجري مزخرف بالنباتات. وبعد العشاء، ونحو الساعة السابعة، ترغب رينيه في الجلوس عليه، والتمدّد محنية رأسها قليلاً، يدغدغ أذنها سرعُ نبتة الدودية الأرجوانية[54]، بينما تمكث محدّقة في الهواء. كان الوقت في تلك النهارات الصيفية الجميلة التي تتلاشى في عشيّات فضية. وكانت عيناها وأفكارها تتوه تدريجياً في البياض اللامتناهي للسماء الموشكة على الانطفاء. وكلّما أمعنت النظر في المزيد من النور يبرز لها ضوء أكثر ممّا في ذلك النهار المخفق، ويأتي معه بالمزيد من الانبهار والطمأنينة. وتنفتح فيه بالتدريج أعماق ترى فيها مع رعشة الليل، ملايين الأنوار من النجوم الشاحبة مثل أنوار الشموع. وعندما تتعب أحياناً من الاستغراق في ذلك الصفاء المتقهقر دائماً، وقد أعماها ذلك الغبار السماويّ، تغمض عينيها قليلاً أمام الهاوية التي بدأت بالانحناء نحوها وجرّها إلى فوق.

– أبي، قالت، ألا ترى كم أنا جميلة؟ انظرْ... إلى أتعابنا من أجلك...

ثمّ عقدت باسترخاء ما بين ذراعيها على شكل تاج فوق رأسها، وارتمت على الوسائد متمدّدة ببهاء على مقعدها المريح، منطلقة القامة، مهملة الجسد، مع أناقةِ دلالٍ وألم.

كانت تجد أنّ الفراش، وتكفينها بالملاءات يضيفان إليها هيئة المرض. وهي لا تريد البقاء كذلك، وتستجمع قواها الأخيرة للخروج منه. كانت ترتدي ثيابها حوالى الحادية عشرة صباحاً، بتأنٍ وبطء، وبطولة، وتتوقف قليلاً كي تسترجع أنفاسها، وتريح ذراعيها المتعبتين من بقائهما معلّقتيْن في الهواء أثناء التمشيط. كانت ترمي على شعرها قطعة مثلثة من الدانتيلا الانجليزية؛ وترتدي مئزر حمّام من القماش الأبيض المضرّب، والمنشّى، والسميك، والمتكسّر في طيّات كبيرة. وتَدْخُلُ قدماها الصغيرتان في حذاء مكشوف، تزيّنه، بدل الوريْدات المضفورة، باقتان من البنفسج الحقيقيّ الذي يجلبه لها كريتيانو كلّ صباح. ومن أجل المحافظة على ملامح الحياة التي يحافظ عيها المرضى المستيقظون والمكسوّون، كانت تمكث حتّى المساء متمددة في تلك الزينة البيضاء، البكر، والمعطّرة.

– أوه! ما أغرب أنْ يكون الإنسان مريضاً! قالت وهي تلقي نظرة على نفسها، وحولها، في الغرفة. لم أعد أحب إلّا الأشياء الجميلة، تصوَّرْ... بات ذلك يبهجني حالياً!... لم أعد قادرة على ارتداء شيء رديء... اسمعْ! تملّكتني رغبة... تتذكّر جيّداً، إبريق الماء الصغير المؤطر بالفضة والذي رأيناه عند ذلك الصائغ، في شارع سانت هونوريه، لدى خروجنا من المسرح في الاستراحة... إذا لم يُبعْ، إذا كان لا يزال بحوزته... فعليك أنْ ترسل في الإتيان به... أوه! صار لي ذوق يؤدّي إلى الإفلاس، أحذرك... أريد ترتيب كلّ شيء هنا... آه! إنّني أصير صعبة... تجاه كلّ شيء. لديّ أفكار حول الأناقة... في الماضي لم أكن أتغنج البتة... والآن صار لي عينان لي أنا شخصياً، ولكلّ ما يحيط بي، عينان!... هناك ألوان تحزنني حالياً، هل تصدق هذا؟ وأخرى لم تسبق لي رؤيتها... المرض طبعاً يكشف لي هذا: ما أبشع أنْ تكون مريضاً! هذا يدفعك إلى التعلق أكثر بحب كلّ ما هو جميل...

بذلك الدلال على الموت، وتلك النزوات، وذلك اللطف، وتلك الأناقة، بدت رينيه كأنّها تكتسب مشاعر أخرى. كانت تتحول وتشعر أنّها تتحول إلى امرأة أكثر. وتحت سقم المرض ووهنه بدأت روحها المُحبّة، والتي لا تخلو من فحولة وعنف، تتلطف، وتهدأ وتسكن. وشيئاً فشيئاً بدأت الملامح، والمذاقات والميول والأفكار، وكل علامات جنسها تظهر فيها من جديد. وتغير ذهنها مثل البقية. وصارت تفقد من حيوية أحكامها، وجرأتها اللغوية في الكلام. وحتّى إذا حصل أنْ عادت إليها بعض التعابير القادمة من الماضي، فقد كانت تقول مبتسمة: «إنّه من رينيه القديمة، هذا!...» كانت تتذكّر كلمات قالتها ومبادرات جريئة أقدمت عليها، والنبرة التي كانت تتبناها، وألفتها مع الشبّان؛ وهي أشياء ما عادت لتجرؤ عليها. بدأت تندهش من ذاتها، ولا تتعرّف عليها. هجرت مطالعاتها الجادة أو المسلية؛ ولم تعد تحب سوى الأعمال التي تداعب الفكر بالأحلام، والكتب ذات الأفكار الرقيقة.

عندما يحدثها أبوها عن الصيد بالمطاردة الذي مارسته، والذي ستمارسه، كان يتملّكها الرعب من فكرة امتطاء حصان: يصيبها انطباع عن شخص يوشك على السقوط. كلّ تلك الانفعالات وكل حالات الضعف التي أحست بها في الريف من جديد، كانت جديدة تماماً بالنسبة لها. وحتّى الأزهار التي لم يسبق لها الاهتمام بها قط، صارت تعزّها مثل البشر. ورغم ضجرها من شغل الإبرة في الماضي فقد انكبت على تطريز تنورة داخلية مع شعور بالمتعة في العمل. باتت تستيقظ، وقد ولدت من جديد على إيقاع ذكريات حياتها في مقتبل الشباب... وتنطلق ذاكرتها إلى رفقة بنيّات صغيرات أو فتيان، وصديقات عرفتْهنّ، وأماكن التقت فيها بنساء، ووجوه كانت في الصف نفسه حيث جلست خلال المناولة الأولى في الكنيسة.

ذات مرة، بينما كانت تنظر عبر النافذة، رأت امرأة تجلس في الغبار وسط شارع القرية، ما بين حجر وأخدود، وتخلع قماط ابنها الصغير. كان الطفل على بطنه، وأعلى جسمه في الظل، يحرك ساقيه الصغيرتين، ويشبّك قدميه، ويهتزّ في الشمس: كانت الشمس تسوطه بحبٍّ كما يمكن لها أنْ تسوط عريَ طفل. وكانت الأشعة التي تداعبه وتدغدغه تبدو كأنّها تلقي على كعبيه ورود سلة عيد القربان...

بعد ذهاب الأمّ والطفل، ظلت رينيه تنظر أكثر.

– أرأيت، قالت لوالدها، أنا لا أتمكن من حبّ أحد؛ لقد جعلتَني في منتهى الصعوبة بالنسبة للمحبّة. كنت متأكّدة مسبقاً من استحالة أنْ يحبني غيرك كما تحبني أنت! كنت ألمح مرور الكثير من الأشياء على وجهك عندما كنت هناك، الكثير من الفرح! وعندما نترافق إلى مكان ما، لا تنفكّ تفتخر بي! وتزهو بمناولتي ذراعك! يا أبي، عبثاً يحاول غيرك أنْ يحبني، لن أجد مثل بابا؛ لقد دللتني كثيراً...

– وهذا لن يمنع ابنتي الصغيرة الطيبة، ذات يوم عندما تتحسن صحتها، من الالتقاء بشابّ جميل...

– آه! هذا الشابّ الجميل، بعيد! قالت رينيه وهي تبتسم بعينيها. ثمّ تابعت: يبدو لك عدم رغبتي في الزواج أمراً متفرداً، أليس كذلك؟ حسناً! أقول لك إنّها غلطتك. أوه! لا أتأسّف على شيء... ماذا كان ينقصني؟ بالعكس كان لي كلّ شيء. لم أكن أتصور نوعاً آخر من السعادة، لم أكن أفكر في ذلك، ولم أرغب في التغيير، كنت مرتاحة جدّاً! لكنّني أسألك قليلاً ماعساني أطلب أكثر؟ الحياة، أتمتع بجمالها الرائع قربك... والقلب في غاية الرضا! نعم، ربّما، قالت بعد لحظة صمت، لو كنت مثل الكثيرات من الفتيات، مع والدين فظّين، وأب ليس مثلك... نعم، لكنت على الأرجح تصرّفت مثل الأخريات... ورغبت في أنْ أُحبّ، ووضعت في الزواج ذلك الحلم الذي يهيَّأ له... بعد هذا... يجب أيضاً أنْ أقول لك كلّ شيء، كنت سأجد صعوبة دائماً في العشق. لم يكن ذلك من اختصاصاتي... وكثيراً ما أضحكني قليلاً... هل تذكر، أثناء زواج أختي، عندما كان دافارند يغازلها؟ ولم يفتني التنكيد عليهما! «شرّيرة»، تتذكّر، هكذا وصفاني في نهاية المطاف... يا إلهي! كانت لي أفكاري كسائر الناس، ولن أتحدّث عن أيّام ضياع وأحلام متبخرة. فمن دون كلّ ذلك لا تكون المرأة امرأة... لكن ذلك كان مثل الموسيقى في ذهني، مع قليل من الحمى... أفكار تذهب وتجيء في مخيلتي... لكنّها لم تحطّ على أيّ رجل... أبداً. وعندما أخرج من غرفتي يكون كلّ شيء قد انتهى... وما إنْ يكون أحدهم موجوداً حتّى أُعمل فيه عينيَّ... لا أفكر إلّا في النظر، لأضحك فيما بعد... وأنت تعرف جيّداً كيف أنّ ابنتك السيئة كانت تجيد النظر!... كان لا بدّ...

– سيّدي، قال كريتيانو موارِباً الباب، السيّد ماغو في الأسفل، ويسأل إنْ كانت الآنسة تستطيع استقباله.

– آه! يا أبي، قالت رينيه بنبرة توسل، لا حاجة إلى الطبيب اليوم... لست مستعدة... وصحتي جيّدة... ثمّ إنّه يشخر كثيراً! لماذا يشخر بذلك المقدار يا أبي؟

لم يستطع السيّد موبران منع نفسه من الضحك.

– سأعلمك... يعود سبب ذلك إلى تنقّله الدائم في عربته الرديئة أثناء زياراته الشتائية... وبالنظر إلى أنّ يديه مشغولتان دائماً، إحداهما بالعنان، والأخرى بالسوط، فقد تعود عدم التمخّط...

– هل السماء زرقاء في كلّ مكان، يا أبي؟ انظرْ إذن، قالت رينيه إلى أبيها ذات ظهيرة وهي على كرسيّها المريح.

– نعم، يا ابنتي العزيزة، أجاب السيّد موبران من النافذة، الطقس رائع.

– عجباً!

– لماذا هل تشعرين بألم؟

– كلّا... كلّ ما هنالك أنّه خيّل لي رؤية غيوم وأنّ الطقس سيتغير... الوضع مختلف عندما نكون مرضى، تبدو السماء أقرب إليك، آه! أنا الآن مقياس ضغط جويّ، بارومتر ممتاز...

وعادت إلى مطالعة الكتاب الذي كانت قد طرحتْه على صدرها كي تتكلّم.

– أنت تجهدين نفسك بالقراءة، يا ابنتي الصغيرة. فلنتحدّثْ قليلاً إذن... هاتي...

ومدّ السيّد موبران يده نحو الكتاب فتركته ينساب من أصابعها إلى أصابعه. ولدى فتحه تعرف السيّد موبران على أوراق كان قد طواها قبل أعوام حتّى لا تقرأها: كان الطيّ لا يزال في الأوراق الممنوعة، لاحت رينيه كأنّها تستسلم للنعاس. فالعاصفة التي لم تظهر في السماء بعد بدأت تحط بثقلها عليها. كانت تعاني من ثقل لا يطاق يضنيها، ونوع من القلق العصبيّ ينتشر في كلّ كيانها في آن. كانت الشحنة الكهربائية الطافية في الأجواء تخترقها وتفعل فعلها فيها. حلّ صمت عارم فجأة كما لو أنّه طُرد من الأفق، ولدى مرور هبّة الخشوع فوق القرية ملأتها بضيق نفسي ثقيل. كانت تنظر إلى الساعة، وكفت عن الكلام، وظلّت في كلّ لحظة تحرّك يديها وتزيحهما.

– آه! نعم، هذا صحيح، قال السيّد موبران، هناك غيمة، غيمة كبيرة فوق فرينوا... إنّها تتقدّم! تتقدّم! آه! تقطع المسافة... ها هي ذي تأتي صوبنا، جاءت... هل تريدين أن أغلق كلّ شيء، النافذة، المصاريع... وسوف نضيء النور... وهكذا لن تخاف صغيرتي ليلّي إلّا قليلاً...

– كلّا، قالت رينيه بحماسة، بلا إضاءة... في النهار... لا، لا... ثمّ، تابعت، لم أعد أشعر بالخوف... الآن.

– أوه! ما زال الوقت مبكراً، قال السيّد موبران حتّى يتكلّم: فكلمة ابنته أوحت له بالشموع في هذه الغرفة!

– آه! ها هوذا المطر، قالت رينيه بصوت يوحي بالراحة، إنّه مثل الندى، هذا المطر... نشرب منه، أليس كذلك؟... تعال هنا قربي تماماً...

هطلت قطرات غليظة متباعدة في البداية؛ ثمّ انسكب الماء من السماء كما من قربة مقلوبة. غطى الإعصار موريمون. الرعد يزمجر ويرعد. الريف يشتعل، ثمّ ينطفئ. وفي كلّ لحظة، في الغرفة المعتمة، المخترقة بأضواء شاحبة، كانت بروق تأتي دفعة واحدة، ومن الرأس إلى القدمين، تغطي المريضة المتمددة، الثابتة والمرتخية الجفنين، وتلقي على جسدها كلّه كفناً من ضوء.

زمجر الرعد لمرة أخيرة كانت في منتهى القوة، وانفجر قريباً جدّاً، حتّى أن رينيه ارتمت بذراعيها على رقبة أبيها وأخفت وجهها فيه.

– يا بنيتي لقد انتهى كلّ شيء، قال السيّد موبران.

أما هي فقد رفعت عينيها نحوه، مثل طائر يخرج رأسه قليلاً قليلاً من تحت جناحه، وظلّت متمسكة بعناقه: «آه! ظننت أنّنا متنا كلّنا!»، قالت بابتسامة يخالطها نوع من الأسف.

ذات صباح، دخل إلى غرفة رينيه التي أمضت ليلة سيّئة، فوجدها غافية أو تكاد. ولدى سماعها وقع خطاه فتحت عينيها قليلاً، والتفتت قليلاً: آه! هذا أنت، يا بابا... وهمهمت مرتبكة بكلمات سمع السيّد موبران كلمة «سفَر» تتردّد في وسطها.

– هل تتكلّمين عن السفر؟

– نعم... كأنّني كنت قادمة من بعيد... من البعيد البعيد... من بلاد لم أعد أتذكّرها...

وفتحت عينيها على اتساعهما، وبسطت يديها على الملاءات، فبدت كأنّها تبحث أين كانت ومن أين جاءت. كان هناك تذكّر مشوش، ذكريات شاحبة تبقت لها من فضاءات وامتدادات وأمكنة غامضة، من تلك العوالم والأصقاع الغامضة التي يرتحل إليها المرضى خلال الليالي الأخيرة التي تفصلهم عن الأرض، والتي يخرجون منها مذهولين تماماً، مع دوار اللامتناهي وحيرته، كما لو أنهم حلّقوا، في حلمهم المنسيّ، بالخفقات الأولى لأجنحة الموت!

– لا شيء، تابعت بعد لحظة، إنّه الأفيون لقد ناولوني منه الليلة لكي أنام.

وأتت حركة كأنّها تنفض بها أفكارها:

– أمسك لي بالمرآة الصغيرة... كي أتزيّن... أعلى... أوه! الرجال، كم تنقصكم المهارة!...

رفعت شعرها ممرّرة يديها الهزيلتين فيه. وأعادت وشاح الدانتيلا الذي انزاح قليلاً.

– والآن... قالت، حدّثني... أرغب في الاستماع إلى من يحدّثني...

وأغمضت عينيها تقريباً بينما كان أبوها يتكلّم.

– أنت مرهقة يا رينيه، سأتركك، قال لها السيّد موبران، عندما رأى أنّها لا تبدو مستمعة إليه.

– كلا؛ أنا أتألم قليلاً... تكلّم دائماً، هذا يسليني.

– لكنّك لا تنصتين إليّ... هيّا، فيمَ تفكرين، يا صغيرتي العزيزة؟

– لا أفكر في أيّ شيء... كنت أبحث... الأحلام ليست كذلك... كانت... لم أعد أذكر... آه! قالت تحت وطأة وخزة ألم حادّة.

– تتألّمين؟

لم تجب.

لم ينجح السيّد موبران في منع حركة من شفتيه، ونظرة تمرّد مرميّة في الهواء.

– يا للأب المسكين، قالت له رينيه بعد لحظات. أنا، كما ترى، أستسلم... كلّا، لا يتوجّب الحقد كثيراً على الألم... لقد أُعطيناه لحكمة ما، فنحن لا نتعذّب فقط من أجل أنْ نتعذّب.

وبصوت متقطّع، كانت تستعيد خلاله أنفاسها كلّ لحظة، شرعت تحدّثه عن كلّ الجوانب الإيجابية في الألم، عن ينبوع الحنان الذي يفتحه فينا، وعن هشاشة القلب ونعومة الطبع اللتين يضفيهما على من يقبل بمراراته ولا يغتاظ منه. حدثته عن كلّ أشكال البؤس وكل أصناف الصَّغار التي تغادرنا عندما نتألم، عن غرائز السخرية التي نفقدها، عن الضحكة الشريرة التي نعرّيها، عن المتعة التي نكفّ عن الشعور بها إزاء الآلام الصغيرة لدى الآخرين، عن التسامح الذي يحلّ بالجميع. – لو أنك تدري، كم يبدو لي العقل غبيّاً الآن، قالت له. وسمعها السيّد موبران تشكر في ألمها محنة اصطفاء. كانت تتحدّث عن تلك الأنانية وذلك التكلّف اللذين تغلفنا بهما الصحة، عن تلك الصلابة التي تضمن رفاهية الجسد، وذكرت كم يوجد في المرض من انعتاق وتحرر، وخفة داخلية، وطموح إلى ذاتنا خارج ذاتنا. وتحدّثت أيضاً عن الألم بوصفه السوء الذي يخلّصنا من الغطرسة، ويذكّرنا بعجزنا، ويجعلنا بشراً، ويجمعنا بكلّ الذين يتألمون، ويزرع لنا الرحمة في الجسم. «زدْ على ذلك، أضافت تقول، لولاه لظلّ ينقصنا شيء!... أن نشعر بالحزن...»

وابتسمتْ.

– يا صديقي، نحن تعساء حقّاً، قال السيّد موبران ذات مساء، بعد ذلك ببضعة أيّام، مخاطباً دونوازال الذي قفز للتوّ من عربة أجرة. أوه! كنت أستشعر قدومك... إنّها تنام... سوف تراها غداً. أوه! سوف تجدها تغيّرت كثيراً... لا شك أنك جائع. ثمّ أدخله إلى قاعة الأكل حيث أُعِدّ عشاء سريع.

– اسمعني يا سيّد موبران، قال دونوازال. هي شابّة... وفي عمرها، توجد دائماً طاقة...

وضع السيّد موبران مرفقيه على المائدة، وانهمرت دموعه ببطء.

– لكن، انتبه يا سيّد موبران، الأطباء لم يتخلوا عنها... ما زال هناك أمل...

هزّ السيّد موبران رأسه، ولم يجب، وتابع البكاء.

– لم ينعدم الأمل في شفائها...

– لكنّك ترى جيّداً أنّ العكس هو ما يحدث! قال السيّد موبران منفجراً، وأني لا أريد مصارحتك به! صرنا نخاف من كلّ شيء، أرأيت؟ عندما نبلغ هذا الحد... يخيّل لي... أنّ هناك كلمات تتسبّب في حدوث الأشياء، وهذه الكلمة... أعتقد أنّها ستقتل ابنتي! وهناك كلام عن معجزة، لمَ لا؟ لقد حدثني الأطباء عن إمكانية حصول معجزة... يا إلهي! إنّها ما زالت تنهض. وإنّه لمكسب عظيم... منذ يومين، هناك تحسّن، أرى ذلك... ثمّ إنّ فقدان اثنين في سنة واحدة أمر لا يطاق!... آه! لا يطاق!... لكنْ عليك أنْ تأكل... أنت لا تأكل شيئاً، ووضع السيّد موبران قطعة كبيرة في صحن دونوازال... نحن بشر في نهاية المطاف... إذن... ما الجديد في باريس؟

– لا شيء... لست أدري... وصلت من البيرينيس... السيّدة دافارند هي التي قرأت لي إحدى رسائلك... لكنّها أبعد ما تكون عن تصديق مدى آلامها...

– هل لديك أخبار عن باروس؟

– بلى... التقيته وأنا ذاهب إلى سكّة الحديد... طلبت منه اصطحابي... لكنّك تعرف، باروس... لا شيء في الدنيا يجعله يترك باريس لثمانية أيّام... لا بدّ له من القيام بجولته الصباحية على أرصفة المحطّة... حتّى لا يفوته شيء...

– وماذا عن آل بورجو؟ سأله السيّد موبران باذلاً جهداً.

– يقال إنّ الآنسة بورجو ما زالت ترفض الزواج.

– يا للطفلة المسكينة! كانت تحبّه.

– أمّا بالنسبة للأمّ... فلا يوجد من يضارعها حزناً، كما يبدو... نهاية شنيعة... يتحدّثون عن اختلال، وإفراط... وجنون... ويدور الكلام حاليّاً عن إيداعها في مأوى صحيّ...

– رينيه، قال السيّد موبران في الغد وهو يدخل إلى غرفة ابنته، أحدهم في الأسفل يرغب في رؤيتك.

– أحدهم؟ وحدّقت ملياً في أبيها. أعرف من هو: إنّه دونوازال... هل راسلتَه؟

– كلّا. لم تطلبي منّي رؤيته. ولم أكن أعلم إنْ كان ذلك سيسرّك... هل يزعجك هذا؟

– أمّي، ناوليني وشاحي الأحمر الصغير... هناك... في الدُّرْج، قالت دون أن تجيب. ينبغي عدم إخافته هو الآخر... ربطت الوشاح على هيئة ربطة عنق: والآن أحضريه بسرعة.

دخل دونوازال إلى الغرفة مشبعاً بتلك الرائحة الغامضة المتأتية من المرضى الشبّان والتي تخلّف في غرفهم ما يشبه عبق باقة ذابلة وزهور متماوتة.

– لطف منك، قالت، أنك جئت... انظرْ، لقد وضعت هذا الوشاح من أجلك... كنت تحبّني عندما أرتديه...

انحنى دونوازال على يديها وقبلهما.

– إنّه دونوازال، قال السيّد موبران في آخر الغرفة، مخاطباً زوجته.

لم يظهر على السيّدة موبران أنّها تسمع. ثمّ وبعد لحظة، نهضت، وقصدت دونوازال، قبلته قبلة ميتة وعادت إلى ركن الظل الذي تمكث فيه.

– حسناً! كيف تجدني؟ لم أتغير كثيراً، اليس كذلك؟ ومن دون أنْ تترك له وقتاً للكلام: ذلك أنّ لي أباً لئيماً يراني دائماً في حال سيئة... وهو عنيد! وعبثاً قلت له إني بخير... يردّ بالنفي دائماً. عندما أشفى، سوف ترى كيف أنّه سيرغب في حسباني مريضة...

ولدى رؤيتها دونوازال ينظر إلى ذراعها قرب الرسغ الذي عرّاه زرّ كمّ مفتوح:

– أوه! قالت وهي تزرّره من جديد وبسرعة، لقد ضمرت قليلاً... لكن أمر بسيط... سوف أستعيد صحتي... هل تتذكّر حكايتنا الطريفة حول هذا الموضوع، هل تتذكّر يا أبي؟ والتي ضحكنا منها كثيراً... عند مزارع بروفان، لدى تيتفويد، في ذلك العشاء، تتذكّر جيّداً؟ تصوّرْ يا دونوازال، ذلك الرجل الطيب كان يحتفظ لنا بمحار منذ سنتين. ولحظة جلوسنا إلى المائدة، قال له أبي: «– ما هذا! أين ابنتك يا تيتفويد؟ أعلم أنّها كانت ستتناول العشاء معنا... أليست هنا؟»؛ «– بلى، يا سيّدي.»؛ «– إذنْ عليها أنْ تأتي وإلا فإنّني لن أقترب من عشائك». إذ ذاك انسحب الأب على مقربة؛ وسمعنا حديثاً، ثمّ بكاء، ودام ذلك ربع ساعة. وكان أنْ عاد بمفرده وقال لنا: الحقيقة أنّها لا تجرؤ... تقول إنّها هزيلة جدّاً!... لكنْ قلْ لي، يا أبي، أمّي المسكينة لم تغادر الغرفة منذ يومين... ما دمتُ الآن في حضرةِ حارسٍ مريضة، فماذا لو أخرجتها لتستنشق قليلاً من الهواء النقيّ؟

– آه! يا رينيه الطيبة، قال لها دونوازال عندما بقيا بمفردهما، لا تتصورين كم تسرني رؤيتك هكذا، ورؤيتك مجدداً بهذا المرح! أوه! هذه علامة جيّدة... سوف تتحسّنين، أؤكّد لك ذلك، ومع عناية هذا الأب الطيب، والأمّ المسكينة، وأبلهك القديم دونوازال الذي سيقيم هنا بعد إذنك...

– أنت أيضاً، يا صديقي المسكين؟... لكن انظر إليّ جيّداً!

ومدّت له يديها حتّى يساعدها على بعض الالتفات جانبياً، بطريقة تجعلها قبالته ووجهها في الضوء:

– هل تراني جيّداً الآن؟

وانزلقت ابتسامة من عينيها، من فمها. لقد سقطت الحياة بغتة من ملامحها كما يسقط قناع.

– حسناً! نعم، قالت وهي تخفض صوتها، لقد انتهى كلّ شيء، ولم يتبقّ لي وقت طويل، كما ترى... أوه! أتمنّى أنْ يكون اليوم غداً... لم أعد قادرة، هل ترى... على فعل ما أفعل... لم أعد قادرة على جعلهم يصعدون كلّهم إلى هنا... خارت قواي، أنا أُشرِف على النهاية... وأستعجلها... هو لا يراني الآن، أليس كذلك؟ لا أريد قتله مسبقاً، أرأيت! عندما يراني أبتسم... عبثاً يحسبني منتهية، لم يعد يعرف، لم يعد يرى، لم يعد يتذكّر! حسناً! عليّ أنْ أضحك. آه! أولئك الذين يرحلون كما يريدون... ينتهون مرتاحين... الموت... في راحة، في زاوية، والرأس قبالة الجدار... هذا مريح! ما أسهل الرحيل بتلك الطريقة!.. لكن في النهاية مرّ الأصعب... ثمّ ها أنتذا هنا... سوف

تكسبني بعض الشجاعة... إذا ضعفت، ستكون هنا لتشجعني... وعندما... عندما أرحل... أعتمد عليك... سوف تبقى قربه خلال الأشهر الأولى... آه! لا تبكِ، قالت، ستدفعني إلى البكاء!

وران الصمت لحظات.

– ها قد مرّ ستة أشهر على دفن أخي!، تابعت رينيه، لم نتقابل إلّا مرّة واحدة منذ ذلك اليوم. وتلك الأزمة التي مررتُ بها، هل تتذكّر؟

– نعم، نعم، أتذكّر جيّداً، قال دونوازال، وقد عاودتني عدة مرّات... ما زلت أراك، يا صغيرتي المسكينة، مع إيماءة الألم الفظيعة التي رسمتها بشفتيك اللتين أرادتا النداء، والكلام، ولم تتمكنا من النبس بكلمة واحدة...

– ولم تتمكّنا من النبس بكلمة واحدة... قالت رينيه مكرّرة كلمات دونوازال الأخيرة. ثمّ أغمضت عينيها، ولاح فمها للحظة في همهمة صلاة. ثمّ قالت لدونوازال بتعبير عن السعادة فاجأه: آه! كم أنا سعيدة برؤيتك من جديد، يا صديقي!... معاً ستكون لنا شجاعة أكبر، سوف ترى... سوف ننافس المساكين!

كان الطقس حارّاً وخانقاً. في المساء تُترك نوافذ غرفة رينيه مفتوحة، ولا تضاء المصابيح حتّى لا تجلب الفراشات التي تتسبّب لها في خوف شديد. كانوا يتبادلون الحديث، ومع تلاشي النهار كانت الكلمات تسقط مع الأفكار في خشوع ساعات بلا ضوء وأحلام محجوبة. وسرعان ما كفّ الثلاثة عن تبادل الحديث تقريباً؛ لبثوا صامتين، يستنشقون السماء، مستسلمين للمساء. كان السيّد موبران يمسك فقط بيد ابنته، ويضغط عليها أحياناً. بدأ الظلام يخيّم. وأظلمت الغرفة كلّها. كانت رينيه غاطسة في مقعدها المريح متلاشية في بياض مئزرها الغامض. وجاءت فترة لم يعد يلوح فيها شيء، وتداخلت الغرفة والسماء. عندئذ شرعت رينيه تتكلّم بصوت خفيض ونفّاذ. كان لها كلمات عذبة وعالية، كلمات ناعمة، منفعلة ورصينة، أحياناً تشبه نشيد ضمير نقيّ، وأحياناً تنتشر حولها مثل تعازي ملاك. وتسمو أفكارها، مع المغفرة لكلّ شيء؛ وكان ما تقوله يصل أحياناً إلى الأذن ممّا هو أبعد من الأرض، وأعلى من الحياة، وشيئاً فشيئاً يهبط نوع من الرعب المقدس، مجبولاً من احتفالية الظلّ والصمت، والليل والموت، إلى الغرفة التي ينصت فيها السيّد موبران والسيّدة موبران ودونوازال، إلى كلّ ما بدأ ينبعث من المحتضرة في ذلك الصوت!

على الجدران يُظهر الورق باقاتٍ مفكّكة، سنابل قمح، وزهور ترنجان وشقائق نعمان. وفي السقف رُسمت سماء خفيفة، صباحيّة، ملأى بالضباب. ما بين الباب والشباك مرْكع من الخشب المنحوت، مع وسادة منجّدة، يبدو مثل موضع حميم، معتاد ومنزوٍ في ركن: في أعلاه يلمع قبالة الضوء، جرن ماء مقدس من نحاس يمثل تعميد يوحنا المعمدان ليسوع المسيح. في الزاوية المقابلة، رفّ صغير معلق في الجدار عليه أشرطة حريرية، تظهر فيه كعوب كتب مائلة إلى جانب بعضها بعضاً، ومجلّدات لمؤلّفات إنجليزية. وأمام النافذة المؤطرة بنباتات معترشة تتلاقى في الأعلى وتتقع أطراف أوراقها في الضوء، توجد مرآة مزينة بالمخمل الأزرق وقد وُضعت على طاولة زينة مفروشة بالحرير المزركش بتخاريم، وسط قوارير ذات سدّادات فضية. أمّا المدفأة البارزة في زاوية مكسورة، فقد كانت لها مرآتها المحاطة بالمخمل الناعم نفسه الذي يحيط بمرآة طاولة الزينة. وعلى جانبي المرآة كانت توجد منمنمة لوالدة رينيه وهي لا تزال شابّة، مع عقد لآلئ في جيدها، وصورة أخرى منقوشة في الفضة لأمها وهي أكبر سناً. وفي الأعلى بورتريه لوالدها، بالبذلة العسكرية، رسمته بنفسها، وكان إطاره مائلاً، حتّى ليبدو كأنّه يميل على الغرفة كلّها. وهناك طاولة من خشب الورد تحمل، أمام المدفأة، آخر نزوة من نزوات المريضة: إبريق الماء وطشت الخزف السكسوني، بعد أنْ أبدتْ رغبتها في الحصول عليهما. وأبعد من ذلك قليلاً، قرب النافذة الثانية، كانت تعلَّق التذكارات التي جلبتها رينيه في تنورتها الأمازونية، ذخائر سباقاتها وصيدها، أسواط، بينها سوط من البيرينيس؛ قوائم وعلٍ مجدولة بأشرطة زرقاء وحمراء برتقالية تتدلى منها بطاقة تحدّد اليوم والمكان الذي قُتل فيه الحيوان. بعد النافذة يوجد مكتب صغير كان مكتب والدها في المدرسة العسكرية، وفوقه علب، وسلال، وهدايا رؤوس الأعوام السابقة. أمّا الفراش فكلّه من الموسلين الناعم. وفي طرفه، وكما لو كان ذلك تحت جناح ستائره، توجد كلّ الكتب المتعلقة بصلوات القداس التي حصلت عليها رينيه منذ طفولتها، وقد رُتِّبت على رفّ جزائري تتدلى منه بضع سبحات. ثمّ تأتي خزانة صغيرة منخفضة، يعلوها رف مزدحم بأكداس من أشياء لا قيمة لها، أزواج لُعَب صغيرة مربوحة، أشياء بلورية صغيرة، جواهر زائفة لا قيمة لها، بطاقات رابحة في اليانصيب، وصولاً إلى حيوانات مصنوعة من لبابة الخبز الناضجة في فرن، مع قوائمها الأربع من أعواد الكبريت، كلّ ذلك المتحف الصغير للطفولة الذي تعمّره الفتيات بقطع قلوبهنّ الصغيرة وفُتات حياتهن!

كانت الغرفة مشرقة. فمنتصف النهار يملؤها بالدفء والضياء. وقرب السرير، على مائدة صغيرةِ مهيّأة على غرار مذبح ومغطاة بالقماش، تشتعل شمعتان، وتخفق شعلتاهما في الضوء الذهبي. يخيّم صمت صلاة، يقطعه نحيب، وتُسمَع عبره، خلف الباب، خطوة ثقيلة لكاهن قرية وهو يبتعد. ثمّ سكن كلّ شيء، وتوقّفت الدموع فجأةً حول المحتضرة، وقد أوقفتها معجزة احتضار.

في بضع دقائق، امّحى من وجه رينيه الهزيل كلّ ما يدلّ على المرض وعلامات الألم واضطراباته. حلّ جمال نشوةٍ وخلاصٍ متسامٍ، جعل أباها وأمّها وصديقها يجثون على ركبِهم أمامه. حطّ عليها هدوءٌ وطمأنينةُ انخطاف. بدا كأنّ حلماً يقلب رأسها بارتياح على الوسائد. ولاحت عيناها المفتوحتان على اتّساعهما، والمتوجّهتان إلى الأعلى، كأنّهما تمتلئان باللانهاية، وشيئاً فشيئاً امتلكت نظرتها ثبات الأشياء الخالدة. كان يرتفع من كلّ قسماتها ما يشبه التطلّع المغتبط. كان ثمّة حياة، نفَس أخير يرتجف عند طرف فمها النائم، شبْه المفتوح والمبتسم. صار لون بشرتها أبيض. وحلّ شحوب فضّي ليضفي على بشرتها، ويكسب جبينها سطوعاً كامداً. يمكن القول إنّها بدأت تلامس ضوءاً آخر غير ضوئنا: الموت يقترب منها مثل النور.

كان ذلك التغيير في الهيئة الناجم عن أمراض القلب التي تكفّن المحتضرات في جمال أرواحهن، وتحمل إلى السماء وجوه الشابّات الميتات!

قد يكون الذين يسافرون بعيداً قد التقوا في بعض المدن أو الآثار، ذات سنة في روسيا، وأخرى في مصر، عجوزين، رجلاً وامرأة يلوحان كأنّهما يمشيان أمامهم، من دون نظر ومن دون رؤية. إنّهما الزوجان موبران. ذلك الأب وتلك الأمّ. إنهما وحيدان. آخر ابنة تبقّت لهما، أخت رينيه، ماتت على فراش الولادة.

لقد باعا كلّ شيء، وارتحلا. لم يعودا متمسكيْن بشيء. كلُّ بلادٍ تأخذهما إلى بلاد، وكل سريرٍ نزُلٍ إلى سرير نزلٍ آخر. يتقدّمان مثل الأشياء المقتلعة الجذور والمرميّة في الريح. يتوهان، يجوبان منافي الأرض، متهرّبَين من القبور وحاملَين موتى، محاولين إرهاق ألمهما بأتعاب الدروب، مجرجرَين حياتيهما، كي يستنفداهما، عبر كلّ أصقاع العالم.

Notes

[←1]

«المهرّجون» Les Saltimbanques: استعراض تهريجيّ شهير للثنائيّ دومرسان Dumersan وفاران Varin 1831 يروي بأسلوب هزليّ مغامرات فرقة ممثّلي بيلبوكيه Bilboquet.

(جميع الحواشي، ما لم ترد بذلك إشارة مخالفة، وضعَها المترجم، وأفاد في بعضها من حواشي نشرة فلاماريون Flammarion لهذا العمل، الصادرة بباريس في العام 1990.)

[←2]

مضمار السباق في فوكريسون حيث كان يجرى سباق الحواجز الرائج آنذاك.

[←3]

الدويتو: أغنية أو قطعة موسيقيّة يؤدّيها شخصان.

[←4]

نسبة إلى مدراس، المدينة الهنديّة المعروفة بصناعة هذا القماش المتميّز بألوانه الزاهية، وهو يُصنع من الحرير والقطن (المُراجِع).

[←5]

في حالة مشاة الخطّ infanterie de ligne يتقدّم المحاربون إلى المعركة في صفّ متجاورة أجزاؤه (جنباً إلى جنب)، وليس في طابور متتابع (الواحد تلو الآخر)، ممّا يسمح لهم بتفادي أن يتلقّوا نيران العدوّ دفعة واحدة، وكذلك بإصابته بأكبر قدر ممكن من نيرانهم (المُراجِع).

[←6]

من إيحاءاتها: ميّت في العالَم أو بالنسبة إلى العالَم.

[←7]

أسّس أرمون كاريل Armand Carrel صحيفة المعارضة الدستورية الليبرالية 1830 وانتقل إلى المعرضة الجمهورية خلال مرحلة النظام الملكيّ المعروف بنظام يوليو (سُمّي كذلك لأنه قام على أثر انتفاضة الشعب الفرنسيّ في 27 و28 و29 يوليو 1830، وحمل إلى العرش لويس فيليب الأوّل حتّى ثورة فبراير 1848). وعقب سجال صحفيّ قُتل كاريل في مبارزة جابه فيها إميل دو جياردان Émile de Gérardin سنة 1836.

[←8]

قصر التويلْري: قصر ملوك فرنسا، يقع في قلب باريس، بدأ بناؤه في 1564 على أنقاض مصانع الآجرّ tuiles القديمة، وأُحرق أثناء كومونة باريس في 1871، وهُدّمت أنقاضه في 1883، ثمّ حُوّلت حدائقه، المتاخمة لمتحف اللّوفر، إلى منتزه

شعبيّ (المُراجِع).

[←9]
لافرانس 1807 −1717 Lavreince رسّام سويديّ أقام في باريس بين 1774و1791 وراجت رسومه التي تقدّم مشاهد غزلية دقيقة وذات صبغة روحانية.

[←10]
المتكلّم يواصل الكلام عن «الأرجوحة العجيبة» للافرانس. وفي «كاتالوغ» لأعمال الفنّان، نجد هذا الوصف للّوحة: «أربع نساء عاريات على الشاطئ، تتأرجح إحداهنّ بمعونة حبل مربوط إلى شجرتين...». وفي وصف إحدى تنويعات العمل نقرأ أنّ المشهد مصوَّر «قبل المدّ الذي يأتي ليستر عري الحوريّة المتأرجحة» (المُراجِع).

[←11]
مخلوق أسطوريّ نصفه الأعلى لإنسان والأسفل لماعز.

[←12]
هو تاريخ الثورة الفرنسية الثالثة، بعد ثورتَي 1789 و1830. وأُعلن على أثرها عن قيام الجمهورية الثانية (المُراجِع).

[←13]
ألفريد دو كيدون Alfred de Quidant مؤلّف موسيقي وعازف بيانو كان مشهوراً في عصره.

[←14]
الويست whiste: لعبة ورق نشأت في إنجلترا وشاعت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر (المُراجِع).

[←15]
جيمناز الدراما Gymnase-dramatique، مسرح باريسيّ تأسّس سنة 1830 وحمل اسم «مسرح السيدة» Théâtre de Madame.

[←16]
المفردة الفرنسية mannequin تمّ تبنّيها في العربية، وهي تُطلق على عارض الأزياء، وكذلك على تمثال خشبيّ أو بلاستيكيّ لرجل أو امرأة يُتسخدم لعرض الأزياء في المغازات ومحلّات الخياطة، وهذه الدّلالة هي المقصودة في الفقرة الحاليّة (المُراجِع).

[←17]
المارينغ أو المارينج meringue نوع من الكعك شائع في فرنسا خصوصاً، يُحضَّر من السكّر وزلال البيض، وقد يُضاف له بعض عصير الليمون (المُراجِع).

[←18]
لوحة «اللّيل» للرسّام الإيطالي الكوريّجو (1494− 1534)، وقد سمّي كذلك باسم مسقط رأسه، قرية كورّيجو Corregio، تصوّر ولادة يسوع (المُراجِع).

[←19]
الكونسييرجيري La Conciergerie: قصر ملكيّ قروسطيّ حُوّل أثناء الثورة الفرنسيّة إلى محكمة ثوريّة وفيه اعتُقلت ماري أنطوانيت (المُراجِع).

[←20]
ثلاث من أثرى ضواحي باريس القديمة، ومع اتّساع المدينة صارت تمثّل اليوم بعض أرقى حاراتها (المُراجِع).

[←21]
فينيلون هو الكاتب ورجل اللّاهوت المسيحيّ المعروف (1651– 1715)، أمّا السيّد دو فوا فلعلّ المقصود به هو السيّد دو سانت فوا M. de Sainte–Foy، الذي عُيّن في 1759 مسؤولاً عن الشؤون الخارجية في عهد لويس الخامس عشر. فنكون هنا إزاء مقابلة بين رجل اللّاهوت والدبلوماسيّ (المُراجِع).

[←22]
الجانسنيّة Jansénisme، نسبة إلى مرجعها الأساسيّ المفكّر اللاهوتيّ الهولنديّ كورنوليوس جانسن Cornelius Jansen (يُنطَق بالهولنديّة: يانسن) (1585– 1638): مذهب مسيحيّ متأثّر بفكر القدّيس أغسطين (أغسطينيوس)، نما وانتشر في أوروبّا، بفرنسا بخاصّة، في القرنين السابع عشر والثامن عشر، ضمن ردّ فعل على بعض تطوّرات الكنيسة الكاثوليكية وعلى السلطة الملكيّة المطلقة (المُراجِع).

[←23]
نقرأ في الرواية: Boule، وعلى الأرجح أنّ المقصود هو أندريه شارل بول (1642– 1732) André–Charles Boulle، مصمّم أثاث كان شهيراً في عصره (المُراجِع).

[←24]
فرنسوا كينيه 1964 –1774 François Quesnay: طبيب واقتصاديّ كان أحد أبرز واضعي الاقتصاد السياسيّ.

[←25]
فريدريك باستيا 1850 –1801 Frédéric Bastiat: اقتصاديّ وسياسيّ ليبراليّ كان مدافعاً متحمّساً عن التبادل الحرّ.

[←26]
«نزوة» Un caprice مسرحيّة في فصل واحد، عُرضت في 1847 وكشفت عن نبوغ الشاعر ألفريد دو موسيه Alfred de Musset في الكتابة للمسرح (المُراجِع).

[←27]
كانت منطقة مونفوكون Monfaucon معروفة حتّى 1761 بالمشنقة الجماعية السيّئة الصّيت، التي وصفها الشاعر فيّون Villon، وكان عدد الجثث الذي قد يبلغ الخمسين يترك هناك ليتعفن ويجفّ. أمّا بالنسبة للسّماد العضويّ فهو سماد مستخدم في الزراعة ويتمّ الحصول عليه من خلال تجفيف مواد عضوية متحلّلة. ويُفهم من هذا أنّ أرض ريمولي Remoli الصغيرة ربّما كانت في الماضي مقبرة قديمة تتضمّن كميات كبيرة من السّماد العضويّ المنشأ، وأدّى استخراجها وبيعها إلى ما حصل عليه ريمولي من ثروة.

[←28]

طريقة في التصوير الفوتوغرافيّ ابتكرها الفرنسيّ لوي داغير Louis Daguerre 1787– 1851، تتمثّل في إنتاج صورة على سطح من الفضّة مجلوّ كالمرآة يُعرَّض للنور مباشرةً (المُراجِع).

[←29]

حركة الأورليانيّين: أنصار آل أورليان les Orléans، وهي عائلة تحدّرت منها أربعة من فروع الأسرة المالكة الفرنسية، بما فيها فرع آل بوربون les Bourbons، وكانت الحركة مناوئة لأنصار آل بوربون الإسبان والبونابرتيّين (المُراجِع).

[←30]

كاربونيريّا (Carboneria) أو حركة مُشعلي الفحم: جمعيّة سريّة إيطاليّة تأسّست في مدينة نابولي في مطلع القرن التاسع عشر، ولعبت دوراً بارزاً في توحيد إيطاليا (المُراجِع).

[←31]

سان ألبان برفيل Saint Albin Berville 1788– 1868 محامٍ ليبراليّ دافع على العديد من المتهمين خلال حكومة يوليو. بعد المحاماة ترأس محكمة باريس.

[←32]

دوبان الكبير Dupin aîné 1783– 1865 قاضٍ ونائب ليبراليّ شارك في ثورة 1830، عيّنه لويس فيليب نائباً عامّاً لدى محكمة التمييز، ثمّ انتخب رئيساً لمجلس النواب بين 1832 و1837.

[←33]

فرانسوا غيزو François Guizot 1787– 1874: مؤرّخ وسياسيّ فرنسيّ، عُيّن غير مرّة وزيراً في حكومة ملكيّة يوليو (المُراجِع).

[←34]

جورج بريتشارد Georges Pritchard 1796– 1883: مبشّر بروتستانتيّ بريطانيّ أثار قلاقل عديدة بين بريطانيا وفرنسا بخصوص تاهيتي، كادت تنهي الوئام بين الدولتين الذي كان صانعه هو غيزو المذكور في الحاشية أعلاه يوم كان وزيراً للشؤون الخارجيّة (المُراجِع).

[←35]

الآنسة جورج (1787– 1886) بدأت بالمثيل وهي في الرابعة عشرة من عمرها في مسرح الكوميدي فرانسيز؛ اشتهرت بأداء أدوار ملكات منهنّ ميروب وآغريبين وسميراميس، ومثّلت تلك الأدوار في كلّ من النمسا وروسيا قبل أن تصير معروفة بأداء أدوار الدراما الرومنسية (لوكريس بورجيا، ماري تودور) انسحبت سنة 1849 بسبب سمنتها المفرطة، ومن هنا جاء تدقيق الكاتبين غونكور: «تذكّر بجورج شابّة».

[←36]

هنا لعبة على الكلمات فيها توظيف للجناس غير التامّ بين اللّفظة marabout، الآتية من المفردة العربية «مُرابِط» (التي تُطلق في أقطار المغرب على الوليّ المسلم، وفي أفريقيا السوداء على السّاحر والمشعبذ) والعبارة التي يكرّرها الصبيّ: «Je bous» («أنا أغلي»). كما يشمل الجناس اسم الصبيّ نفسه: مارا Marat (المُراجِع).

[←37]

سيجار من السلفادور.

[←38]

من أغاني بيار جان دو بيرنجيه Pierre–Jean de Béranger الذي كان آنذاك من أشهر المغنّين الشعبيّين، وسوف تلي مقاطع أخرى من أغانيه في السياق لاحقاً.

[←39]

المقصود هو أيضاً المغنّي بيار جان دو بيرنجيه.

[←40]

إحدى أغانيه وكذلك «يهوذا».

[←41]

هي مدينة Caen، يُنطق حرف العلّة فيها بين الألف والواو: «كَوْن»، وليست مدينة «كان» Cannes المعروفة بمهرجانها السينمائيّ السنويّ (المُراجِع).

[←42]

تغيب الفقرات التالية حتّى نهاية الفصل عن بعض طبعات هذه الرواية، وآثرنا ترجمتها بكاملها (المترجم).

[←43]

بييرو Pierrot من شخصيّات «كوميديا ديلارتي» الإيطالية (واسمه بالإيطالية Pedrolino)، يظهر فيها غالباً في دور خادم حالم وبريء، وعاشق خائب لكولومبينا Colombina، التي ينافسه على حبّها أرلكان Arlequin (بالإيطالية أرلكينّو Arlecchino). وقد نال شهرة واسعة في المسرح الإيمائيّ بفرنسا (المُراجِع).

[←44]

اللّفظة de، التي تقابل حرف الجرّ «مِن» في العربية، تشكّل لدى إضافتها إلى اسم الشهرة علامة على تحدّر الشخص من طبقة النبلاء («هو من آل فلان») (المُراجِع).

[←45]

حكومة المديرين le Directoire هي التسمية التي مُنحت للجمهورية الفرنسية الأولى، من 26 أكتوبر 1795 إلى 9 نوفمبر 1799، وهي آتية من الجهاز الإداريّ المشكّل من وجود خمسة رؤساء حكومة سُمُّوا «مدراء»، تقاسموا الجهاز التنفيذيّ والوزارات، تفادياً للطغيان (المُراجِع).

[←46]

إشارة إلى رسوم الكاريكاتور «العجيبة والغريبة» Incroyables et Merveilleuses التي نشرها الرسّام كارل فيرنيه Carle Vernet 1758– 1835 خلال حكومة المديرين، وكان كارل فيرنيه قد تخلّى عن أفكار الثورة التي دعمها في البداية، بسبب إعدام أخته بتهمة «موقفها المعتدل».

[←47]
إشارة إلى الإجراءات التي تمّ اتخاذها بين مايو 1793 وديسمبر1794 لمنع احتكار الموادّ الغذائية والحدّ من ارتفاع الأسعار.

[←48]
أي صحيفة «المونيتور أونيفيرسيل» Moniteur universel التي تأسّست سنة 1789 وكانت تعتبر الصحيفة الرسمية للحكومة حتّى 1869 تاريخ تأسيس صحيفة الوقائع الرسمية الراهنة.

[←49]
نوع من رقصة المازوركا البولونية.

[←50]
عمّتي» بلغة الأطفال، من الفرنسيّة tante (عمّة) (المُراجِع).

[←51]
أوغست بيَار 1882 -1798 Auguste Biard رسّام متخصّص في عادات الشعوب.

[←52]
شراب مسْكر مكوّن من كحول وتوابل مختلفة.

[←53]
مثل لاتينيّ مأخوذ من بيت لفيرجيليوس (فرجيل) يصف فيه كيف أنّ ديدون ركضت في الغاب هرباً من شغفها بإنياس، بطل «الإنياذة»، فأصيبت بسهمٍ و«بقيت النبلة القاتلة عالقة في خاصرتها» Hœret lateri lethalis arundo (المُراجِع).

[←54]
السّرع vrille هو اسم الورقة التي تنقلب إلى خيط لحمل النبتة كما في العنب. والدودية الأرجوانية volubilis اسم علميّ لنبات حوليّ ملتفّ تتفتّح أزهاره القمعية حتّى الساعة التاسعة او العاشرة صباحاً.